wafaa
رواية
المجندة والقناص
بونيف لزهاري

المجنّدة والقنّـاص

اسم المؤلِّـف: بونيف لزهاري
alazharione@gmail.com
عنوان المؤلَّف: المجنّدة والقنّاص
النّوع: رواية
تنسيق داخلي وإخراج فنّي: قاسم إدريس
تصميم الغلاف: حنان ميزو
الطبعة الأولى: 2024
الردمك: 978-9969-515-14-5
دار العكاظية للنشر والتوزيع
الهاتف: 0658908590
الايميل: marwa.25 cben@gmail.com

لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضّرورة عن رأي الناشر

المجنّدة والقنّــاص

روايَــة

بونيف لزهاري

العكاظية
للنشر والتوزيع

الإهـــداء:

إنْ لمْ تكنْ فلسطينُ قضيتكَ؛
فلا قضيّة لكَ..
إلى كلّ حرّ شريف...
إلى غــزة؛ قلبُ الأمّة النّابـض..

عَلى هَذِهِ الأرْضِ مَا يَسْتَحِقُّ الحَيَاة
عَلَى هَذِهِ الأرضِ سَيِّدَةُ الأُرْضِ،
أُمُّ البِدَايَاتِ أُمَّ النِّهَايَاتِ.
كَانَتْ تُسَمَّى فِلِسْطِين.
صَارَتْ تُسَمَّى فلسْطِين.
سَيِّدَتِي: أَستحِقُّ،
لأنَّكِ سيِّدَتِي،
أسْتَحِقُّ الحَيَاةْ.

محمـــود درويش
شاعر فلسطيني

" ليس المهم أن يموت الانسان قبل أن يحقق فكرته النبيلة، بل المهم أن يجد لنفسه فكرة نبيلة قبل أن تموت... "

غسّان كنفاني
كاتب فلسطيني

" التاريخُ كالنهر، له روافد، وله أيضًا مَصَبّ.. إذًا.. ماذا لو كان التاريخُ سيلٌ من الدماء؟!"

الكـاتب النبيل
بونيف لزهاري

الجزء الأول

هو صوت يعلو فوق صوت المعركة.

ظُهر يوم الخميس 11 أوت 2002..

صوّبتْ اوليندہ المسدسَ نحو جبينِ غسّان بيدين مرتعشتين؛ تحاول أن تقف أمامه وقفة عسكرية صارمة، سبابتها ترتجف على زناد المسدس، وتنزلق من جبينها قطرات متلاحقة من العرق، تلاها انفجار مفاجئ للدموعِ من بؤبؤي عينيها الزرقاوين؛ كشلّال ماءٍ طال احتقانه.

أمّا غسّان فجالس على الأريكة؛ يقابلها فارجًا رجليه، يحرّكهما فتحًا وإغلاقًا، يضع كلتا كفّيه على ركبتيه، تعلو شفاهه ابتسامة باهتة؛ ممزوجة بالسخرية والاستعلاء، يبدو متماسكًا هادئًا؛ بل قويًا، يرفع رأسه مُحملقًا إليها، لا يرفّ له جفن، رغم أنه الآن معرّض للقتل، لا يكترثُ ممّا قد تُقْدِم عليه، لقد قال كلمته منذ وقت طويلٍ؛ أطلقها بلا خوفٍ، قبل أن تفكّر هي بإطلاق رصاصتها في جمجمته.

بعد أن تأمّل رقبتها الناصعة البياض، اكتشف انّ الندْبة اختفت منها، كان ذلك علامةً على قرب اختفاء وجوده.

حرّضها للضغط على الزناد؛ فقال بصوتِ الواثق من نفسه:

- هيّا...ماذا تنتظرين؟ اطلقي رصاصتك، عبّري عمّا في داخلك، قد يموت هذا الجسد البالي، لكن ستبقى ذكراي تعذّبكِ لِما تبقّى من عمرك.

هي لا تصدّق ما هي عليه الآن؛ كيف أنّه بعد حبٍّ شاقٍ دام سنتين تامتين بفصولهما، حاربتْ من أجله كلّ مَن حولها، تقف هذا الموقف المرعب؟ بل لم تتخيّل أنّها يومًا ما ستحبّ ما كانت تكرهه طول حياتها؛ كُرهٌ رضعتْهُ مع حليب أمّها، تحاول الآن أن تقيْئه كأخبث ما تغلغل في جوفها.

إنّ هذا الحبُّ الشاقّ؛ الذي ربما لم يحدُث أبدا؛ يوشك أن ينتهي بجريمة، و رُّبما كأيّ حُبٍ ينقضي بالفراق، غير أنّ هذه النهاية تريد أن تحدُث بشكل مُريع جدًا.

قالت بحروف متقطّعة:

- لماذا... لماذا لم تقتلني؟ أُتيحتْ لك الفرص لذبحي أكثر من مرّة، لكنّك لم تفعل، لماذا...أخبرني لماذا؟

ظلّ صامتًا ولم يجبْ، حتى أردفتْ وعيناها تُدقِّقُ في عينيه بحدّةٍ بالغة تحذّره:

- ايّاك ... اياك أن تقول أنّكَ أحببْتني...!

استمرّ في صمته، كرجل تحوّل إلى صنمٍ صُنع من حجرة صمّاء...

وهي تفكّر؛ كيف أنّها خانت وطنها العظيم اسرائيل؟ فكانت لعبةً في يدي أحد الأعداء من الفلسطينيين...

تتساءل مندهشةً:

كيف تمكّنتْ من حبِّ عدوٍ أزليٍ...؟

بينما يتساءل هو في نفسه:

-هل كان حبّاً ما جمعهما؟

اخترقت سيارة الإسعاف سحابةً من الأدخنة السوداء والبيضاء الكثيفة؛ مصدرةً أصوات تنبيه الطوارئ، ينبعثُ من على سطحها ومضات أضواء حمراء، تُشعُّ من مصباح دائري يلتفّ حول نفسه، يسطع و يخفت بسرعة هائلة. غير أنّ السيارة سرعان ما حوصرت من كلّ الاتجاهات حينما توسّطت الطريق، صارت تائهة بين أعيرة بنادق الجنود الاسرائيليين من جهة، و بين مقذوفات و حجارة المتظاهرين الفلسطينيين من جهة أخرى؛ ككرّة تتلاعب بها الأقدام، تُصيبها أحيانا القنابل المسيلة للدموع و الرصاص المطاطي، وأحيانًا أخرى ينالها شيءٌ ممّا يرميه الشباب الغاضب.

في خطّ تماسٍ خطيرٍ، يقع على مستوى تقاطع طرقٍ يفصِلُ أطراف يافا عن مدينة الرملة جنوب شرق مدينة تل أبيب، لم تتمكّن السيارة من أن تتقدّم بسرعة نحو الجنود؛ خوفا من ردّة فعلهم، كأنْ يتحجّجون بأنّها عملية دهس فيطلقون النار الحيّ عليها دون تردّد، كما لم تتمكّن أن تعود الى الخلف بعد أن سدّ الشباب طريقها بالإطارات الملتهبة المنبعث منها دخانٌ أسود شديد الكثافة يُزكم الأنوف، ويضيق التنفّس، ويخنق المكان كلّه، بل يسدّ أشعة الشمس، ويحجب وجه السماء الصافي في منتصف نهارٍ صيفي حار.

يتوّزع الناس مجموعاتٍ وأفراد، يركضون في اتجاهات متفرقة، منهم الذي يرمي الحجارة بالمقلاع، ومنهم الذي يجمع الاطارات ويوفّر الحجارة لرفاقه؛ يأتي بعضهم بحجر كبير، ثم يقذف به على الأرض ليكسّره،

يكرّر الأمر مرات عديدة حتى يفتّته ويتمكّن الآخرون من إستخدامه. أغلب المتواجدين يرتدون اللُّثم اتقاء الغازات المسيلة للدموع، وخوفاً من التقاط صورهم، كما تركُن بعض سيارات الإسعاف الأخرى؛ متأهّبة لكل طارئ؛ في جوانب طريقٍ يشقّ التلال المكسوّة بشجر الزيتون خلف تجمّعات الحشود الهائلة.

تميل سحب الأدخنة على الجنود، كأنّ الشباب ينفثون الريح بأفواههم نفثًا، يدفعونها نحوهم بصرخاتهم التي تُزلزِل المكان، يركضون في كرّ وفرّ متبادل معهم، بينما يحمل بعض الاطفال أعلام فلسطين؛ العلم ذو الأربع الألوان أسود وأبيض وأخضر، أمّا اللون الأحمر فيشعّ على كل الألوان في بدايتها كرأس سهم حارق.

كان غسّان يجلس في سيارة الإسعاف المحاصرة مع زميله السائق فارس، وهما يسعلان، وتسيل عينهما بالدموع من الأدخنة، إذ لم يمنع الزجاج المغلق من تسرّب الدخان اليهما، حتى ساءت الرؤية، ليأمر غسّان زميله مضطرًا؛ بأن يتقدّم نحو الجهة المقابلة، حيث يتمركّز الجنود، بينما يقوم هو بفتح الزجاج، فهي الجهة الوحيدة التي لا شيء يعترض طريقهما فيها سوى أحجار صغيرة متفرّقة، استطاعا أن يتفاداها بشيء من الانحراف، لقد رأيا أنّه لا منفد لهما سوى هذا السبيل، إذ لا يمكن الاعتراض على مرورهما بينهم، كون سيارات الإسعاف لا دخل لها في أيّ اشتباك، كما أنها لا تحمل مُصابا حتى يخشيا اعتقاله، لذا يُفترض أنّها تتمتّع بالحماية القانونية في الحروب بموجب الاتفاقيات الدولية، يستجمع السائق شجاعته فيقترب منهم رويدا رويدا بحذرٍ شديد؛ مخفّضا سرعته إلى أدنى حدٍ حتى أوشك على الوقوف، فتبيّن لهما أن الجنود مدجّجين بالأسلحة، وبذخائرَ متنوّعة على صدورهم، ومسدسات

تلتصق في الجهة اليسرى من الخصر، مع جيوب كثيرة على زيٍّ عسكري أخضر بها عُدة متنوّعة، تمتدّ من على الكتف حتى الركبتين المغطاة بواقٍ أسود اللون، يرتدون خوذا تحمي رؤوسهم، تلتصق بها واقيات من البلاستيك الصلب تحمي وجوههم، حيث لا يكاد يُرى من كل جندي سوى شيءٍ بسيطٍ من وجهه.

في لحظات سير السيارة البطيء؛ سمعا أصوات قرع الحجارة وهي تتهاوى على سقفها، لتسقط في نفس الوقت من وسط الجنود مُجنّدةٌ أرضًا، مُطلِقةً صرخة قويّة أرعبت الجميع، فأسرع كل القريبين منها بالالتفاف حولها يصرخون، كانت المُصابة رئيستهم الضابطة اولينده، التي ما إنْ سقطت حتى انكمشت بجسدها على الأرض، تُمسك بيدها اليسرى على رقبتها النازفة.

توقفت سيارة الإسعاف مضطرة، فقام الجنود غاضبين يحاصرونها، مُوجّهين بنادقهم نحو فارس ومرافقه، انهال عليهما أحدهم بسيلٍ من السباب واللعنات، ويأمرهما أن يترجّلا، بينما قام الباقون بفتح الأبواب الخلفية باحثين عن مصاب مُفترضٍ ليعتقلوه، حاول غسّان أن يمنعهم، متحجّجًا بأنّ القانون يمنع ذلك، لكنهم دفعوه جانبًا مع كيلٍ من السُّباب حتى كاد أن يسقط، قاموا بفتح الباب فلم يجدوا أحدا سوى بعض الأجهزة للإسعافات الأولية على سرير الإجلاء، على أرضيتها بقعا من الدماء الجديدة لمصابين نقلوا في هذا اليوم. أمر نائب الضابطة غسّان بلغة عربية جيّدة أنّ يتقدّم ليُسعف الضابطة، يتردّد في الاستجابة، لكنّه يمتثل لأوامره بعد صراخ عالٍ دار بينهما مرفوق بتهديد بالسلاح من قِبل الجميع، يندفع غاضبا داخل مؤخرة المركبة، يخرج منها يحمل بقبضة يده اليسرى صندوق الاسعافات الأولية. يبدو غسّان شابًا في نهاية

العشرينات، قصير القامة، يرتدي سترة حمراء عليها رمز أبيض للهلال الاحمر الفلسطيني، بجسم رياضي مشدود، أسمر البشرة، بشعرٍ مجعّدٍ شديد السّواد، ووجهٍ عريضٍ خالٍ من الشعر إلا من حاجبين كبيرين فوق عينين سوداوين كبيرتين، مرتديًا نظارة طبية، بأنفٍ متناسقٍ مع الوجه. يتجه نحو المصابة، بينما الجنود خلفه يتّبعونه، مصوّبين بنادقهم نحو قفاه، في حين قام الجندي الآخر بمخاطبة رؤسائه على جهاز اللاّسلكي، لكي يرسلوا لهم سيارة إسعاف أخرى بعد أن أخبرهم أن السيارة الأولى قد غادرت ساحة الإشتباكات مُجليةً أحد المصابين قبل لحظات قليلة من إصابة الضابطة، فيما اجبروا فارس أن يقف قرب سيارته تحت حراسة مشدّدة.

أثناء ذلك تساقطت على الساحة حجارةٌ متفرّقة، كأنّ السّماء تُصبُّ حجارتها مِن بين سحب الأدخنة. انحنى غسّان على المجنّدة المصابة بعدّته الخفيفة، وقد وقف جنديان وراءه يحميانهما بواقٍ كبير من صفيحة حديدية خلف احدى المدرّعات العسكرية، يراقبان تصرفاته، في حين تستلقي الضابطة على كتفها الأيمن؛ وهي تأنّ من الألم الشديد، يظهر في أعلى زيها العسكري؛ على ذراعها الأيسر؛ قطعة قماش بيضاء، مُطرّزةٌ عليها نجمة سداسية زرقاء اللون، تتوسّط خطّين بنفس اللون؛ القطعة تُمثّل علم إسرائيل الوطني. فيما المُصابة استمرت في البكاء والصراخ، إلى أن قامت زميلتها إيمي بنزع الخوذة من رأسها، ثم اقتلعت حقيبة الظهر عنها، فزادت أولينده انكماشًا برقبتها بين كتفيها، كأنّها تريد أن تُخفي رأسها، وكلّما ضغطت بيدها على رقبتها إعتلى دمٌ كثيرٌ أصابعها حتى غطى خاتم الذهب الذي تلبسه، طافيا على كامل ظهر يديها، لم تنفع محاولات زميلتها في إيقاف تدفّق الدّماء، رصّت عليها قطعا كثيرة من لفائف القطن دون جدوى.

تبيّن لغسّان أنّها فتاة في منتصف العشرينات من عمرها، بشعرٍ أصفرٍ منسدل الى الوراء يمتدّ حتى منتصف ظهرها، عيناها المغمضتان تقطران دموعا غزيرة تبلّل صفحة وجنتيها. قام بوضع عدّته على الأرض، ثم فتح صندوق الإسعافات بحركة خاطفة ليرتدي قفازات طبية بيضاء، وأخرج مجموعة من الأدوات؛ وهي الكمّادات، وسوائل تعقيم، ومحلول كحولي، وحقن، ثم حطّ يده على يديها كأنّه يطمئنها بقدوم المُسعف؛ أزاح بهدوء؛ عن مكان الجرح؛ يدها الاولى ثم اليد الأخرى، وهو يطمئِنُها بلغة عبرية سليمة، استجابت له بصعوبةٍ دون أن تنظر إليه، تفحّص جرحها فوجده غائرا جدا في رقبتها، بدأ بمسحها كلَّها، والتي كانت قد تحوّلت من لون أبيض صافٍ إلى أحمر قانٍ، نظّفها بضمّادات معقّمة، صبّ عليها شيئا من سائل الكحول المطهّر، أخذ يرشُّ بلطفٍ فوق مكان الجرح، لكن الدماء استمرّت في النزْف؛ بل كانت تندلق منها اندلاقًا، تأكّد بأن الإصابة عميقة، وأن الحجر الذي أصابها كان حادا جدا، وقد اخترق جلدها الرقيق فجرحها جرحا عنيفا، أتمّ تنقية الجرح بعناية باستعمال قطنٍ كثير، مرّر مرّارا ضمادات معقّمة جديدة في اتجاهين متعاكسين، لكنه في آخر الأمر قرّر أن يخيط الجرح بسرعة فائقة حتى يتوقف النزيف، أمرها ألاّ تتحرّك وأن تثْبُت في مكانها، حقن حقنتي تخدير في طرفي الجرح دون إبطاء، ليتمكّن من اخاطته بطريقة جيّدة دون أن تشعر بألم الوخز، استعمل جميع الأدوات الموجودة في الصندوق، لينهي عمله سريعًا.

لقد كان عمله مُتقنًا ومثاليًا رغم الفوضى العارمة التي عمّت المكان، ورغم البنادق الموجّهة إلى رأسه، وبعد إتمام عملية الخياطة غطّى الجرح بضمادات لاصقة، ثم تراجع خطوات الى الوراء واقفًا، مُعلنًا للجنود نهاية

مهمته بنجاح، موصٍ بإجلائها في أقرب وقت، تركوه ينصرف بعد أن طُلِب منه تقديم بطاقتي هويته و عمله.

تم تسجيل معلوماته في دفتر خاص، كما يلي:

الاسم: غسّان عمر عثمان احمد.

عائلة: آل سامي.

تاريخ الازدياد: 14 يوليو 1972 يافا.

مكان الازدياد: يافا، دولة اسرائيل.

العنوان: شارع 133، رقم: 14.

الوظيفة: مُسْعف طبّي.

رقم البطاقة: 73907.

كان التسجيل على الدفتر ضرورة واحتياطا، كإحتمالية أن تتأذّى الضابطة من إسعافه مستقبلاً. العمل السريع الذي قام به؛ إما أنه فائق الإتقان يدعو للإعجاب، وإما أنه فائق الخطورة يدعو للريبة، أذِنوا لهما بالمرور، دون تقديم كلمات امتنان.

اندفع فارس مُسرعًا بالسيارة؛ انطلق من الحاجز الإسرائيلي كأنما فرّ من كمّاشة صيد، نظر شزرا إلى رفيقه، وهو يرسل اللعنات على جيش الاحتلال، وعلى الخونة دون استثناء.

لم يتمالك نفسه عن التعليق فيما حدث لهما، ضغط على أسنانه... تمتم بغضبٍ:

- لم يمرْ أسبوع واحد على جنود الاحتلال من قتْلِهم للطفل محمّد الدُرّة في حِجْر أبيه، حتى صرنا الآن نخيط جراحَ مُجرميهم دون اعتراض...!

قام غسّان بضرب لوحة القيادة بكفّ يده بقوة مفرطة؛ حتى اعتقدا أن شيئا ما قد كُسِر فيها؛ ثم صرخ في وجهه حتى تطايرت من شفاهه دفعات من البصاق تناثرت في المكان.

وقال بأعلى صوته:

- ماذا كنتَ تستطيع أن تفعله أيّها المغفل إذا صوّبت في وجهك الحقير عشرات البنادق من أولئك الانذال؟ لو كنتَ رجلاً كما تدّعي لما توقفتْ عندهم أصلاً، أو كنتَ على الأقل قد قُلتَ هذا الكلام في وجوههم قبل قليل...!

ارتعب فارس من ردّةَ فِعْلِ زميله؛ فالتزم الصمت...

مرّتْ دقائق دون كلام، إلى أن قال:

- أتدري عقوبة ما فعلتْ؟ ستُفصل مِن وظيفتك، على أقلّ تقديرٍ.

أجابه باستهزاء:

- فليفعلوا ما يشاؤوا، أتحدّى أي شخص كان في مكاني أن يفعل غير ما فعلتُ.. بمن فيهم أنتَ، و مدير المستشفى، أو أي شخص آخر.

عمّ الصمتُ، مرة أخرى.

مضت سيارة الإسعاف في طريقها، تجوب الطرقات والشوارع دون جدوى، حاول فارس أنْ يعود بها الى المستشفى، أو أن يوصلها الى مكان مناسب حيث المواجهات التي كانوا فيها؛ أي خلف خطوط الشباب كما كانت قبل أن تُحاصر، لكنّهما لم يتمكّنا من شقّ طريقهما لكثرة الاشتباكات والحواجز العسكرية في ذلك اليوم الأسود الطويل.

لم يمض وقت طويل حتّى أُجليت الضابطة نحو المستشفى العسكري المركزي الاسرائيلي، كان العمل الذي قام به المسعف الفلسطيني حاسمًا في

انقاذها من الموت، ومع ذلك حُقِنَتْ بعدها بأدوية مضادة للميكروبات، وغُيرتْ لها الضمادات فور وصولها للمشفى، دون تغيير التقطيب الأول.

زارتها مساء ذلك اليوم زميلتها إيمي، التي تبدو شابة ذات بشرة سوداء بشعر أسود طويلٍ مضفور، دخلت عليها مبتسمة، قبّلتها من كِلا الخدين، وهي لاتزال مستلقية على السرير.

ثم قالت لها:

-الحمد لله أنّكِ بخير.

ردّتْ أوليندە بصوتٍ غاضبٍ:

- أفٍ أفٍ... أين هو الخير؟ لقد اكتشفتُ أني فقدتُ قلادتي الذهبية في الحادث، فهل عثرتِ عليها يا إيمي؟

صفعت إيمي صدرهَا المكشوف بكفِّ يدِها مندهشة؛ وردّتْ:

-أحقاً ما تقولين؟ قلادتك الرائعة تلك؟ يا للهول..!!

-نعم، لقد فقدتُها، ألم يجدها أحد زملاءِنا في مكان إصابتي؟

-لا، لا... لمْ يجدها أحدٌ، و لم يتكلّم أحدٌ عن الأمر.

تصرخ وهي تذرف الدموع متحسرةً على ما أصابها:

-إنّها قلادة ثمينة جدًا... جدًا، يا ويلي.

في محاولة لتهدئتها؛ ردّت ايمي:

- أعلم ذلك، لكنها ليست أثمن من حياتك، كان من المفترض ألّا ترتديها في العمل اصلاً...من حسن حظك أن الإصابة ليست رصاصة من بندقية القنّاص، وما هي إلاّ حجرة من أولئك الملاعين.. أمّا عن القلادة فستعوّض مهما كان ثمنها.

قاطعتها باستهزاء، تتأفّف:

-كانت حجرةً حادةً قطعتْ قلادتي، كادت تذبحني...يا ويلي، لقد أضعتُ قلادتي التي لا تعوّض أبدا، القلادة التي ورثتْها أمّي من جدتي آنّــا.

علّقتْ إيمي على كلامها:

- على كلّ حال، لن يكون السارق سوى ذلك الشاب الذي أسعفكِ.. مؤكّد.

انتفضت متعجّبة تسأل:

-مَنْ تقصدين؟

-الشاب الفلسطيني الذي أنقذ حياتك؛ هو مَنْ سرق قلادتك الثمينة بلا شكّ.

انكمشت جبهتها، وقالت:

- كيف...؟ ماذا تقصدين؟ مَنْ أنقذني؟ مَنْ؟

- من أسعفك أول مرّة هو ذاته الذي سَرَقكِ، كان شاباً فلسطينياً وسيماً.

استشاطت غضبا، أرادت أن تستند على يديها كي تقوم، لتمنعها إيمي عن ذلك، وهي تكرّر:

- أحقا ما تقولين؟ أحقا ما تقولين؟

- أجل يا صديقتي، إنه مُسعف فلسطيني، قام بإخاطة جرحك بإتقان قلّ نظيره، ثم طردناه شرّ طرْدة.

احمرّ وجهها الدائري الأبيض، وقالت:

- يا للعار، كيف تسمحون له بأن يلمسني؟ كنتُ أظنّه أحد مُسعفينا، لقد سمعتُه ينطق لغة عبرية سليمة حين طلب منّي أن أنزع يدي مِن على الجرح.

- نعم، لكن تعلمين أنّ سيارة الإسعاف الخاصة بنا انطلقت قبل أصابتك بثواني قليلة، وإضطررنا مُكْرهين أن نوقف سيارة إسعاف فلسطينية لإسعافك. هو لم يلمسك بالمعنى الحرفي، إذ كان يرتدي قفازات طبية على كل حالٍ.

- يا للعار، كان الأولى أن تتركوني أموت بدل أن يسعفني فلسطيني نجسٍ ملعون، ثم يسرقني و أنتم غافلون؛ يا لكم من أغبياء...!

أرادت إيمي تهدئتها:

-لقد خدِمنا غصبًا عنه، وأنت الآن بخير.. لا تقلقي؛ كل معلوماته بحوزتنا.

أضافت، بينما أوليندە تسترسل في اللعنات على حظّها العاثر:

- لقد استبدلوا مجموعتنا مباشرة بعد نقلك الى المشفى، ويبدو أن كل أفراد الفرقة ستمتثل أمام لجنة تحقيق من الشاباك بعد هذه الحادثة، على رأسهم نائبك، ونحن معرّضون جميعا لآلاف الأسئلة الصعبة، وأنتِ الوحيدة الناجية من التحقيق، كما نجوتِ من حادث الاصابة.

تنهّدت بعمقٍ، ثم خاطبت زميلتها وكأنها تذكرتْ شيئا مهمّا، مشيرة إلى زميلتها:

- إيّاك أن تخبري والدتي بما حدث...إيّاكِ..

- اطمئني، أنا لم ألتقها أبدا، وكل فرقتنا مُنعِتْ من الخروج من المعسكر بعد إنتهاء مهمتنا بأمر من قائد المعسكر إلا لزيارتك، كما سُحبتْ منّا كل وسائل الاتصال، بما في ذلك جوّالاتنا.. قيل لنا أن ذلك بسبب التحقيق الذي سيطالنا.

تتأفّف أوليندە بأسفٍ:

- يا ليتني ما نجوت، وما مسّني ذلك النجس ولو ارتدى قفّازات طبية، لقد تجرّأ على سرقتي.. لولا وجودكم معي لكان قد نحرني بالسّكين، لا أن عالجني، متأكدة أنا من ذلك.

أجابت إيمي مؤكدة حديثها:

- أكيد، فالعدو يظلّ عدوًا مهما أبداه من لين.

ما إن انتهت من جملتها حتى سمعتا صوتًا يتسلّل اليهما قبل أن تريا مصدره، مُؤكِّدًا كلام إيمي، فاستغربتا من ذلك، حتى اقتحم عليهما الغرفة رجلان يرتديان الزي العسكري دون أن يستأذنا في الدخول، قدّم العسكريان نفْسيهما على أنهما تابعان لجهاز الاستخبارات الداخلي الشاباك، ثم كرّر أحدهما كلامه، موجّها خطابه نحو إيمي.

قائلاً:

- صدقتِ..

ثم أردف:

- لا تستغربي، نحن أعضاء من لجنة وحدة التحقيق8200 التابعة للاستخبارات، نعدّ تقريرا مفصّلا عن الحادث الذي وقع لكم مع المُسعف الفلسطيني.

تعجّبت أوليندء لهذا الموقف العجيب الذي تورّطت فيه دون أن تدري؛ موقف إسعاف فلسطيني لها، وإنقاذها من موت وشيك.

قبل هذه الحادثة عاشت البلاد هدوءً نسبيًا دام بضع سنوات، لكن أحداث العنف سرعان ما إنفجرت، فسُمّيت هذه الأحداث إنتفاضة ثانية بعد زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي ارئيل شارون للمسجد الأقصى، اعتبرها الفلسطينيون انتهاكًا للحرم الشريف، واعتبرها الإسرائيليون حقا من حقوقهم. كان شارون رجلاً بدينا جدًا بشعر رأسٍ أبيضٍ ووجه بدين

مجعّد، أما عن عينيه فغير متشابهتين، إذ عينه اليُسرى تكاد تكون حولاء أو كأنها عين إصطناعية، كثيرا ما كان يُخفيهما بنظرات شمسية سوداء كبيرة، كان أعرجا في سيره، يحيط به المئات من أفراد الشرطة، يقومون بحراسته من بطش المصلّين، أما الأيام والأشهر التي تلت زيارته فقد كانت حامية الوطيس، خلّفتْ قتلى وجرحى كثيرين من الجانبين، وكانت الشرارة الأولى التي أشعلت الأحداث كلها.

تذكّرتْ أولينده أثناء التحقيق معها حول حادثة المسعف، بأنّها لم تتعرّض للتحقيق العسكري الصارم إلا قبل سبع سنوات عندما كان عمرها حينها تسعة عشر سنة، حين قدّمت طلبًا لكي تنخرط في الجيش الإسرائيلي. إنخراطها في الجيش كان تحقيقًا لحُلم أمّها آليس ضابطة الموساد السابقة، أو كما أخبرتها يومًا بأن هذا حُلُم جدّها دافيد.

كان التحقيق الأولي للإلتحاق بالجيش عميقا وطويلا جدا وقاسيًا، بينما سَلَبَت التدريبات كثيرا من أنوثتها، فلقد لُقّنتْ أن كل تمرين تقوم به بجدٍ سيحميها من الموت؛ العرق والتعب، أفضل من الدم والدموع والأسْر، تعلّمت أن القتل دون رحمة يُنقذ حياتها من أعدائها، وأن العدو الذي تواجهه أخطر ممّا تعتقد.

❖

جاءت الأم آليس من بريطانيا الى إسرائيل منذ خمس عشر سنة مع إبنتها، حينما كانت أولينده تبلغ إثنى عشر سنة، روتْ لها أحاديث عن معاناة الأجداد في ألمانيا النازية، بلدها الأصلي، أحاديث أشبه بالكوابيس والأساطير، ملأتْ قلبها بُغضًا لألمانيا ولبريطانيا، رغم أن هذه الأخيرة موطن إرهاصات الوطن الوليد إسرائيل، وبفضل الإنجليز؛ من خلال وعد بلفور الذي صدر في 1917؛ تثبّتت أقدام اليهود المشرّدين في الأرض

الموعودة. لكن ذلك بالنسبة لهما لا يكفي، لأن الحلم غير مكتمل، مهما صنع العالم للشعب اليهودي فهو لا يكفي لتضميد جراحه، لم تخزن أوليندة في ذاكرة طفولتها شيئا من جمال العالم المحيط بها، قرأت في كتب التاريخ أن اليهود طردوا من أغلب بقاع العالم، خاصة أوروبا، لقد قلبتْ حبّها لألمانيا مسقط رأسها؛ الأرض التي قضت فيها طفولة مشوّهة؛ إلى مقتٍ عميق، وإلى دَين لن يُسدّ أبدًا.

أنْ يتحوّل الحبّ إلى كرهٍ شديدٍ، يحتاج إلى كمٍ هائلٍ من الآلامِ والحكايات القاسية، وأن ينقلب الكرهُ حبّاً، فذاك يحتاج إلى معجزة، تصنعها أمواج من الأحاسيس العظيمة، القاهرة لكل ما رسخه التاريخ، وبناه الألم من ندوب.

ذات سنة بعدما كانتا قد هاجرتا إلى إسرائيل، عازمين على الإستقرار فيها الى الأبد. في محاولة من آليس لإقناع ابنتها بضرورة التعوّد في بلادها الجديدة.

ففي أيامهما الأولى، قالت لها؛ وهي التي تبدو جميلة جدا رغم أنها في الخمسينات من الأبو خالد، نزعتْ نظاراتها الطبية، ثم وضعت كتابا جانبا كانت تقرأه، وحدّقتْ في ابنتها، تقول لها في شبه إعترافٍ نادر:

- ألمانيا أذاقتنا الويلات، هي أرض جميلة لأصحابها كما أيّ أرضٍ، تحتوي الورد لكن أشواكها حادة وقد تأذّينا كثيرا منها، صحيح نحن منبوذون في كل مكان، في أرضنا التي ولدنا فيها، بل في كل زمان، ماضينا وحاضرنا، لا لشيء سوى أن هذا العالم المنافق يمقت الحق، إذْ لا أمان لنا سوى في أرض الميعاد، هي أرضنا الأبدية، فيها يمكننا ان نتحمل الويلات، أو يمكننا أن نموت فيها بشرف.

ردّت أوليندة:

- أليست ألمانيا بلدنا؟

دققتْ في ابنتها:

-بل هذه أرضنا.. إ س ر ا ء ي ل، رغم أنّها لم تكتمل لتكون إسرائيل الكبرى من البحر إلى النهر، عليكِ ألاّ تتشتّتي.

تردّ بتحدٍّ، بجملة كثيرا ما تكرّرها:

-صحيح يا أمّي، نحن شعب الله المختار، أنقياء الدم، رغم أنف العالم كلّه.

تردّ عليها أُمّها بابتسامة عريضة تُخفي بعض الحزن، قائلة لها:

-أجل.. قديما كنا نعيش في الجيتو أغرابًا، إذا خرجنا من بيوتنا نخشى أن نكشف عن هويتنا أمام الغير، مخافة إهانتنا أو الاعتداء علينا.

لا تتذكّر آليس أبوها دافيد الذي فقدته في ظروف غامضة، ولا تعرف الشيء الكثير من ملامحه، لقد روى لها أخوه الوحيد أديسون قصته، لقد كان عمّها هو مَن إعتنى بها بعد مقتل الأب على يد بقايا النازيين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية؛ القصة التي أخبرها بها أديسون نفسه.

كان عمْر دافيد سنة 1905 أربع سنوات بعد أن مات أبوه الثري الحاخام جوزيف فجأة، في ظروف غريبة لا يتذكّرها، لكونه كان صغيرا، ليصبح يتيما مع أخيه أديسون الذي كان يبلغ من العمر عاما واحدا فقط، عاشا وحيدين مع أمهما آنّـــا في قلب برلين في ألمانيا حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى، رغم الحرب نجيا مع أمّهما بأعجوبة من الموت، ونجت ثروتهم الطائلة من النهب وأهوال الحرب، بل تضاعفت أموالهم أضعافا كثيرة بعكس المتوقّع.

أدّت الأم دور الأب بكفاءة، حافظتْ على الأموال التي تركها زوجها، بل ضاعفت منها، أدخلت ولديها بعد نهاية الحرب العالمية الأولى إلى أرقى المدارس، كان دافيد منذ صغره يُبدي حرصا وإلتزامًا شديدا وحكمة في تصرفاته، بخلاف أخيه الذي أبدى منذ صغره الإهمال وعدم الإكتراث بوصايا الأم ودروسها اليومية، وعى الإبن الكبير بأن أمّه تشقى كثيرا في سبيل رعايتهما، كأنها تعْلم أنها لن تبقى طويلا على قيد الحياة أو أنها تتوقع إندلاع الحرب من جديد، كان درسها الأول والأخير لولديها؛ ألاّ يثقا في أحد خلال تقلّبات الحياة، وإذا كان الناس يضعون تواريخ لبداية الحرب ونهايتها، فهي تنصحهما أن يجعلا كل الحياة حربا ومعارك متتالية لا تنتهي.

تقول لهما دائمًا:

- كُلّ مَنْ حولنا ما هم إلا متربّصون بنا، سيستغلون أيّ لحظة ضعف أو غفلة لينقضّوا علينا انقضاض الضباع.

ذلك الدرس الوحيد الذي إستوعبه الأخ الأصغر جيّدًا، وحرص الأخ الأكبر أن يجعله بين عينيه طول حياته، حوّلت الأم مأساة الحرب العالمية الأولى إلى غنيمة، بل إلى ثروة طائلة، كانت تقايض وترهن ما تُخفيه من مؤنٍ بالحليّ والمجوهرات التي ترتديها النساء في أعوامٍ كانت المجاعة قد ضربت نصف الكرة الأرضية.

تقول للنساء حينما تلتقينهن بطمعٍ وخبث:

- إذا لم ينقذك الذهب من الموتٍ في ظروف كهذه، فما فائدته اذاً؟ ومتى سينقذك؟ إذاً فهو معدنٌ لا قيمة له؟ ولا قيمة لك؟

لم يكن كلامها مقنعًا بالنسبة للنساء، لأن المقابل الذي يتلقينه لا يُناسب ما يدفعْنه لها، كلما طالت الحرب تصبح القوانين قاسية جدا،

أحد تلك القوانين أن هذه البدينة البشعة تستغل أوضاعهن بأسلوب خبيث جدا، وعند اقتراب الموت يدفعْن لها كل نفس ونفيس من أجل النفاذ بجلودهن منه، غير أنّهن كثيرا ما يفشلن في الفرار من أهوال الحرب، فالمؤونة التي تؤخذ سرعان ما تنتهي، وأما الذهب فذاك معدنٌ لا تنتهي فوائده؛ قد تنخفض قيمته، لكن يبقى الذهب ذهبًا ولو اُستبدل بأرخص الأشياء، لأن العُملة النقدية أصبحت ورقة تستعمل في كل شيء إلا في الشراءِ والبيع.

تقدّم النساء حليهنّ لها وعليها قطراتٍ من الدموع، حزنًا على فقدانه، يرتعِبن حين تخبرهنّ آنّــا بطريقة فجّةٍ:

-أنْ تُسقط على قلائدكن الذهبية دموعًا خيرٌ من أن يتقاطر عليها دمائكنّ، قد يُقتلع الذهب من أجسادكنّ و أنتن على قيد الحياة بمقابلٍ ما، أو يُسلب منكنّ وأنتنّ جثثا هامدة دون أيّ مقابلٍ، وعليكنّ الاختيار؟

هنّ يعلمنّ أنها تزداد شراهة كلّما قصدنْها، وقد تزايد الإقبال عليها يوما بعد يوم، يَرَيْنَ في عينيها لمعانا كلمعان المعدن الأصفر.

وسط هول الظروف المحيطة، كانت كلّما جاءتها إحداهنّ تُدخِلها إلى غرفة صغيرة في مدخل بيتها ضعيفة الإضاءة، جعلتها لأعمال البيع والمبادلة والرهن، تضع في منتصفها طاولة مستطيلة الشكل، خصّصتها لفحص الحليّ الذي تجلبه المرأة الزبونة، استعدادا واحتياطا لكل طارئ تُخبئ في درج الطاولة مسدسًا محشوّ المخزن، تقوم بفحص الحليّ المعروض بدقة شديدة في الغرفة، وقد وضعتْ على عينها اليسرى إضافة للنظّارة الطبّية الكبيرة التي ترتديها عدسة مكبّرة ومصباح صغير لا يفارق يديها، تدقّق في ما تحملها الوافدة إليها، تضيف لما جلبت إليها مواد التقييس لتتأكّد من أصل معدنها، ثم تتدقّق الى المرأة الواقفة أمامها، محاولةً معرفة

شدة حاجتها للطعام، وكلّما لاحظت حاجتها الشديدة أبخستها ما جلبته لها من قطع ذهبية، تكذّب آنّـــا المرأةَ، حين تخبرها بأنها لا تُخبئ مزيدا من الذهب، كان سعر الغرام المقدّر بالنسبة لها أقل ممّا تطمع به الزائرة، وكثيرا ما كانت تبالغ في تقدير قيمة الطعام الذي توفره لها بالنظر للذهب المعروض، ورغم توسلات المرأة؛ بأن الحليّ الذي جلبته لها ثمنه أكثر بكثير مما عرضت عليها من مقابل، لكنها لا تكترث بما تقوله أي امرأة، تخبرها كما تخبر كل النساء؛ أن الحرب تغيّر معايير الأشياء، وعندما لا تتوصّل مع إحداهن الى اتفاق يُرضي جَشَعَهَا، تنزعج منها، وتكشر عن أنيابها، ثم تطردها بعنف شديد، قائلة لها:

- يُمكِنُكِ أن تقايضيه أو ترهنيه في مكان آخر. أُغربي عن وجهي أيتها العاهرة.

أحيانا تستجيبُ المرأة لعرضها بتذمّر شديد، مُكرهةً تقبل المقايضة أو الرهن أو البيع، وعندما لا تستجيب لأحد العروض وتشعر بخطرها، تُخرج آنّــا مسدسها الطويل، لتحل المسألة دون مزيد من الثرثرة.

غالبًا ما كانت آنّـــا؛ تلك المرأة البدينة البشعة؛ التي ترتدي تنّورة سوداء طويلة، بسروال أحمر خفيف وقميص أبيض، لا تكاد تغيّر زيّها على مدار السنة الا شتاءً عندما تضيف على كتفيها سترة سميكة من صوفٍ وقبعة سوداء تُغطّي شعرها الأصفر المكوّر على مرّ الأيام، تُغلق الباب ورائها دائمًا، خوفًا من أن تقتحم الزائرة عليها المكان طمعًا فيما لديها. تأتي لها بالطعام الذي اتفقتا عليه، ولا يكون في غالب الحال إلا شيئا يسيرا؛ ككيس من الأرز أو قارورة زيت أو شيء من الدقيق، أو أيّ شيء آخر صالح للأكل؛ فالأكل أضحى شيئا نادرا، لقد اختفى من المدينة كل شيء قد يصلُح للأكل، بما في ذلك القطط والكلاب، إذ ذُبحت كل الحيوانات

وأُكلِت بشراهة، ولم تسلم من أفواه بعض الجياع بعض الحشرات والأعشاب.

تنسحب المرأة مغادرة الفيلا، وهي تلعن صاحبة الفيلا سرًا أو علنًا لقاء الكمّ القليل الذي أخذته من الطعام، لتردّ عليها آنّا اللعنات بلعنات أقبح منها وفي خلَدها أخشى. ما تخشاه هو أنْ يقتحم عليها رجلٌ بيتها المحصّن، ليأخذ المؤن كلها ثم يغتصبها، كما يحدث في أرجاء المدينة كل ليلة، وبعدها لا شك في أنه سيقتلها مع ولديها بدمٍ باردٍ.

في سبيل الطعام يمكن أن يحدث ما لا يعقل، تحدث البعض عن حكايات من ضرب الخيال، شاع أن بعض الناس أكلت أجساد الموتى في بعض القرى المهجورة، وفي حالات أخرى باع الناس بعضهم البعض، وقد يمتدّ البيع لِمنْ هو جزء منّا، وقصص أخرى لا تُصدّق روايتها.

تتذكّر آنّا أنه ذات يوم جاءتها إحدى النساء؛ امرأة نحيلة الجسم وقد أنهكها الجوع، ترتجف من المرض، تحكّ جلدها فوق فستانها، ترافقها ابنتها البالغة من العمر خمس سنوات، شديدة النحافة، مصفرّة الوجه، لا تكاد تتحرّك، بعينينٍ ذابلتين، شكتْ لها المرأة أنّها لا تملك شيئا في بيتها، وأنه قد اقتحم بيتها لصٌ ليلة البارحة، فاغتصبها ثم أخذ كل شيء ثمينٍ عثر عليه في بيتها؛ بما في ذلك الطعام الذي توفره وتقتات منه مع ابنتها. تتجاهل آنّا حكاياتها وتوسلاتها، في إعتقادها يكون الكذب مُباحا لكل من عايش أهوال الحرب، انهمرتْ أمامها تبكي بحرقةٍ شديدة، تحاول أن تسْتعطفها بكل الكلمات الرقيقة، إلى أن عَرَضَتْ عليها أن تقايض ابنتها بما لديها من أكلٍ أو أن ترهن طفلتها مقابل الطعام، نهترها غاضبة، ثم دفعتها حتى سقطت أرضًا، غير أن المرأة قامت وأصرّت على بيع ابنتها الوحيدة متشبِّثةً بتنورة آنّا، تتسوّل رحمتها بتذكيرها برحمة الربّ.

تصرخ آنّــا في وجهها غاضبة، مُزيحةً يدها عن تنورتها:

- الربّ. أين هو الربّ؟ ليطعمك، و يطعم ابنتك، أين هو لكي يوقف هـذه الحـرب الملعونـة؟ أتريـدين أن تبيعـين لي معـدّة فارغـة، أحتـار في تغذيتها؟ أنا محتارة، بماذا سأطعم ولديّ؟

أنـا لـيس لديّ مـا أطعمهمـا فكيـف أطعمهـا؟ إفهـمي، أنـا أريـد ذهبـا أصفرا، وليس وجها أصفرا، إذا رهنْتُ فسأرهن الذهب، وأقايض بالذهب، وأبيع بالذهب فقط، أفهمتِ...أيتها الغبية؟

رغـم صراخهـا القـويّ، إلا أن المـرأة تواصـل توسّـلاتها تطلـب الرحمـة منها، فيشتدّ غضب آنّــا أكثر، لتسحب المسدس من الدرج، توجّهه إلى جبهتها، تأمره بالرحيل، وإلّا فجّرت رأسها برصاصة نحاسية تريحها من ألـم الجـوع، تستجيب المـرأة مفزوعـة منهزمـة، لتُمسـك يـد ابنتهـا وتخـرج يائسة، وهي تحكّ في جلدها.

أصبحت تفتح آنّــا الباب دائمًا؛ بعد أن تتأكّد من عينه؛ عمّن يقف وراءه، تفعل ذلك بحذر شديد، إذْ لا تريد أن تتورّط في جريمة قتل تافهة، ليس لأن القتل جريمة مقزّزة؛ فقد قتلتْ بعضهن خلال الحرب ثم سحبت جثثهنّ خارجا عندما كان يعمّ الظلام المدينة، وبعد السحْب الشاقّ تقوم بدفع الجثة برِجْلها، فتتدحرج الجثة المجهولة نحو أسفل الوادي المحاذي للفيلا. هذا العمل بالنسبة لها محفوف بالمخاطر، كما أنه مرهقٌ جدا لها أكثر من القتل في حدّ ذاته رغم قوتها البدنية. القتل لا يتطلّب الا ضغطة زناد؛ لا يكترث أحد لسماعها في فوضى الطلقات، غير أن رفْع الجثة أمرٌ أكـثر إرهاقـا و قرفـاً؛ عنـدما تُجرُّ الجثّـة إلى ضـفة الـوادي كي تبعـدها عـن منزلها، حتى لا تتأذى برائحتها النتنة. كانت تحرص على تأمين بيتها أكثر من كل الاشخاص؛ خاصة من الرجال، تقوم بتفتيش النساء تفتيشا مُهينًا

قبل أن تسمح لهنّ بالدخول، وتدخل في حوار مع احداهن، مستفسرة عن زوجها أو أي رجل قد يعيش معها أو يرافقها، لتجيبها الزائرة؛ أنه لو كان لها رجلٌ لَمَا أتت تطلب الطعام.

لقد قالت لها إحداهنّ، وهي تعلم ذلك مسبقًا؛ بأنّ كُلّ الرجال التهمتهم الحرب.

وهي لا تصدّق أي شيء من أي شخص.

في نهاية الحرب العالمية الأولى؛ إقترب العدو أكثر ممّا مضى، شارف على مركز مدينة برلين المتهاوية، القنابل تقترب كل يوم من المدينة، لتصبح مهدّدةً لها كما كلُّ ساكنيها، بأنْ تصير رُكاما مختلطًا من الحجارة و التراب والأشلاء و بقايا الطعام. ما أبقى آنـّــا في شيءٍ من الأمان في أتون الحرب هي الحماية التي أحاطها بها عشيقها الضابط هوس الذي كان يزورها أحيانا، يوفر لها بعض حاجياتها، كما كان يدافع عنها بالعناصر الذين يعملون تحت إمرته، لذلك كانوا يخشون الإقتراب منها رغم علمهم بما تستحقه من عقاب لتصرّفاتها المقززة الحقيرة.

وجود الضابط هوس في الأنحاء كان عامل حماية لأعمال بيعها الجشعة، إلى أن غاب عن زيارتها فجأة، سمعتْ أنه أُرسل في مهمة عسكرية خاصة خارج أسوار المدينة، قيل أنه صار يُقاتل في الخطوط الأمامية للمعارك، رغم غيابه كان ظِلُّ بطشه مازال يُخيّم حول مسكنها، لكن مع مرور الأيام بدأ الخوف يتسلّل إلى قلبها كثعبان يتأهّب للانقضاض عليها، فكرتْ؛ كيف يمكنها أن تبقى في مأمن من أولئك المتربصين بها؟

الحرب ليس لها قوانين، فهي قد تخلط كل الأوراق في أية لحظة من لحظاتها، لا شيء مستقرُ حين تندلع الحروب، فهي غير محمودة العواقب على الدوام.

مع انتهاء الحرب العالمية الأولى ظنّتْ آنّــا أنّ هوس قد قُتِل مع الآلاف الذين قُتِلوا، أو أنه دُفن دون شهود، غير أنها تمنّت لو دفنته بيديها لتدفن ماضيها الأسود معه متيقّنةً من ذلك؛ وتدفن كل الأدلة تحت ركام الأرض، لكن ليس قبل أن تأخذ منه قُبلة مجنونة أخيرة؛ ودون أن تنسى أن تقتلع الضرس الذهبي المغروس بين فكّيه.

الحرب تنتهي بإحدى النهايتين؛ إما بكومة أشلاء للبعض، وإما بقطع من الذهب للبعض الآخر، كلّما تراكمت أشلاء الضحايا إمتلأ صندوق آنّا بالذهب على بأنواعه في مكان سرّي في القبو، تحتفظ عميقاً بمفتاح قفله الكبير بين ثدييها المنتفختين.

❖

انتهت الحرب العالمية الأولى وقد أكلت كمّاً هائلا من لحوم الناس، تشرّبت دِلاءً من الدماء، ثم أخفتْ أرواحهم في العالم الآخر إلى الأبد، غير أنها تركتْ أشباحهم، أما الأحياء فقد مُلئت قلوبهم حزناً. صارت ظلال الأشباح المُخيفة تنتشر في كل زاوية؛ تتسلّل بين الأزقة، وجوف أقبية المنازل، يتشابه في المكان الموحش الانسان الحيّ بالشبح المرعب. في هذه العتمة يحْسد الأحياء الأموات عندما يفقدون الشعور بهذا العالم، لتبقى آثار الحرب أمدا بعيدا، أكثر ممّا يعتقد أي شخص ظلّ على قيد الحياة.

وقف أمام آنّـــا رجلٌ طويل القامة، صامتاً كشبحٍ لا جوف له، تنحنح ليؤكّد لها أنّه إنسان من لحمٍ ودم، عندها تنفسّت الصُّعداء تأكدتْ أنه فعلاً ليس شبحًا، بل هو شخصٌ يعرفها وتعرفه، لكنها مازالت تتوجّس خوفًا منه؛ أن يكون شبحًا منتقمًا.

تتساءل في نفسها مرتبكة؛ هل هذا الماثل أمامها انسان من العالم الآخر أم أنه شبح من لحم ودم؟ يكاد يكون بالنسبة لها كلّ انسان إنما هو في الحقيقة شبح تسلّل هربًا من حفرة القبر. لم تتمكّن من معرفة الماثل بين يديها؛ إذْ يقف مُنهكًا فارغًا، دون أن ينبس بكلمة واحدة، تبدو ملامحه الكئيبة ليست غريبة عن ذاكرتها؛ تتأمل لباسه العسكري البالي، ويلتصق على صدره بعض النياشين البراقة، لكن يختلط الأمر عليها أكثر، حين لمحت أن أحد عينيه مفقوءة، حيث الجفن مشدودٌ إلى بعضه البعض بسبب فُقَدانه إحدى بؤبؤي عينيه، كما أن الوجه عامةً شديدُ

الإصفرار، والجسم نحيل تنبعث منه رائحة نتنةٍ لا تُطاق، اقترب منها خطوات قليلة، التقى بوميضٍ من الضوء انعكس على وجهه، فاتضح لها بعض ملامحه، فجأة عرفتْ أنّه العاشق الغائب الذي ظنّت بأن الحرب قد أكلته مع مَن أكلتْ.

كان تريد عناقه عناقا طويلا، يختصر كل كلمات الشوق القديمة، لكنّها لم تفعل، أحسّت أن العناق يمكن تأجيله، في هذا الوقت بالتحديد؛ قد يكون العناق انتحارا اذا حدث مع الشخص الخطأ أو في الوقت الخطأ.

همستْ مندهشة:

- هوس.. أأنتَ هوس؟!

ظلّ صامتًا، إذ لم يجب عن سؤالها، لكنّها عرفته، أضافتْ:

-سنوات كثيرة مرّت على غيابك، ماذا حدث لعينك اليسرى؟ تكلّم.

كسر صمته، قائلاً:

-إنه.. نَصيبُ الحرب منّي.

تحوّلت نظراتها المتردّدة إلى تعاطفٍ وشفقة، ثم قالت بصوت أجشّ:

- آه... صحيح، أنا اسفة لما حدث لك، حقيقة لقد أخذت الحرب أكثر من نصيبها.

ابتسم ابتسامة بطيئة وخافتة، وقال:

- كنتُ أسيرا وليتني مِتُّ، لأن الأسْر أقسى من الموت، فالموت يقضمك و يكسر إحساسك بالعالم الذي تعيشه، ثم يلفظك بعيدا إلى العالم الآخر، يبتلعك دون رحمة، إلى قاع حفرة سوداء لا قاع لها، كما فعل بالآلاف من العسكريين والمدنيين، أما الأسْر فهو الوقوع تحت رحمة رحى من حديد تكسّر عظامك لا تتوقّف عن ذلك رغم صراخك... ودون أن تتركك تغادر الى ذلك العالم الآخر بسلام.

صمت قليلاً، ثم أردف:

- الحرب ذات وجهين، كما أنا و أنتِ.

تعجبّتْ من كلامه:

-ماذا تقصد بأنـتَ و أنا؟ صرنا الآن وجهين، ألسنا وجها واحدًا؟

ردّ:

-لسنا وجهًا واحدًا.

تراجع خطوات إلى الوراء نحو الأريكة المتهالكة، تحرّك ببطء شديد من شدّة الوهن، ثم جلس على مهل، وهو يرمقها بنظرة حادّة، وقال:

- عندما كنتِ تحتاجين مساعدتي ساعدتكِ، فازددتِ ثراءً على الأنقاض وأشلاء النساء والرجال، بينما في الجهة الأخرى كنتُ أنا ملوثًا في براثن القتال، فقدتُ كل عائلتي ومالي، وها أنا أمامك مبتورٌ من كلّ شيء.

أشار إلى عينيه، ثم أضاف:

- كما ترين بعينيك الإثنتين.

اعترضتْ على كلامه:

- و أنا ما ذنبي في كل ذلك، لقد كانت الحرب عامّة على كل أوروبا، بل على العالم كله، حربٌ وزّعت لعناتها دون تفرقة، حتى الأموال التي جمعتُها سرقها اللصوص، واخترتُ حياتي مقابل ما أخذوه.

أطلق ضحكة طويلة ساخرة:

-ههه.. لقد صدقتُك..كم أنتِ فاشلة.

لوّحت بيديها في غضب:

-عليك أن تصدّقني، هل تلاحظ عليّ مظاهر الثراء؟

- ما أكْذبك، لكن ليس عليّ...حبيبتي؛ ليس مهمّاً أن تظهر عليك مظاهر الثراء، كما أنها لم تظهر عليك يومًا، أنتِ بخيلة كما عهِدتك، ويمكنكِ أن تخفي الأموال في أمكنة لا يمكن تخيّلها.

استمرت في التلويح بيديها:

-ها هي الفيلا أمامك، فتّشها كما تشاء.

-ليس بعدُ..

انتفضتْ غاضبة، وردّتْ:

-هيّا، فتّش المكان، ماذا تنتظر؟ أم أنك أتيت لمحاكمتي؟ أتظنّني سبب الحرب التي اندلعت؟

-بل أنتِ أتعس من الحرب.. وأنا أتيت لآخذ نصيبي منك.

-ألَا تفهم؟ أهناك بيننا إتفاق ما مثلا؟ أتريد قتلي؟ هيّا، افعل ما تريد فعله..؟

- كان بيننا أكثر من إتفاق، كنتُ أعشقك، ولاأزال، لا يمكنني أن أؤذيك الآن، وسأقول بدل ذلك، ما جزاء الحماية التي كنت أوفرها لكِ؟

-وهل لكلِّ شيءٍ جزاءٌ يا هوس؟ ألا تحبّني؟

-ليس في حبّي لك شكٌّ. ولكن هل كان الطعام الذي تمنحينه للنساء صدقات عليهنّ ومحبّة منك؟

- كان إتفاقا بيني وبينهنّ.. وكنتَ تعلمُ كل شيء آنذاك، ومابيني وبينك ليس بمقابل، وما بيني وبينهن لا يمكن مقارنته بما بيننا، أليس كذلك؟

صمت قليلا، ثم قال:

-لِكلّ شيء مقابل، حتى في الحبّ؛ ولو لم يظهر للعشّاق، سأُمهلكِ يومين، بعدها سآتي لأخْذ نصيبي، وتعرفين العواقب إن رفضتِ طلبي أو حاولتِ الفرار.

انصرف من أمامها مبتسمًا، بعد أن وضع قُبلة باردةً على خدها دون أن تتحرّك من مكانها. استفزتْها ابتسامتُه القبيحة، فكّرت أن تسحب المسدس الذي جلبه هو لها ذات يوم وتُرديه به قتيلا أخيرًا، وتُردي بابتسامته البلهاء التي لا معنى لها إلى الجحيم الذي تكلم عنه، ثم تقذفه في الوادي كمن قذفتهم، ويصبح أحد ضحايا الحرب الذي لا يدري بهم أحد.

كان يستطيع قتلها لولا حبّه لها، أو ربّما خوفًا من عدم العثور على الذهب، بالرغم من كل ذلك فهو يعرف أنها لا تحبّه بنفس الدرجة التي يحبّها، كان متيقّنًا أنها استعملته وسيلة لحمايتها و حماية أعمالها الخبيثة.

لم يكن يتوقّع أنها آخر مرة سيراها فيها، إذ كانت مدة يومين كافية لاختفائها هربًا منه، وهربًا من النساء اللواتي رهنّ حُليهنّ عندها، أو لم تكمل معهن المعاملة.

كما بعد الحرب يختفي الأموات بين الأحياء يصنع الأحياء لأنفسهم أكفانا بيضاء يتجوّلون بها. وفي اثناء ذلك يكون كلّ الناس مجرمون وأبرياء في نفس الوقت، لذلك يُقتل الأطفال ذكورا وإناثًا بدم باردٍ، وهم قد يقتلون غيرهم ايضًا لنفس التبريرات.

ما إنْ خرج ليلتها من الباب حتى ذهبت إلى صديقتها الوفيّة الطبيبة المُعاقة كريستينا كما العادة، أوهمتها أنّها اشتاقت لها؛ لكنه كان إشتياقا أخيرًا، فقد تركتها جثة هامدة في باحة المنزل عندما سقتها جُرعاتٍ من أكواب الشاي المسموم، ثم اقتلعت من رقبتها قلادتها الذهبية الثمينة

جدا التي طالما تمنّت أن تسلبها إياها، ودّعتها إلى الأبد، وبعدها التفتتْ مسرعة تلمُّ ابنيها في ثيابهما سرًا، دون أن تشرح لهما أيّ شيء، استقلّت سيارتها القديمة التي تقبع في المرأب وقد ملأتها بالمؤن المهمة، وبكل ما خفّ وزنه وارتفعت قيمته، اختارت اسمًا جديدا، لم يكن من اللواتي قضت عليهن في ليلة ما، بل لبست اسم آخرِ ضحاياها وهي صديقتها الأقرب إلى قلبها كريستينا المُقْعدة في كرسي متحرك، والتي كانت تتحرّك أحيانا على عكّازين بصعوبة، إختارتها لأنّها كانت تشبهها في كلّ شيء، طولاً وعرضًا، وفي كثير من الملامح، كانت كريستينا قد عالجت ابنها دافيد من حمى كادت تجرّه إلى الهلاك، تردّدت باستمرار من أجل تطبيبه كل يوم، أنقذه ما بذلتْه من مجهود في الابتعاد عن موتٍ محقّق.

أن تقتل شبيهك فعل يتطلب قسوة خاصة، أقسى من قتل شخص لا يشبهك، عندما تقذف بين عينيه رصاصة الموت، تشعر أن الرصاصة قد أصابتك أنتَ، أحيانًا قتلُ شخص آخر كأنّك أضفت لحياتك روح أخرى، عندما كانت آنّــا تنظر إليها تشعر وكأنّها تنظر إلى المرآة، مع أنها تبغض الوجه الآخر لها، فكّرتْ أنها لن تقبل في هذه الظروف الصعبة، أن تبقى مشتّتة في خضمّ الآلام، لذلك عليها أن تتغلب على ضعفها وتقتل شبيهتها، وها قد حققت ذلك؛ بعد أن جلبتها إلى بيتها في كرسيها المتحرك، وقتلتها بعدما تسلّمت منها كلّ مجوهراتها مقابل مؤنٍ كثيرة طوال أيام طويلة، ثم غدرت بها ببرودة، لا تشفع الصداقات بالنسبة لها في غضون الحرب، طالما استهوته القلادة التي تزيُّن بها صدرها، أغرتها بكثير من المؤن دون جدوى مقابل أن ترهن لها القلادة الثمينة جدا، فأنهت علاقتها بها بإرسالها؛ دون تذكرة؛ إلى الجحيم دون رجوع. احتفظتْ بوثائقها الثبوتية كما كلّ اللّواتي قضتْ عليهنّ، قوة الصداقة

بينهما وهنت ثم تلاشت، ولن يصمد أي شيء متماسك حين تجوع البطون، ولكونها أرادت أن تموت صورتها في ذاكرة و تفكير هوس شوّهت وجهها برشّ سائلٍ حارقٍ عليه، كي لا يتعرف عليها أحد وتبقى هي غائبة في أذهان مَن قد يبحث عنها؛ خصوصا إذا كان عشيقها هوس، مستغلّة حالة الارتباك والفوضى المنتشرين بعد إنهزام ألمانيا.

تحولت آنّا الى شخصية كريستينا، وهي التي تعلّم عنها تقريباً في كلّ شيء، كانت صديقتها الوفيّة حتى بعد رحيلها، تقول في نفسها:

-قمة الوفاء في الصداقة أن يتقمّص الأصدقاء أرواح بعض لحماية بعضهم البعض.

سكنت روح كريستينا في جسد آنّـا، بعد أن تنقّلت إلى منزل قديم لعشيق صديقتها الذي قُتِل خلال الحرب، كانت قد أخبرتها بقصتهما الناقصة، شعرت أن المنزل حقاً منزلها، وأنّها هي فعلاً كريستينا تجوب الغرف بكرسيّها المتحرّك، لكنها هي تتحرك على قدميها السالمتين، ترافقها لتدلّها على الأغراض الموجودة في البيت الذي نجا من السطو والدمار، تكاد تلامس شبحها المطارد لها في كل ركن من أركان البيت، متأكّدة أنها لن تعود ولن يعود شخص من عائلتها إذ لا يدري أحد بالأمر، كما أخبرتها صديقتها بذلك.

عندما عاد هوس بعد يومين من وعيده الى فيلا آنّـا، تفاجئ من منظر الجثة الملقاة على الأرض في الباحة، معتقدا أنها فعلا آنّـا، لكنها كانت مشوّهة الوجه، تلبس تنورتها السوداء وقميصها الأبيض كما يعرفها، بحث عن ابنيها داخل الفيلا فلم يعثر على أيٍ منهما، تفقد كل أركانها، حتى أنه فتش القبو دون جدوى، اختلطت في ذهنه الأفكار؛ المصاب أصلا

بالفوضى، لا يجد إجابات لما يرى، فلا يصدق أنّ حبيبته تُقتل عندما توقفت الحرب بهذه القتلة البشعة.

أضحى الناس لا يفرقون بين القاتل وبين البريء، فالشكّ يعمّ كل النفوس والوجوه، أصبحت الجثث تُدفن بدون كثيرٍ من الأسئلة وبدون أسماء، أُصيب هوس بالحزن لفقدانها، وبالندم من تهديدها، الاّ أنه أصرّ على أن يعرف القاتل مهما اختلطت عليه الأمور، يتساءل في نفسه؛ قد يقوم السارق بقتل صاحب البيت من أجل السلب، لكن لماذا يقوم بتشويه المقتول؟ ثم عرّج إلى الوادي المحاذي للبيت مع مجموعة من جنوده يُحْصون عشرين جثّة أغلبهنّ نساء، بين جثة متقدّمة في التعفّن، وأخرى مقطّعة الأوصال منهوشة الجسد، لم تسلم أيا منهم من إختفاء بعض ملامحها، ليس لأنها مشوّهة ولكن لمرور وقت طويل على موتها تحللتْ أو أنه قد نهشتها الكلاب الضالة، لاحظ بأن كل الجثث لا تحمل أية وثائق ثبوتية، والأمر الوحيد الكفيل بالتعرف عليها هو اتصالٌ ما من ذوي المفقودين، مع أي دليل يساعد في التعرف على هويات الضحايا.

مرّت سنوات على الحادثة، وعرفانا بتضحياته الكبيرة كُلِّف الضابط هوس من طرف السلطة الجديدة بملف المفقودين والجثث المجهولة على مستوى مدينة برلين وضواحيها، وفي إطار التحقيق خُصّص له مكتب لإستقبال شكاوي الأهالي للإبلاغ عن الجرائم التي إرتكبت بحضورهم أو يملكون معلومات عنها أو يشهدون عليها بطريقة ما، وبعد إتمام جميع الملفات ترسل تباعًا إلى المحاكم العسكرية للفصل فيها، كان عمله الدؤوب في البحث مُتْقنا لعدة سنوات، أُعجب به رؤساؤه، وعلى رأسهم السّيد غوغن أحد مؤسسي حزب العمال القومي الإشتراكي الألماني، الذراع

الأيمن لهتلر الذي يسير في خطى ثابتة من أجل أن يصبح الرجل الأول في ألمانيا.

التأمتْ جراح المصابين شيئًا ما، وأجريت عمليات تبادل الأسرى، فعاد بعض الأسرى إلى بيوتهم أو شيء ممّا تبقى منها إنْ وجد، التئام الجراح كان ببطءٍ شديد، سوى أن أشباح القتلى مازالوا يجوبون الشوارع المظلمة.

وفي أحد الأيام القاتمة، طلب رجلان غريبان لقاء الضابط هوس، كونه مسؤولٌ عن المفقودين، تقدما نحوه، يبدو عليهما الإرهاق، أخبراه أنهما كانا أسيرين لدى الأعداء، مدّعيان أنهما فقدا أختهما كريستينا بعد الحرب، عرضا على الضابط صورها، لينبهر عندما رآها، فقام مِن على كرسي مكتبه مندهشاً، يدقّق في ملامح وجهها؛ بيضاء جدا، جسم بدين، وعينين زرقاوين كبيرتين جدا، و شفاه غليظة، وأنف رقيق، وشعر أصفر.

سألهما متعجبًا:

-مَنْ هذه؟

أجاب أحدهما:

-إنها أختنا كريستينا، وقد فقدناها بعد الحرب.

ليعترض، ومازال يدقّق في ملامح وجهها:

-لا، لا .. هذه ليست اختكما كريستينا، بل هي آنّـا.

سكتا قليلا، ينظران إلى بعضهما البعض.

ثم تداركا:

-مَنْ هي آنـا هذه؟

لم يجب، فأضافا:

-إنها اختنا كريستينا، ونحن لم نأت لنضيع وقتك سيدي.

فكّر مستفهمًا، ثم قال:

- أممم.. إذًا هذه أختها التوأم؟

-لا يا سيدي، نحن ثلاثة إخوة فقط لا رابع لنا.

تمكّن الشك في ذهنه حول الجثة التي كان يعتقد أنها لآنّـــا، لا يستطيع نبش قبرها الآن، فملامح الوجه صارت عظاما واختفى كل شيء منها، لقد أحيوا أمرًا اعتقد أنه قد انتهى، ستُّ سنوات مرّت على الحرب غـيّرت الأجســاد والأرواح، جعـلت الأشــباح أشـخاص حقيقيـون؛ والأشخاص الحقيقيون صاروا يسيرون في الطرقات كالأشباح، ضحايا الحرب أكثر من أن تحصيهم مؤسسات أو هيئات، كما الألم العظيم أصعب من أن يصفه قلمٌ أو يذكره بدقّةٍ طرفُ لسانٍ.

ذكَرَا له أن أختهما كانت قد شُلّت قدماها في بداية الحرب، ومن هذه المعلومة أراد هوس التأكّد من هويتها في كونها كريستينا التي لا يعرفها أو آنّـــا التي يبحث عنها ليصفّي حسابه معها، أمر بتشريح الجثة وفحص قدميها حتى يتأكّد من اصابتها بما أخبراه، ليكتشف الطبيب الشرعي أنها مصابة فعلا بالشلل، ويخْلُص لنتيجة أن كريستينا إنما كانت ضحية لآنّــا تحاول أن تختفي وراء هويتها فتعيش بها وتنفذ من أعمالها الدنيئة، تأكّد الضابط من حقيقة الأمر، دون أن يجزم بالفاعل المفترض أو المشتبه في قتلها والتنكيل بها، ففي آخر الحرب كلّ مَن يتجوّل هو قاتل مفترض بالضرورة، يحمل اسمًا مزيفاً ومسدسا تحت بدلته.

أراد البحث عنها دون إثارة الإنتباه، حتّى يعثر على الكنز الذي تخبئه في مكان ما قبل أي شيء آخر، بينما الأخوان أصرا على معرفة الفاعل، وهما يعلمان مدى طيبة اختهما وما قدّمته من تضحيات في سبيلهما وفي سبيل أرض ألمانيا وشعبها، فوعدهما بإفادتهما بكل جديد حول

قضيتها، وهو ما لم يقنعهما، رفضا السكوت والانتظار، لأنهما يعلمان بالكمّ الهائل من القضايا التي تتراكم فوق مكتبه كالجثث، أما عن تصرفاته فقد أثارت ريبتهما في أنه يُخفي شيئا ما.

❖

رغم ابتعاد كريستينا الجديدة عن مسكنها القديم وانتقالها الى المسكن الجديد إلا أنها لم تشعر يومًا بالأمان، نظراتُ الناس المريبة، تفزعها لأنها كانت تظنّهم كلهم قتَلةٌ يتعقبونها، بينما ترى بعض الرجال يجرّون خيبتهم إثر هزيمتهم أمام قوات الاعداء، بين محمولٌ على الاكتاف أو مبتورِ الأطراف.

يطول تدارك لذة الحياة، كانت آنّا في حربها الخاصة طول الوقت دون أن تشعر بالاطمئنان لتوقفها، رغم أنها خرجت من الحرب بثروة هائلة لا تظهر في ملامح وجهها الأصفر ولباسها الرثّ، تتأبّط خوفها ليلا نهارا، تتحاشى الحديث مع الغرباء، وتنفر في كل شخص يقترب منها، غير أنها تضطر الى مخالطتهم في قضاء حاجياتها بحذر، مع انفراجة قليلة للأوضاع تضطرّ أن تقتني لحم الخنازير وبعض اللّفت المتوفّر، لتطبخ لدافيد وأديسون بعض الطعام، وخلال اجتماعها بهما تتلو عليهما وصاياها الدائمة، كي تطمئن عليهما في حالة حدوث طارئ لها، تشعر دائما أن الخطر يقترب منها كلما هدأت الأمور، فالهدوء مُرعب.

مرت سنوات طويلة، إلى أن صدق توقع آنّا باندلاع الحرب العظمى الثانية، إذ بدأت طبولها تدق حينما تعلن ألمانيا تهديدها للعالم يوما بعد يوم، وعلى اليهود خاصة، حتى تخيّلت أن يد الضابط هوس تتحسس رقبتها وهي تحمل سكينا حادًا لتنحرها، ثم تأخذ اليد الأخرى كلّ ما تعبت وعرّضتْ نفسها للخطر لأجله، أصبحت الأخبار تنشر أسماء الموتى والجرحى والمفقودين في كل زاوية من الزوايا، على أوراق الجرائد والمجلات

وعلى الجدران، سمعت أن أجهزة البوليس السري تجهز على الخونة والعملاء، وأنباء عن بروز حركات تتنامى ضد اليهود في المانيا وفي كل بلدان التي يسيطر عليها هتلر، أخبرتها جارتها الفضولية الجديدة عن استحقاق اليهود لكل ما يحدث لهم من عقاب جراء اخلاقهم الدنيئة، وأن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة التي تضيق الخناق عليهم غير كافية إلى حد الآن، بينما كانت آنّا تزداد لها كرها يوما بعد يوم. لقد كانت جارتها النحيفة الثرثارة ماريا أقوى فضولا من تهربها، وهي لا تدرك أن المرأة التي تحدّثها يهودية تُخفي دينها الذي لا يظهر في تصرفاتها، شعرت أنّ تصرفات الوافدة الجديدة للحيّ تستنزف اسئلتها دون أية إجابة، تمنعها عن الإقتراب من الولدين، كما تمنعها عن دخول بيتها ولو للحظة واحدة.

تريد آنّا ألاّ تتورّط في جثتها في مكان يعجّ بالناس، تعلم أن الأمر سيكون مستحيلا إلا إذا قطعتها إربًا، إربا، هو عملٌ شاقٌ رغم نحافتها، وهو فعلٌ مكشوف أمام جيرانها، تخشى أنها قد تنفضح أعمالها كلها إن تهورت هذه المرة.

في يوم شتويٍ باردٍ تدقّ عليها ماريا الباب، تحمل في إحدى يديها جريدة تمتلئ بالصور والأسماء، تنادي على آنّا دون فواصل:

- كريستينا، كريستينا، كريستينا.

فتحت آنّا عليها الباب، وهي تستغرب جرأة هذه الفضولية الوقحة، تتذمّر بشدة، مستغربة من محاولة اقتحام ماريا لبيتها، لكنها تكتم تذمّرها و تردّ:

-ماذا؟ ماذا يوجد؟

وضعت ماريا إصبعها على صورةٍ في الجريدة تتوسّط كثيرٍ من الصور، قائلة لها:

-أليست هذه صورة تشبهك؟؟ أليس كذلك؟

بلعت آنّــــا ريقها، تُواري خوفها، تتصنّع ابتسامة رديئة، ثم تردّ:

-ههه...صحيح، يبدو أن هذه أنا.

أضافت تسألها:

-لكن لِمِنْ هذه الصورة؟

-هذه كلّها صور مطلوبة من البوليس السرّي حسب ما هو مكتوب، وجاري البحث عن أصحابها.

ازدادت فزعًا، محاولةً تدارك الموقف:

- و ما اسم هذه التي تريد توريطي معها؟ ههه..

انتظري قليلا، بدأت تتهجى في الاسم حرفا؛ حرفا:

-اسمها...آ ن ا ب ي ف ر، أجل الاسم؛ آنّا بيفر.

ما إن نطقت لها الاسم حتى شعرت أن السكّين قد تحسّس على رقبتها فعلاً، وأنه قد كُشِف أمرها لا محالة، وسيُقبض عليها في أي وقت من الأوقات مهما حاولت الاختفاء، سيأتي يوم ما ويُعثر عليها، تحملق في هذه المرأة الغبية دون أن تكشف غضبها مظهرة اللامبالاة بالخبر، تستدرجها لمشاركتها كوبًا من الشاي، وتستغرب ماريا ذلك؛ كيف أنها تستضيفها لأول مرة الى داخل البيت بكوب من الشاي، مع أن الشاي أغلى من الذهب في هذه الأيام؟ كما أن قبل أشهر عديدة من التعارف لم تسمح لها بالدخول إلى البيت خطوة واحدة، والآن تشتد إستغرابًا. تُكثر ماريا من كلامها غير المنتهي وغير المنتظم، تطلق آنّـا الضحكات المتتالية، لكيلا تُشعرها بأيّ خطر، تستأذنها في تحضير المشروب، لتضع فيه سمّاً زُعافا تمزجه جيدا بملعقة صغيرة وتضيف له الكثير من السكر، تقدّمه الى ضيفتها مع كثيرٍ من الضحكات، وما إن احتست ماريا رشفات منه حتى

شعرت أن سكاكين حادّة بدأت تقطّع بطنها، عرفت متأخّرة بأنها وضعتْ لها شيئا مسموما في المشروب، حاولت أن تقف بصعوبة لتهرب، لكنّ آنّا تدفعها بقوة، تحاول أن تخرج مسرعة من البيت لينجدها أحدهم، أو لتبلغ أقرب نقطة إسعاف أو شرطة، تعرقلها بقدمها فتسقط أرضا، تحاول عبثا النهوض، تجهز عليها بآلة حديد حادّة، تضربها عدة مرات على رأسها، حتى أردتها قتيلة قبل أن يتمكّن منها السمّ، لتنضم الى قائمة ضحاياها؛ وهي تردّد:

-يا لك من غبيّة، يا لكِ من ثرثارة.. هيا، موتي.. موتي.

كانت ماريا ضحيّة لغبائها وفضولها الشديد، نظّفتْ آنّا جريمتها قبل أن يعود ولديها من الجامعة، تفرغ الثلاجة الكبيرة من أجزاء من لحم الخنزير المتجمّدة، تلف الجثّة بعد أن قسّمتها إلى أجزاء في أكياسٍ من البلاستيك، وضعتها في قاع الثلاجة، ثم رمت عليها قطع لحم الخنزير، جعلتها هذه الجريمة تفكّر في تغيير العنوان قبل فوات الأوان، فلا يمكن البقاء مع جثة في بيت واحد، لا يوجد وادي هنا لتدحرج فيه الجثث، والرائحة شيء لا يمكن إخفائه أياما طويلة، فقد تنكشف يومًا ما، وهي لا تعرف شيئًا عن أقربائها، فقد تكون قد أخبرت غيرها عنها، وقد تنتشر صورتها في الأنحاء وتلمح في مكان ما، رغم قلّة حركتها، لن يحميها الاسم المستعار إلى الأبد، ولا محاولة إخفاء وجهها عن الناس.

❖

في الصباح الموالي البارد من نوفمبر 1938 طرق باب آنّا رجلٌ لا تعرفه، يعتمر قبعة سوداء كبيرة، ملامحه و هيئته غريبة عن المدينة، كان طويلا جدا بهندام جميل، لا تبدو عليه علامات التعب والحرب، وجهه ممتلئ أبيض، وعينين بارزتين، وأنفٍ دقيق تتكأ عليه نظارة طبّية أصغر ممّا يجب، وشفاه رقيقة، تنطلق من محياه ابتسامة عريضة.

يريد قصدًا أن يُطمئنها حتى تفتح له الباب، بعد أن امتنعت عن فتحه، إذ لم تفتح له حلقة الأمان، غير أن الرجل أصرّ على أن يدخل اليها ليحدثها في أمر هام جدا، يُخبرها أن الأمر يخصها وأولادها أيضًا.

رغم ذلك، فقد رفضت دخوله، وعندما ناداها باسمها الحقيقي قائلاً:

-آنّـا.. أعلم أن اسمك آنّـا، وليس كريستينا.

تفاجأت من مناداته باسمها، ذُهِلتْ كيف عرف ذلك، تسارعت نبضات قلبها، ظنّت أنه من البوليس السري، لكنها لم ترَ أيّ شخص يرافقه أو أيّ سيارة من سيارات الشرطة أو الجيش، و لمّا عِلِم أنّها فزعتْ من قدومه، طمأنها قائلا:

- حسناً، لا تخافي أنا صديقك، وأريد مساعدتك.

حاولت أن تتمالك نفسها، قائلة:

- أنت مخطئ.. أنا لست آنّـا، أنا كريستينا.. أنا كريستينا.

رد بصوتٍ صارمٍ:

- أنتِ آنّـا، ليس عليك أن تنكري، فقد جئتُ أساعدك.

- فيمَ تساعدني؟ أنا لم أفعل شيئا؟

- حسنا، و لكنّي أعلم الكثير عنك منذ مدّة طويلة، حتى قبل أن تنتقلي هنا، وأنا اريد فعلا مساعدتك.

ما إن ابتعدت عن الباب محاولة إلتقاط مسدسها، حتى فاجأها بدفع الباب بكتفه بقوة، فانسلّت الحلقة مقتحمًا البيت، ولم تستطع محاولاتها منعه، تراجعت إلى الوراء، لا تعرف ما تفعله، والرجل الماثل أمامها لم يتقدّم إليها محاولا الفتْك بها كما كانت تظنّ، بل بدا لها هادئًا بعد الإقتحام، مُظهرًا مسدسا تحت سترته، ليمنعها من أي مقاومة، لكنّه

كرّر جملته بأنه جاء لمساعدتها، وأنّه صديق جاء لينقذها، وذلك ما بعث فيها بعض الاطمئنان المؤقت.

أضاف:

- حسناً، كفاكِ خوفاً، لقد جئتُ أنقذك من ورطاتك.

لا تستطيع الإعتراف بما تورّطت به، ولا تريد أن تعترف بما قد لا يعرفه، منكرةً ما يقوله الرجل الغريب، تومأ له بالنفي بتحريك رأسها.

جلس على الأريكة، ثم أكمل قائلاً:

- حسناً، أعرف عن ذلك الوادي السحيق، وتلك الجثث، وخاصة صديقتك العزيزة كريستينا، وآخرها جارتك ماريا، ومع ذلك صدّقيني، جئتُ لأساعدك مع ولديك.

جلستْ تصرخ باكية، تنفي كل كلامه، ثم تنظر إليه، قائلة:

- مَنْ أنت؟ من أنت؟

- حسنا، أنا اسمي ليفي مبعوث خاص من وكالة أحباء صهيون، وجئتُ إليك للمساعدة قبل أن يُقبض عليك من طرف البوليس الألماني، فصور المتورّطين تملء كل الصحف، والبحث يجري على قدم وساق عن أصحاب الصور.

فهمت أنه يُهدّدها، ظنّت أن الأمر يرتبط بأحد رجال هوس الذي يبحث عنها، مكيدة منه لإستدراجها، فأجابت مشكّكة في كلامه:

- كيف لي أن أصدقّك؟

- حسناً، يجب أن تصدّقيني، كان يمكنني أن أبلّغ عنك، فتصبحي في قبضة البوليس، لكني جئت لمصلحتك، أريد تهريبك من هذه الورطة، كما أنقذت الكثير من الناس.

- تهريبي؟ إلى أين؟

- إلى أأمن مكان في العالم، إلى فلسطين، حيث هناك لن يسأل عن ماضيك أحد.

ردّت مُنكرة معرفة وجود هذه البلاد:

- أين توجد فلسطين هذه؟!

- حسناً، هي الأرض الموعودة المنتظرة، ليتحوّل شتات اليهود إلى أمّة عظيمة، تحقيقاً لنبوءة التوراة، لا يمكننا الإستمرار في العيش كخرافٍ لا راعٍ لها إلى الأبد، تخاف من الذبح في نهاية اليوم، تائهة في كل مكان في العالم.

عندما أخبرها بذلك تذكّرتْ كلام زوجها الراحل عن أرض فلسطين، ثم تداركت قائلة:

- لكن كيف نغادر والطرقات تعجّ بالحواجز العسكرية والحرب في كل حيٍّ؟

- حسنا، لا تهتمّي بذلك، أنا أتكفل بالأمر.

بعد صمت وتفكيرٍ، ردّتْ:

- ما هو المقابل؟

- حسناً، كل ما تمنحيه لوطنك الجديد رخيص، وسيعود عليك بالفائدة، خاصة إذا كان ذهباً برّاقاً، فتحمي أولادك وأحفادك، إن الوطن الجديد يستحقّ منا كل التضحية.

صمتت قليلا، وقد تأكّدت أنّه يعلم بأمر الذهب، لكنها في المقابل علمت أنّها فرصة حقيقية للفرار، فطلبت من ليفي مهلة للتفكير، عندها نظر إليها نظرة تحريض على الموافقة، فقال لها:

-حسنا.. أرجو ألا تتأخّري.. أفضّل أن تكون المغادرة في ليلة الغد، أتمنّى أن أجدك قد حضّرتِ نفسك بأمتعتك الخفيفة.

علمتْ أنّ جملته الأخيرة تهديد صريح، فخافت أن تخسر الذهب وتخسر حياتها، وأن خبر وجودها يتسرّب إلى الناس فيحرقونها وهي على قيد الحياة، فقد تتسرّب رائحة جثة ماريا إذا انقطعت الكهرباء تماماً، قد يقتحم البوليس السرّي البيت في أية لحظة، لتضيع ثروتها وتعترف بمكانه تحت التعذيب ويضيع مستقبلها، أو تلقى حتفها في أحد سجون ألمانيا بعد أن تتلقى صنوف العذاب، أما فكرة هذا الوطن الجديد الخاص باليهود فقط، صارت الفكرة القديمة التي لا مناص منها، كفقاعة تطفو بين الفينة والأخرى، كانت فكرة قديمة قد رفضتها أكثر من مرة، بعد أن إزداد العنف ضد اليهود في أنحاء أوروبا، لذلك قررت؛ أنه يجب عليها أن تتخلّص من هذا الحصار قبل فوات الأوان.

كانت ليلة طويلة جدا عليها، جمعت ابنيها، حين قررت مصارحتهما بما عزمت عليه، رغم أنهما قد استشعرا الخطر المحيط بهم كذلك، إذ ولدا مع الخطر منذ الصغر وتربيا في أحضانه، وكان من الخطر ذِكر ديانتك اليهودية علناً، وقد سمعوا ما فعله الشاب اليهودي هيرتزل غرينزبان عندما قتل دبلوماسيا ألمانيا في باريس إحتجاجا على ترحيل عائلته، فأصبح اليهود هدفا لكل الناس في كل بقاع العالم.

كل الكلمات التي أرسلتها إلى أسماعهما كانت من أجل تشجيعهما على السفر والاستجابة لرأي ليفي قبل أن ينقضّ عليهم الألمان دون رحمة، لكنها لم تخبرهما بأكوام الجثث التي رمتها في الوادي، حاولت إقناعهما أنّ ما فعلته وما قد تفعله مستقبلا هو من أجل سلامتها من الجوع واللصوص في زمن اللاأمن، قالت لهما:

- من الحكمة مغادرة ساحة الحرب عندما يستدعي الأمر ذلك.

كأنها تقول لهما بمعنى آخر:

- من الحكمة مغادرة ساحة الجريمة قبل أن تتوسّع دائرة التحقيق.

كان تفكيرها ليس مُنصَبًّا في الدولة التي بشّرها بها ليفي، ومن قبل زوجها الحاخام جوزيف، إذ شكّلت خلافا كبيرا بينها وبين زوجها، كانا يتجادلان طويلا حتى تطوّر الأمر بينهما إلى شجار عنيف. تأكدت أنها لعنة جوزيف تطاردها في كل منعرج في حياتها، المهم لها الآن أن تخرج من مسرح الجريمة و قبل أن تلتحق بالبلاد المسمّاة فلسطين، ستعمل على الفرار بعد ان رفضت التوجه إلى أرض كانت ترفضها طيلة حياتها، مع أن ولديها لم يستوعبا الأمر.

في الصباح طلبتْ من ولديها أن يكتما خطة السفر خارج المدينة، وأن يعودا فور خروجهما من الجامعة دونما تأخير، لكن عند دخولهما الى الجامعة لاحظا نظرات مريبة نحوهما، رفض أصدقائهما المقربون تحيّتهما، بينما تتحوّل النظرات كلما إزدادا ولوجا إلى الداخل إلى بصاق متكرّر على الأرض، ومع تبادل النظرات مع أحدهم تطور الأمر إلى سبٍّ وشتم صريح، فعرفا أن أمرهما قد كُشفا عندما ناداهما بعض الشباب:

-يهود دونيون.. ليس لكم حقاً هنا. ارحلوا من بلادنا.

استغربا كيف اكتشفا أمرهما، لقد تجنّبا كل ما يدل على انتمائهما، اقترب منهما مجموعة من الشباب مردّدين عبارات الشتائم، لينسحبا من الساحة هاربين، وهما يتلقيان مقذوفات مختلفة على رؤوسهما، لحسن حظهما فقد تمكّنا من الفرار من قبضة الغاضبين، وعندما عادا إلى البيت أخبرا أمّهما بالأمر، فقررتْ حاسمة أنه لا مفرّ من الهروب إلى مكان آخر أكثر أمنًا، الذي سيدلّهم عليه ليفي، قبل أن يمتد اليهم الأذى.

في الليلة نفسها حيث كان الثلج قد غطى المدينة، ركنت سيارة سوداء قرب بيت آنّـــا، وقد كانت فعلاً على أهبّة الاستعداد للفرار الى

المكان الذي أخبرها به، مع أن في الأمر مخاطرة كبيرة إلا أنّ ليفي وعدهم أن ينقلهم إلى موقع آمن يؤمِّن لهم الوصول الى فلسطين سالمين، حاولت أن تخفّف من الأمتعة قدر ما تستطيع، إرتدوا كثيرا من الألبسة للوقاية من برد قارس جدا متوقع خلال الرحلة.

خرجوا نحو ليفي خلسة ليلاً، الذي كان يقود سيارة فارهة لا يملكها إلا الأثرياء، تحرّكوا بسلاسة بين الأزقة الضيّقة التي كانت ناصعة البيضاء من تراكم الثلوج، تجاوزوا عدة حواجز أمنية بسلام حتى إعترضهم في مفترق الطرق مجموعة من الشباب الألمان المدجّجين بالأسلحة، وقد أغلقوا الطريق بالمتاريس والحواجز المحصنة، شباب يسمّون بكتيبة العاصفة، يقومون بالأعمال الأمنية الموازية مع الجيش وبموافقته، يطلبون الوثائق من المارّين سواء كانوا مشاة أو في سياراتهم، يبحثون عن كل يهودي وعن كل مشتبه به، كما يقبضون على كل متعاون مع الأعداء، وعلى كل شخص يحتمل أن يكون خائنا، بل على كل مَن يشكّون في ملامحه العدائية.

كان المسلحون يحاصرون الطريق من كل جانب، وأصوات سيارات الإسعاف تسمع في كل جهة، وبين كل ساعة وساعة تُسمع طلقات رصاصات متفرقة.

تعلو صرخات هنا وهناك، تردّد:

- اللعنة على اليهود.. اللعنة على اليهود.

ارتبك كُلّ مَن في السيارة، فطمئنهم ليفي أنه رتّب الأمر جيدا مع أحد اليهود المندسّين بين أولئك الشباب المسلّحين، حتى وصلوا إلى الحاجز، طلب منه أحدهم أن يتوقف مشيرًا إليه بالرشاش، يكتم خوفه بابتسامة متصنّعة، توجّه إليه المسلح مع صرخة قوية مُسلّطا عليه ضوء من مصباح

يد، يدعوه إلى الترجل من السيارة بأسرع ما يمكن، ليستجيب ليفي وقد انطفأت ابتسامته مع أول صرخة سمعها.

قال له المسلّح بصوت مرتفع:

- أين هي وثائقك؟

بحركة مرتجفة يضع ليفي يده في الجيب الداخلي لمعطفه الخشن الأسود، ليخرج له بعض الأوراق، مسكها المسلّح بيده اليمنى وسلّط عليها الضوء باليد الأخرى، ثم طلب منه أن يفتح صندوق السيارة دون انتظار، ودون ثرثرة، مُطلقاً صرخات سبٍّ عالية...

❖

وجّـه المسـلّحون المتمركـزون حـول الطريـق رشاشـاتهم إتجـاه ليـفي ورفقتـه، ثم أخـرج أحـد المسـلحين رجلاً يجرّه مـن السـيارة مكبّـل اليـدين، تصطكّ أسنانه من البرد، عليـه كـدمات واضحـة على وجهـه رغـم ظلمـة المكان، وآثار ضربٍ في مختلف أنحاء جسـمه، سلّط القائـد مصباحـه على وجه الرجل المقيّد، ثم قال:

-لا يمكنك الوثوق بالخونة.

ارتبك ليفي عندما عرف ذلك الرجل؛ فهو الرجل نفسـه الذي إتفق معـه سرًا لكي يساعده في عبور الحاجز الأمني، لكن لسـوء الحظ كُشِـف أمره، وفشلتْ خطته، فردّ على القائد محاولاً إبعاد التهمة عنه.

كان ردّه بصوتٍ صارم:

-حسناً، أنا لا أعرف هذا الرجل، ولا أفهم ما ترمي إليه.

ردّ عليه القائد صارخا:

-لا تحاول أن تنكر إتفاقكما، شيءٌ من الضرب في جلد صاحبك أدّى إلى نتيجة، وأخرج ما في جعبته من معلومات.

تعرّق جبينه من الخوف، وقال:

-حسناً، أنا..أنا.. لا دخل لي بينكما.

اقترب القائد منه خطوات حتى لم يبق بينهما شبرٌ واحد، وكاد أن يلتصق صدرهما ببعض، تحدث إليه غاضباً:

-نعلم أنك تحاول أن تهرّب تلك العائلة خارج ألمانيا دون تصريح قانوني، ونحن نعلم بترتيبك للهروب بمساعدة هذا الخائن، وسيلقى مصيره الآن أمام عينيك.

التفتْ ليفي إلى آنّـا وأولادها، متملّصًا منهم:

-لا، لا يا سيدي، أنا لا أعرفهم.. ما أنا إلا سائق سيارةٍ مؤجّر.

صرخت آنّا مع ولديها نحوهما قائلين:

-أيها الكاذب، أنت الذي طلبتَ منّا الرحيل.

تراجع القائد خطوات إلى الوراء يخاطب الجميع والشرر يتطاير من عينيه:

- كلّكم كاذبون.. كلكم أنذال.

اقترب ليفي نحو القائد يسْتعطِفه، ويستجديه قائلا:

-لا يا سيدي، أنا أقول الصدق وهم كاذبون، إسأل مسؤول الأمن في الجامعة عمّن أتى لهم يبلّغ عنهما.

عندها عرف دافيد وأديسون وأمهما أن ليفي هو من أفشى سرهما في الجامعة ليجبرهم على الرحيل، وبذلك قد عرّضهم للقتل، إتجه القائد مهرولاً بمسدسه نحو الرجل المقيّد، ودون أن ينبس بكلمة واحدة دكّ في رأسه رصاصة واحدة، فتفجّر دماغه أمام الجميع، ليسقط جثة هامدة صريعًا في ساحة الحاجز، حتى إرتجف ليفي رعبًا والتفّ دافيد وأديسون وأمّهما حول بعضهم البعض، أمر قائد الحاجز بعد ذلك بإخراجهم من السيارة وتقييدهم جميعا، فتّش حاجياتهم بطريقة فوضوية، فلم يجدوا إلاّ ثيابهم وبعض المؤن، وحقيبة يد صغيرة تحملها آنّـــا لم يلاحظوها فلم يفتّشها المسلحون، ثم قاموا بجرّهم جميعًا وزجّهم في شاحنة كبيرة، ليجدوا فيها مجموعة من الرجال والنساء والأطفال، فهمتْ أنها في طريقهم لترحيلهم إلى معتقل أوليّ، قاموا خلال ذلك بتسجيلهم ثم إرسال أسمائهم إلى الجيش، وعندما طُلب تقديم وثائقهم، قدمتْ آنّـا بطاقة هوية زائفة.

يمتدّ المعتقل لألاف الأمتار المربعة، أُستعمل سابقًا كمستودع قديم للذخيرة، يُحيط به من كل الجهات سياج حديدي مزدوج شائك، وفي كل بضعة أمتار منه أنشأتْ نقطة حراسة مرتفعة يحرسها حارسان، كان معتقلا أوليا جديدًا، والدليل خلوّه من المعتقلين، ولمّا جُلبوا إليه وجدوا أنه مكوّن من كثير من الشاليهات المتفرّقة، قُسمتْ إلى مجموعتين أحدهما خُصّص للنساء والأطفال، والآخر خُصّص للرجال، بدت لهم المساحة واسعة جدا بالنظر الى عددهم القليل.

ترجّل الجميع من الشاحنة، وقد إلتفوا ببعضهم البعض، فخاطبهم أحدهم صارخا:

-النساء والأطفال لليمين، والرجال إلى اليسار.

تردّد الرجال في التنحّي جانبًا متثاقلين، ممّا أثار غضب الجنود فجعلهم ينهالون عليهم ضربًا بالعصي و الهراوات وباستعمال خُمْص الأسلحة، مع إسماعهم وابلاً من الشتائم المهينة، فوقفوا قرب الرجال يدفعونهم إلى جهة الشمال، بينما يحاول الرجال مقاومتهم، يُطلق أحدهم النار في السماء، ليستجيب الجميع خوفًا من أن يُقتّلوا إذا قاوموا أو اعترضوا، يخاطبهم الرقيب الضخم الجثة مرة أخرى، بعد أنّ كال لهم وابلاً من السُّباب والشتائم القبيحة:

-يبدو أنكم تريدون معاملة أفضل في هذا الفندق الذي ستقيمون فيه فترة وجيزة حتى إلى نرسلكم الى فندق أفخم يليق بكم.

ختم كلامه بضحكة هيستيرية أربكت السجناء، حتى نطق أحدهم يتحدّاه، مستنكرًا معاملتهم لهم بطريقة مُهينة:

-وماذا فعلنا نحن لكي تعاملوننا بهذه الطريقة؟

تقدّم إليه الرقيب، ثم أمسكه بقبضة قوية في صدره، يخنقه بشدّ ملابسه إليه، حتى كاد يرفعه إلى الأعلى، وهو يسبّه سبا بذيئا، حتى تزبّد فمه من شدة الغضب، قائلا له:

-لأنكم حقراء، هذا هو السبب الوحيد لإهانتكم، بل يكفي حتى لقتلكم كالكلاب بعد تعذيبكم أشدّ العذاب.

ثم جرّه بقبضة يده جانبا حتى أسقطه أرضا، وأمر جنوده قائلاً:

-ضعوا هذا الحقير في الخزّان الحديدي.

بعد أن أُخِذ الرجل المعترض، خاطبهم الرقيب:

-ربما حظّكم جيّد، وقد أنقذناكم مِن غضب الناس في المدن.

كانت كلمة خزّان وحدها مرعبة، فلا يوضع في الخزّان إلا المواد السائلة أو المواد النفطية أو المواد التي لا تحتاج إلى تنفيس، المواد التي تتحمّل الغلق وإنعدام الهواء، بل إن بعض الأشياء تتلف دون تهوية أو تبريد، رغم أن الجوّ مازال باردا جدا، سيكون بذلك الخزّان متجمدا شتاء، وصفيحًا ساخنا جدا صيفاً، ستكون لياليه طويلة وقاسية على هذا الرجل المتحذلق، وهو أوّل من سيدخل الخزان، وربما أول من سيلْقى حتفه فيه.

اقتيد النساء والأطفال الى شاليه فارغ سرعان ما امتلأ، لقد كنّ الأوائل اللائي يدخلنْه، وقد توزّعتْ في ارجائه أسرّة كثيرة من خشب عليها أغطية قديمة، انتظرت الأماكن وافدين كُثر، كانوا يلتحقون بالمعتقل يوميًا، دون معرفة ماذا سيحمل لهم المستقبل.

جلست امرأة بائسة قرب آنّـــا، وقد احتضنت ابنتيها، تحاول تهدئتهما، لكن شهيق بكائهما صار يتصاعد، لتحاول تهدئتهما من جديد.

همست المرأة لآنّـا:

-لماذا يحدث لنا هذا؟ ألأننا ولدنا يهودًا فقط؟

ردّت عليها همسًا أيضًا:

-لأنهم في الواقع هم الحقراء، ولسنا نحن.

صمتت آنّـــا ثم سألتها:

-ماذا يحدث في المدينة؟ قيل إن الشعب غاضبٌ.

-نعم، لقد هجم الناس علينا في بيتنا، كانوا جيراننا أصدقائنا، وفي لحظة واحدة انقلبوا علينا، كادوا يقتلونني مع بناتي، فررنا من الحي، فنهبوا أغراضنا، وأحرقوا المنزل، تحت صرخات مرعبة وسُباب قبيح، طال الأمر بعض جيراننا ومحلّاتهم، وسمعنا بوقوع قتلى وجرحى، كانت الشرطة تتفرج من بعيد دون أن تتدخّل، تمكّنا من الفرار منهم بأعجوبة.

شعرت آنّـا بالذعر من حديثها المخيف، وأنها تأخرت في الفرار، فلم تبتعد بما فيه الكفاية قبل أن تبدأ طبول الحرب بالقرع، وتركت الأمر إلى أن إشتد عليهم التعصّب، تذكّرت ليفي المخادع الذي تأخرّ في دعوتها للهروب، وهو بعد ذلك لم يظهر في شاحنة النقل ولا مع الرجال في المعتقل، ربما يكون قد رشى القائد، أو قُتِل في الحاجز، لقد بدأت الدائرة تضيق عليها، وقد فصلت عن ولديها، وهي لا تدري مصيرهما، رغم أنها كانت تراهما أحيانا من بعيد، تلوّح لهما بحزن شديد، يتملّكها الأسى يوما بعد يوم، ولا تنتظر خيرا في سائر الأيام، دام الإعتقال أشهرًا طويلة.

استلقى دافيد على سرير الخشب قرب سرير أديسون؛ بينما أديسون يتجوّل مرتبكًا قلقا ممّا آل إليه وضعهم، قلقين معًا لحالة أمّهما، شعرا أنهما محظوظان عندما تمكّنا من الفرار من غضب الناس، لقد كانت شيئا هيّنًا بالنظر لما حدث في ليلة الزجاج المحطّم التي خلّفت الكثير من القتلى اليهود ومئات الجرحى، كان زجاج المحلات التجارية المملوكة لهم عُرضة لهجوم كاسح، نُهب ما في المحلات، بينما محلات أخرى أُضرمت فيها

النيران، وأصبحوا مُستهدفين في كل المرافق العامة والخاصة من قِبل الدولة والشعب على حد سواء في كثير من الدول.

كان توقيت الخروج خطأ فادحًا لتزامنه مع ليلة مظلمة أضاءت سمائها ببريق الزجاج، أثاره موجات الغضب ضد اليهود مهما كانت مرتبتهم، رأى المتعصّبون من المتظاهرين أنه لا يمكن الوثوق بهم مهما قدّموا من خدمات لألمانيا، أو زعموا أنّهم ضحّوا دفاعا عن سيادتها كجنود مقاتلين في جيشها، ولا المساهمة التي يقدمونها في إقتصادها بأي شكل من الأشكال، لكن تصاعد التميز ضدهم يوما بعد يوم بعد بروز الحزب النازي الجديد تحت قيادة هتلر، آخذا ببساط الإحترام يسحبه من تحت أقدامهم، حتى تحول إلى اعتبارهم نسلٌ غير مرغوب فيه بل منبوذٌ، كما حدث لأجدادهم في أنحاء أوروبا في الأزمنة الغابرة.

مرّتْ سنة في أعمال شاقة، حتى اندلعت الحرب العظمى الثانية سنة 1939... قام الألمان بتسخير المعتقلين في أعمال قاسية متنوعة، لكن في أحد الأيام استدعيت آنّـــا في مكتب مدير المعتقل، حيث إكتشف المدير أنّ صورتها تتطابق مع صورة لها مسجلة في حالة بحث منذ مدة من طرف البوليس السري.

وقفت آنـــا أمام الضابط القائد البدين مقيّدة اليدين، مطأطئة الرأس، تنحني وتحاول أن تثير شفقته، جلس ينظر اليها، وهو يحمل بين أصابعه سيجارة دخان طويلة، لا تكاد تفارق شفتيه، يسألها بنظرات حادة قاسية تحذّرها وتمنعها من الكذب، أخبرها أنّ الصورة في البطاقة لا تتطابق تماما معها، قلّب في بطاقتها ثم سألها:

- ما اسمك؟ بدون كذب.
- اسمي كريستينا...

قاطعها ثم انتفض واقفا من مكتبه، مشيرا إليها بإصبع السبابة:

- كاذبة.. وحقيرة.

ثم أضاف:

- بعد اليوم أنتِ اسمك هو الرقم الموجود على ذراعك الأيسر 133.

ارتجفت فريستها من قوة صوته، لم تستطع الردّ، كانت تظن أنه كشف أمرها، لكنّها تأكدتْ أنّه كشف بعض أمرها فقط، لا تعرف إلى أيّ حدٍ يعرف القائد مَنْ هي؟ وماذا فعلت؟ وفي ماذا تورطتْ؟ لذلك طال صمتها، تستعد لأنْ تتنكر لاتهاماته، وتتنكر لإسم آنّا، بل تريد نسيانه، كما تخشى أن ليفي قد وشى بكل ما يعرفه عنها، هددّها القائد أنّه سينتزع أي إعترافٍ يريده قبل أن يبلّغ عن القبض عليه، فقائده الكبير منسّق الجيش لا يراقبه في كل قرارته، غير أنه فوّضه في كثيرٍ من الصلاحيات، وخاصة اتجاه المعتقلين، يعذّبهم أو يقتلهم حسبما يرى، مشترطًا عليه أن يرسل إليه كل الممتلكات التي يحجزتها من المعتقلين دون أن ينقص منها شيئا، وعندما تصل إلى مكتبه، يفرز منها كل غالٍ وثمين، ثم يحوّل الباقي إلى إحدى مؤسسات الجيش حسب حاجاتها الملحّة، ليبقى المحتجزون دون متاع، يقدّم للمعتقلين وجبتين يوميا فقط، وغطاءٍ واحد لا يكاد يفي بغرض الدفء في جو شديد البرودة، يعاني منه الصغار أكثر من الكبار، لكن مع زيادة العدد بشكل سريع من معوّقين ومعارضين سياسيين وعرب؛ الذين يُعتبرون لدى سجّانيهم عالة على المجتمع وخطرٌ على نقاء الدم الألماني، وعلى سموّ الجنس الآري، قلّتْ الوجبات المقدّمة الى وجبة واحدة ترمى بين السجناء فيتدافعون ويتقاتلون من أجل الظفر بها، بينما يتناول الحرّاس وجبة كبيرة دسمة، خُصص خزّان ماء واحد للسجناء الذي لا يكاد يكفي الجميع، صاروا يختارون الرجال ذوو البنية الجسدية

القوية من أجل أعمال شاقة تافهة غرضها الإنهاك والتعذيب، بينما يؤخذ الضعفاء العاجزين عن العمل إلى خارج المعسكر دون أن يعودوا، ودون أن يعرف أحد أيّ شيءٍ عن مصيرهم.

حاول القائد إرباك آنّـــا كما يفعل مع كل معتقل من أجل ترهيبه وانتزاع إعترافات دون كثير من الجهد والعناء، إقترب منها، ينفث عليها من دخان سيجارته، حتى سعلت من كثافة الدخان على وجهها، وخلال سعالها واصل هو في سبّها دون توقف، قائلا:

-تأكّدي، أنا أعلم كلّ صغيرة وكبيرة عنكِ.

لم تصدّقه لأنها سمعت عن هذا الأسلوب في الإستجواب، وتريد الإنكار ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، تخاف من أنّ يكون جادٌ في تهديده، فيُعدمها على الفور دون انتظار، وتخشى أن تعترف بكل شيء إذا مارس عليها أنواع التعذيب الذي بدأت تراه يتكرّر في كل أركان المعسكر، أصبح الأمر قريبا ومرعبًا.

اختفى ليفي عن أنظارها منذ حادثة الحاجز؛ تتساءل في نفسها؛ أيكون قد أعدم في مكانه أم أنّه قد عقد صفقة ما مع القائد؟!

لم يذكر المحقّق اسم ليفي في التحقيق الأول، لكنه عندما استدعاها مرة أخرى وجدت رجلان يقفان الى جانبه، يتطاير الشرر من عينيهما، لا تدري من هما، لكنّها متأكدة أنهما ليسا جنودا من جنود المعسكر إذ لا يرتديان زيا عسكريا، وقف المحقّق قربهما، ثم اتجه نحوها بهدوء، غير أنّه كان هدوءً مُرعِبا.

همس في أذنها، مُشيرًا للرجُلين:

- أتدرين مَن هؤلاء؟

لم تجبْ، ظلّتْ منتكسة تحملق في كل ركن إلا في وجهي الرجلين، تدّعي أنها لا تفهم مقصده، ليردف، مُدركا جهلها، ليصدمها بقوله:

- أبشركِ، هذان أخوي كريستينا...!

اهتزتْ من هذه الجملة، ثم تراجعت خطوات إلى الوراء حتى اصطدم ظهرها بالجدار، رفعت يديها إلى صدرها فَزَعًا، إصفر وجهها من الرعب، نظرت إليهما نظرات خاطفة، ثم تحاشت النظر اليهما مباشرة، لاحظ المحقّق تغيّر ملامحها إلى الأسوأ، قال لها:

- لقد أتيا للتعامل معك، ولن أتدخّل بينكم.

بدأت بالصراخ، وكأنه شبه إعتراف بأنه فعلت شيئًا ما، ثم بدأت بالعويل تتوسّل المحقق ألا يتركها معهما، ركعتْ على ركبتيها تحاول أن تقبّل قدمي المحقق، فإبتعد عنها مشيحًا بوجهه عنها.

نادت ناحبةً:

- أرجوك يا سيدي، أقتلني هنا، ولا تتركني معهما.

تراجع إلى الوراء، فاسِحًا المجال لهما لأخذها عنوة، وضع أحدهما يده في جيبه، يُخرج صرّة كبيرة، يضعها في يد القائد، ثم انصرفا من المكتب مسرعين دون أن ينبسا بكلمة واحدة، وهما يقودان آنـّا مقيدة خارج المعسكر، تحاول وهي تتخبّط أن تقاومهما لكن دون جدوى، يجرّانها بقوة إلى حيث لا تدري، أخبراها أن كل الكلام سيقال في موقع آخر أكثر ملائمة، سيتكلمان عن الألم الموجود داخلهما بعد القتل الفظيع الذي تعرّضت له أختهما على يديها.

منذ ذلك اليوم غابت آنّا عن أنظار ولديها، قبل ذلك كانت تخرج لهما كل صباح لتشاهدهما يغادران إلى العمل الشاق، وهما يرتديان لباس أبيض مخطّط بالسواد، تلوح لهما بحزن وأسى لِما آلت إليه أوضاعهم، لم

يعودا يرينها بين النساء في الجانب الآخر من المعتقل، ولم يصغ لأسئلتهما أيّ أحد من الجنود، فلا أحد يعرف شيئا عما يجري، لا أحد يعرف ما سيحدث له في اليوم التالي، صار المعتقلون أشباه موتى، بل يتمنّون الموت ولا يجدونه، وكلما احتجّ أحدٌ على شيء ما يُضرب ضربًا مبرحًا، وبعد ذلك يُرسل إلى الخزان، غالبًا ما يغيب نهائيا عن الأنظار، يُشاع بين المعتقلين أن القطارات بين الفينة والأخرى تأخذ بعض السجناء بعد أن زادت أعدادهم إلى معتقل أشد قسوة يسمّى أوشفيتز في بولندا، حيث سمعوا، غير متأكدين، أن هناك يُعدم الناس في غرف الغاز السّام الكلوفورم، ثم يرموا في حفر كبيرة يقومون بحفرها بأنفسهم، يدعي الألمان أنهم يفعلون ذلك كيلا يموت الأصحاء بسبب المرضى المصابون بالأمراض المعدية، هذا ما كان يقال لهم من طرف بعض الجنود، فليست هناك أدوية للكمّ الهائل من المعتقلين، لذلك يُدفن البعض لينجو البعض الآخر، حتى الجنود نالوا شيئا من التعذيب، فالذي يقوم بالتعذيب على أحد المعتقلين يصاب بذات المرض، قيل أن كثيرا من الجنود قد فروا، وآخرين أصابهم الجنون ممّا طلب منهم في عمليات التعذيب القاسية على الأطفال والنساء...

❖

احتجّ أديسون يومًا عمّا يجري حوله، صرخ بأعلى صوته معبّراً عن استنكاره، يتصبّب عرقًا من الغضب رغم الجو البارد، نادى في ساحة المعتقل كأنه أُصيبَ بالجنون، ملوّحًا يديه في كل اتجاه، معلنًا التمرّد على الاعتقال:

-لِمَ تعذبوننا هكذا؟ اقتلونا وكفى... ماذا تنتظرون؟ أين أمّي؟ وأين الناس؟ أين تأخذونهم؟ أيها الأوغاد...

فإذا بالحرّاس يهجمون عليه، محاولين منعه من الصراخ، يجرّونه من شعره ومن لباسه الممزّق، يضربونه بالعصي في كل انحاء جسمه المتهالك؛ ضربات لا تترك منطقة من جسده إلا وقد أصابته، يحاول دافيد التدخّل فيمنعه باقي الحراس عن ذلك، يدفعونه حتى سقط هو الآخر أرضا، إلتفَ بعض الجنود حولهما يُجهزون عليهما بالضرب العنيف أحدث غبارا في المكان، حتى التحق قائد المعسكر بالمكان، فأمرهم بالتوقف عن ضربهما، وإيداعهما الخزّان الحديدي الذي هو الكلمة المرادفة للموت، العائد منه حيّاً هو في الواقع مُنبعث إلى حياة جديدة، حتى الخزانات لها أنواع؛ منها الخزّان المهترئ، والخزان الجيد، ومن المفارقات العجيبة أنه كلما كان الخزّان مهترئًا، كان ذلك من حسن حظ مَن يُرمى فيه، يزجّ المُعاقب فيه كجرذٍ مُعْدٍ، فيما تتراصف عشرات الخزانات الحديدية في مساحة فارغة مسيّجة ومنعزلة، مكشوفة لبقيّة المسجونين، يُلقى فيها كل من حاول التمرّد على الاعمال الشاقة أو حاول الفرار أو حرّض عليه، وعندما يفعل أحدهم ما يخالف القانون الذي تلي عيهم في أول اليوم، يقيّد ويُجبر على الصعود إلى منصة تتوسط المعتقل بعد أن يكون قد تلقى ضربا شديدا، وبينما هو صاعد ينادي أحد الجنود في الساحة؛ بأن الماثل أمامهم قد تجرأ وحاول التمرّد على القانون، وأنه سيذهب إلى مصيره المحتوم، غالبا ما يكون موتا أو تخزينًا نهايته موت حتميٌّ.

جرّ الجنود دافيد وأديسون عنوة من أجل أن يدخلاهما إلى الخزّان، مقيدي اليدين برباط هشٍّ، يصعدنهما كل على حدا إلى فتحةٍ موجودة أعلا الخزانات، ثم يُرمى كل واحد منهما في جوفه كأتفه شيء، لا يستطيع بعد ذلك أن يصل إلى فتحته الصغيرة العالية مهما حاول ذلك، ولو وصل

فإن رصاصة نحاسية ستسقر في رأسه، وقد حاول أحدهم فِعْل ذلك فانفجر رأسه دون تأخير، وعلِم بذلك كل المعتقلين.

سقط دافيد على كتفه فوق جسم متجمّدٍ، تنبعث منه رائحة نتنة قوية حتى بدأ بالقيء على الأجساد الساكنة، تحسّس بأكتافه فإذا الخزان ممتلئ بالأجساد المتراصّة، بين ميّتٍ وحيٍّ يتضوّر مرضًا وجوعًا، أو مريضٍ على حافة الموت ولا يستطيع أن يموت، ومن شدة الظلمة لا يستطيع أن يرى شيئا حوله، إلى أنْ شعر بأن يدا باردة واهنة إمتدت إليه ترتجف، تكاد لا تقدر على الحركة، تتلّمس قيده، وبارتعاش تقوم بفكّ قيده شيئا فشيئا، مع أنفاس تدخل وتخرج بعسرٍ شديدٍ، تنفكّ عقدة الحبل الهشّ بعد طول محاولة، لكن ماذا ستنفع اليد الحرة وسط خزان حديدي ممتلئ بالجثث والمرضى؟ يبدو له الخزانُ كقبرٍ من حديد، أرحمُ منه قبرٌ مشقوق في الأرض؛ ففي قبر التراب فتحة إلى السماء نحو الإله، أرحبُ كثيرا من هذه الفتحة، حيث في هذا القبر الحديدي فتحة تظل مفتوحة نهارا، لكنها تؤمّن بغطاء من شبّاك من سلك شائك يمنع خروج أي رأس، وفي الليل تغلق تمامًا، تُرمى فيها فضلات الأكل عبثا من طرف الحراس، مع قارورة ماء أو جُعة مفتوحة يتلقّفها الأحياء حتى لا تندلق، كل ذلك دون موعدٍ محدّد، قد تندلق مرة وقد يتلقّفونها مرة أخرى، لذلك يضطروا للانتظار لكل فرصة جديدة تأتي من سماء الخزان كي يُحْسِنوا اقتناصها، كل ذلك ليس رحمة بهم، ولكن لتبقى الروح في أجسادهم ويتذوّقوا العذاب، فيتقاتل الموجودون في عالم الخزانات من أجل شبه حياة، أو حياة على حافة الموت، وفي أسفل الخزان فوهة صغيرة خصّصت لقضاء الحاجة، لا توجد في بعض الخزانات، و في بعضها تتعدّد الثقب بسبب الصدأ و الإهتراء وذلك من حسن حظّ البعض لأنّها توفر لهم مزيدا من

الأكسجين، فتسمح للسجناء بأن يحشروا أنوفهم ليمتصّوا شيئا من الهواء، ليرتشفوا هواء الخارج، ويتخلّصوا شيئا من الروائح النتنة المحيطة بهم، كلما قاوموا الموت اتصلوا بالحياة، وزادت فرصة خروجهم أحياء، وجد دافيد الخزان مُظلما مليئاُ بأنين المرضى، وآهات المتعبين.

كان الصمتُ مرحلة متقدّمة من الصراخ والتخبّط، تنتهي بالفشل واليأس الذي يقاومه أديسون في خزان آخر وجد نفسه فيه وحيدا، يتخبّط في نفس الحيز المكاني، يحاول تقريب القيد من أسنانه لكي يقضم الحبل، يمسكه ثم يسحب طرفاً منه حتى فكّه شيئا فشيئا، لم يكن ربطه محكما ولم يكن وراء ظهره، كان قيدا قابلا للفكّ، ووجوده وحده ليس في صالحه، فهو لم يشمّ رائحة الجثث المتعفنة، والجثث قد تكون ذات نفعٍ في أمور أخرى، كأن ينتزع منها ألبستها حتى يلفّ جسده النحيل ليدفئه من البرد القارس ليلا، أو يتحاشى وضع جسمه على جدار الخزان الملتهب عندما تحوّله اشعة الشمس إلى صفيح ساخن لا يمكن الإتكاء عليه.

للجثث كذلك فوائد، ربّما أكثر مما كانت عليه وهي اجسادٌ تتحرك على قيد الحياة...

مرت ليالي طويلة، ليصبح أديسون برفقة معتقلين، لكن بعد أن صار أشبه بالميّت، وبعد أن مات رفقاء دافيد أصبح هو الآخر وحيدًا.

بعد أسابيع وفي يوم غريب دقّ جندي جدار الخزان من الخارج على دافيد، صاح عليه لكي يرى إذا كان مَن في الداخل لازال حيّاً، يحاول دافيد أن يجيب؛ أن يدق الخزان، حتى يعلن أنه على قيد الحياة، بصعوبة يتمكّن من الضرب بأطراف أصابعه المتسلّخة، وضع الجندي أذنيه على الخزان دون أن يلمسه، بالكاد سمع دقات السجين، فدخل إليه من فوهته، وضع قدميه على أجساد الموتى يبحث بمصباح كبير، يخطو ببطء شديد،

يتأفّف من الرائحة، واضعًا على أنفه لثامًا، يحمل في يديه مسدسا تفاديا لأنْ يعْلق به احد المعتقلين، يفتّش عن الحيّ الميّت، عثر على هدفه فجذب دافيد إليه بكلتا يديه من خصره ككومة قشٍّ قديمة، ثم حمله على كتفيه واضعا رأسه المتدلي وسط فتحة الخزان ليتمكّن الجندي الآخر من سحبه إلى الخارج، أغمض دافيد عينيه عندما خرج من الخزان لم يتمكن من رؤية الضوء بعد ظلام دامسٍ دام طويلا، كان قد أَلِفه، وكان قد إستسلم فيه للموت؛ ينتظره على أحرٍّ من الجمر، حتى صار الموت المنقذ الوحيد من حياة لا معنى لها.

جُلِب من الخزان محملاً فوق سرير الموتى نحو عيادة المعسكر، لا يُجلى أي سجين اليها إلا إذا كان هناك أمر طارئ قد حدث، كأنْ يصبح السجين متعاونا في أمرٍ ما بعد استسلامه. وُضِع على سرير جيّد الفِراش دون أن يسمع إهانةٍ ما، أو لأنه في عالم آخر لا يستطيع أن يسمع شيئا من شدّة المرض، تقدّم إليه طبيب المعسكر نحوه ليكشِف عن حالته، وما يجب أن يقدّمه له لينقذ حياته، مسح على شفتيه بشيء من المراهم، لتترطّب شفاهه ويرطّب حلقه، بعدها تم وضع بعض السوائل وبعض المقويّات في جوفه، وُضِعتْ على جراح جسمه مراهم متعدّدة، غُيّرت له ملابسه دون أن يُقاوم، أو يستطيع أن يقاوم، دون أن يسأل، أو أن يفهم ما يحدث له.

الليالي التي قضاها في الخزان أفقدته طعم الحياة والرغبة في العيش، بدأ باليأس والاستسلام التام للموت. لكنه مع حقْنه بمواد حيوية كثيرة، بُثّت في عروقه الحياة، فتح عينيه بصعوبة، ليكتشف نفسه أنه المريض الوحيد في غرفة صغيرة تُستخدم كعيادة للمرضى من الضبّاط، عليها صور كثيرة لهتلر، لكنه ظل تحت مراقبة جنديين من بعيد، وعندما إكتشفا أنه

استيقظ، أمره أحدهما أن يبقى في مكانه وهو لا يستطيع فعل ذلك أصلا، فلا يقدر على أن يتحرّك من سريره، غير أنه يستغرب محدّثًا نفسه؛ كيف انتشل من القبر الحديدي دون أن يختطفه الموت فيه؟ ولماذا فعلوا ذلك معه؟

إقترب طبيب المعتقل غيرهارد، يتأمّل دافيد بعينين زرقاوين دقيقتين تغطّيهما نظارات كبيرة وسط وجه أبيض، لقد سمع الإشاعات عن هذا الطبيب، بأنه شيطان في هيئة انسان، فقد كان يتجوّل في المعتقل، بوجه ملائكي جميل، وبابتسامة عريضة، أنيق في مظهره، الناظر إليه يسلمه قلبه وعقله وجسده ليداويه، لكنه في حقيقة الأمر هو مجرم من الطراز النادر، عرف المعتقلون ذلك بعد إنتشار أخبار وحقيقة هذا الطبيب الأنيق، عُرِف عنه أنه كائن بلا قلب ولا ضمير، يتعامل مع الإنسان كما يتعامل مع الحيوان بل أشدّ فظاعة، يعامل مع المعتقلين كتعامله مع الأحذية، طرقًا وتقطيعا وسلخًا ورميًا في آخر المطاف، يقضي الليل والنهار في إرتكاب هواياته المفضلة المختلفة؛ في التفنن في تنفيذ تجاربه، كتغيير الأطراف بين المعوقين وشقّ الأحشاء، يبدو له المرضى كفئران وصرخاتهم لا تسمع بل هي بالنسبة له كأغنية يستلذّ بأنغامها، كلما انطلقت من حناجرهم أطربته وزادت شغفه بالرقص، أحيانا كان يرقص عندما يصرخ المريض، كلّما طرأت في رأسه فكرة جرّبها على أجسادهم، وبعد أن يأخذ الضوء الأخضر من القائد العسكري الرفيع، قد يتفقّد بعض المعتقلات والسجون، لإنتقاء ما يروقه من الوجوه الكئيبة، لكن أكثر ما كان يستلذ به هم السجناء المعوقين؛ والتوائم من الأطفال؛ وألوان العيون العجيبة؛ وكل شيء غريب، يحب تعذيب المجانين عندما يحز رؤوسهم بالمنشار ليبحث عن سرّ جنونهم، وفي نهاية تجاربه تُرمى الجثث فارغة من

الأحشاء أو بدون أطراف أو ناقصة لعضو من الأعضاء، ثم تحرق في محيط المدينة، أو تدفن تحت ركام الأتربة.

يرتعد دافيد من شدّة خوفه من غيرهارد، يتقدّم الطبيب إليه ببطء وعلى محيّاه ضحكة باردة، يتكئ دافيد على يديه عبثًا، محاولا الإبتعاد عنه، ليتوقّف الطبيب عن تقدمه.

يطمئنه بصوت مهموس جميل مقرون بابتسامة عريضة:

- ههه.. لا تخفْ، أنا أحاول مساعدتك.

علم دافيد أن هذه الكلمة قد قالها للموتى الذين أُحرقتْ جثثهم، ودُفنتْ تحت التراب، كثيرا ما تبدأ الجريمة بكلمة جميلة مطمئنة، هو يعلم أنه يريد شخصا مستسلما في البداية ثم لا تهم مقاومته بعد بداية المعركة، يستعين في عملياته بممرضة تشبه الرجال في شكلها أو أنها رجل يشبه النساء، تعينه في السيطرة على المتمردين، ذلك أنها تمتلك قوة جسدية هائلة ونفسية كذلك، لا تعبأ بتشريح الأحياء دون تخدير، لأن المادة المخدّرة كثيرا ما تترك للجنود لعلاجهم في العمليات الجراحية الصعبة.

إشتد وطيس الحرب العالمية الثانية، كما إشتدت المعارك الحربية الجارية في مختلف الجبهات التي امتدت في أنحاء أوروبا والعالم كله، التفوّق بدا كاسحًا لهتلر، وقد امتدّ في كل إتجاه، جعل أغلب العالم يتوجّس من إنتصارات وسيطرة الألمان، وتزايد أسْر اليهود.

حاول دافيد القيام بتثاقل، تمسكه الممرضة، تمنعه من أي حركة، بيدٍ قوية، تخاطبه بصوتها الخشن في صرامة؛ على أن يتوقف عن المقاومة، كانت قبضتها القوية تثبت كتفه المنهك، وهو لا يستطيع أن يقاوم، ولا أن يتكلم وقد جفّ ريقه، وتشقّقت شفتاه، وبرزت عروقه من كل جسده، وتوزّعتْ التهابات في معظم انحاء جسده.

خاطبه غيرهارد، وقد أومأ لممرضته بأن تخفّ يدها عنه قليلاً:

- أنت محظوظ.. بل أنت الوحيد المحظوظ..

لم يفهم دافيد معنى محظوظ في كلامه، قد يكون الحظّ إلى جانب الطبيب وليس إلى جانبه، ربما الحظ هنا هو عملية جراحية تشريحية جديدة تقتله ببطء، أو هو عناق للموت بفضاعة، إذ الموت كحفرة متعدّدة المداخل، ومختلفة الأشكال، أهونها مشين، الموت نقْلة شاقة إلى عالم بمفهوم حقيقي كأن يكون من خلال خزان حديدي في شتاءٍ قارص. لكن قبل الموت، نصعد الى مقصلته وخزانه، نرى ظلاله قبل أن نتذوّقه، ونتذوّقه بمرارة، إلى أن يبتلعنا إلى الأبد.

أضاف غيرهارد، كأنه يقرأ أفكار المريض الملقى أمامه:

- لا تخف من الموت.. بل إجعل الموت يخاف منك.

ردّ عليه، دون أن يتكلّم، متعجّبا من هذه الفلسفة المريضة:

- مثلما يخاف الموت منك...!

مرّت أيام طويلة وهو يعتني به حتى بدأ بالتحسّن، قُدّمت له الوجبات التي يتناولها الضباط في الجيش، مع هذه المعاملة الخاصة إزداد تعجّبه وحيرته، ودون الإجابة عن تساؤلاته الدائمة، ككيف إنقلب التعامل إلى النقيض؟ شعر بالعار والخيانة. قُدّم له لباس نظيف، وأُدخل إلى مرشّات الضباط ليستحمّ، إنبهر لما يجري، لكنه يتذكّر أن أديسون مازال يتعذّب في محبسه، وعندما لاحظ الطبيب أنه تحسّن شيئا ما، أمر بإخراجه من العيادة.

في أحد الصباحات أُقتيد مقيّدا، لكن بشكل لائق ليس كالإقتيادِ الأول، ركب في سيارة عسكرية مع جنديين دون كلام، ومع كل هذه

المعاملة الخاصة شعر أن الموت لازال قريبا منه، سمع قصصا كثيرة عن أناس يُهيئون للقتل بهذه الطريقة الجميلة... هناك من يهيئ للموت بلباس لائق، ومَعِدّةٍ ممتلئة.

نهاية سنة 1943.

انطلقت السّيارة العسكرية من المعتقل نحو أطراف المدينة البعيدة إلى فيلا كبيرة؛ يحرسها مجموعة من العساكر، يقود الجنديان دافيد إلى داخلها، يلِجون به من باب كبير نحو مكتب فخم، وهو لايزال مقيّد اليدين، يتجوّل بناظريه فيه؛ ليلحظ مكتب فسيح المؤثّث بأحدث وأجمل التحف الفنية، مع لوحات تتوزّع على جدرانه، منها صورة كبيرة لهتلر ذو الشارب القصير والنظرات الحادة، وإشارات الصليب المعكوف على خلفية حمراء، الشعار الرسمي للحزب النازي، الذي ينتشر في كل مكان، بينما يختفي وراء الكرسي الفاره المتحرك الكبير رجل طويل القامة، يظهر ذلك من خلال رأسه وأكتافه من بعيد.

أمر الجنديين دون أن يستدير إليهما، بقوله:

- إنزعا عنه القيد، وإنتظرا في الخارج.

تردّدا قليلاً، ثم إستجابا، بقولهما:

- حاضر، يا سيدي.

قاما بفكّ قيده، ثم أغلقا الباب وغابا وراءه، استدار الرجل المختبئ وراء الكرسي، فظهر له أنه يرتدي زيًا عسكريا عليه نياشين مختلفة الألوان والأحجام، يشعر دافيد أن وجه هذا الشخص ليس بعيدا عن ذاكرته، ذو الجسم النحيل، الذي يضع رقعة سوداء على إحدى عينيه، كما يفعل القراصنة الذين فقدوا إحدى عيونهم أو أرادوا إرتداء تلك الرقعة لسببٍ ما، كأنْ يرغبوا في إثارة رهبة الآخرين، أو هو دليلٌ واضحٌ على تغوّل جانب الشرّ في نفوسهم، يقوم الرجل المجهول من الكرسي، ثم يقترب من التائه

في تفكيره؛ حيث يبحث عن مكان إختفاء اسم هذا الوجه المخيف في ذاكرته؛ الغريب أنّ هذا القائدُ العسكري الكبير ائتمنه على نفسه عندما فكّ قيده وإستفرد به دون خوف، أو بسبب شيء آخرٍ يستعجل معرفته.

حاول الضابط الكبير مساعدته في العثور على اسمه بإسماعه نبرات صوته:

- أعرفْتني أم لازلت؟

لم يُحدث صوته أي انتعاش لذاكرته التي حُشيت صورا من التعذيب والآلام وأصوات المعاناة بكل أشكالها، لكنه يعرف أن الماثل أمامه ضابط مرموق، له يدٌ من قريب أو بعيد في إستمرار هذه المعاناة الجماعية التي لا رحمة فيها، وهو السبب الذي لا شك فيه في إنقلاب معاملة قائد المعتقل له، يستمرّ متسائلاً في سريرته؛ ماذا يريد هذا الضابط الذي يقف منبسط الوجه أمامه؟ حاول أن ينشّط خلايا مخّه المعطوبة، لكن دون جدوى.

قطع تفكيره مرة أخرى، مضيفاً:

- حسنا، أظن أن الزمن قد محا شيئا من ذاكرتك.

تشجع دافيد غاضبا من إستهزاءه:

- الزمن خطٌّ مستقيمٌ، والانسان هو المتسبّب في انحرافه، هو المتسبب في أحداث عاهاته، وفي روحه السويّة.

فهم الضابط أنّه يقصد معاناته في المعتقل، لكنّه لم يرد خوض جدال لا يأتي بنتيجة، لا في إقناع نفسه، ولا في إقناع خصمه، لقد فهما معــاً؛ أن عدم التمكّن من إقناع بعضهما البعض تسبّب في إختراع المعتقلات وأقبية التعذيب.

بعد هنيّه، أجاب كاتمًا غضبه:

- بدون مراوغة، أنا أريد مساعدتك.

ابتسم دافيد ساخرا:

- تساعدني؟ بعد ماذا؟

- أن تأتي متأخرا خيرا من ألاّ تأتي أبدا.

- ولكن مقابل ماذا؟

- لا شيء.. لا شيء.

- لا أظنّ...لا أظن.

عاد إلى كرسيه ليجلس، يتبعه دافيد بنظرات حادّة، ثم يسأله:

- لماذا فعلت هذا معي؟ لقد جعلتني أبدو خائنًا أمام الجميع، ومَنْ أنت؟

- حسنا لن أطيل حيرتك، أنا الضابط هوس، ألم تتذكّرني؟

انصدم دافيد فتذكّره فجأة، تذكّر قدومه الدائم إلى البيت، لأنه كان صديق أبيه ثم صديق أمه بعد ذلك، كان صغيرا على أن يفهم ما يدور بينهما من حوارات وخلوات، وصغيرا على أن يحفظ تفاصيل وجهه التي تغيّرت بفعل التقدم في العمر، ضف إلى ذلك أنه ينقصه عينٌ في رأسه، كما أن التعذيب الذي ناله أخلّ بتوازنه.

الحرب المجنونة أثّرت في كل العالم سواء بالقتل الجسدي أو القتل الروحي، لا أحد يستفيد منها، حتى المنتصرون لهم خسائر.

عاد دافيد إلى المعتقل دون أن يتفق مع هوس على طبيعة الإتفاق الذي يريده، أمهله ثلاثة أيام حتى يتكلم معه من جديد، كان هوس يعلم أن دافيد يمكن التعامل معه، ليس كأديسون المتشدد في أفكاره، أمضى الأيام الثلاثة في غرفة محروسة لكن بمعاملة خاصة، أحسّ أنه فعلا صار خائنا بالنسبة لأولئك المسجونين الذين يتضوّرون جوعا ويشتكون من

المعاملة الوحشية في بقية المعتقل، لكن هو في موقف غريب؛ معتقلٌ لا حيلة له، يريد ضابطٌ سامٍ أن يتفق معه، وقبل أن تنقضي المدة طلب دافيد الرجوع إليه، فلُبّي طلبه فورًا، تنفيذا للأوامر.

خاطب هوس دافيد:

-كنتُ أعلم رجاحة عقلك، وأقدر ما تعرّضتْ له، فليس من الحكمة أن تعادي صديق أمّك.

- تفضل، أنا مستعدٌ لسماعك، ماذا تريد؟

امتعض من كلامه المباشر، لكنه استبشر به:

-رغم أني شعرتُ أنك تأمرني، إلا أنه لا بأس، سأتجاوز الأمر، سأُدخُلُ في الموضوع، لقد كنتُ أنا وأمك شريكين في تجارة الذهب، ولكن حدث بيننا سوء تفاهم ولم نتمكّن من الإتفاق على كيفية تقاسم الأرباح بعد أن فرقتنا الحرب كما تعلم، والآن ببساطة أنا أريد نصيبي، هذا ما في الأمر.

تعجّب من طلبه، فقال:

-كان من الأفضل أن تسأل أمّي عنه، وعن إتفاقكما الذي تدّعيه الآن.

-حسنا، لأكون صريحا معك، كلامك منطقي جدا، وأرجو أن تصدقني، فلو كانت أمك في المتناول لكنتُ حقا سألتها، وإتفقتُ معها لكن...

قاطعه:

- لكن، ماذا؟

- أمّك ليست في المعتقل.

قال دافيد غاضباً:

- أين هي إذًا؟

- لا أعرف.

- كيف لا تعرف؟

- أليست تحت مسؤوليتك؟

- أعلم، أعلم.. لقد سلّمها القائد السابق للمعتقل إلى أشخاص يُضمرون لها ضغينة ما، وقد عاقبته بما يستحق، لأنه لم يرجع لي قبل أن يتخذ قرار تسليمها.

صرخ دافيد في وجه الضابط:

- يجب أن تبحثوا عنها وتجدوها، مَنْ هؤلاء الذين أخذوها؟ ولماذا؟

- نحن نبحث عنها، لكن في الحرب لا يمكنك أن تفعل ذلك بسهولة، في الحرب يصبح كل الناس مجرمون، ويُستباح كل شيء محرّم، أمّك ربّما إرتكبت جرائم كثيرة، لذلك هي معرّضة لكلّ شيء.

تنهّد، وردّ:

-ماذا فعلت؟ وما تفعلونه، أليست جرائم؟ وأخي أديسون، لماذا تعذّبونه؟

- أخوك أديسون لا يبدو متفهّما مثلك، ولا يستحق أن أتناقش معه، لأني أعلم أنه لن يثمر معه الحوار، فأنت رصين أكثر منه.

ابتسّم بسخرية معترضًا:

-لكن يجب أن يُنتشل من الخزان الحديدي الذي يقبع فيه، أليس كذلك؟

انزعج هوس، ثم ردّ غاضبًا:

-حسنًا، لا عليك، سنفعل ذلك، سأصدر أمرا أن يُعامل معاملة خاصة.

ارتفع صوت دافيد أكثر من ذي قبل:

-بعدما قتلتموه...؟ بدون أيّ ذنب، تعاملوننا كالأغراب، ألم يكف أننا نعيش أبا عن جدا على هذه الأرض؟

صمت قليلا، ثم ردّ:

- قُبض عليكم هاربين دون تصريح قانوني من الأرض التي تقول أنكم كنتم فيها أبا عن جد، وهو دليل على أن الأرض التي تُنبت الطيّب أمثالنا، تنبت أيضا الخبيث أمثالكم.

- أنحن خبثاء والغجر والسلاف والعرب، وغيرهم الكثير؟ لم يكن الهروب خطتنا، بل هي تدبير من ليفي وحده، وقد تمكّن من الفرار منّا، لقد كان محقّاً حينما نصحنا بالهجرة رغم أنه مخادع خبيث.

- لن يبتعد بعيدا، ستتلقفه كمّاشة الحرب في منعرجٍ ما، أكيد...

صمتا قليلا، ثم أردف:

- دعنا من هذا النقاش، ولندخل في موضوعنا.

قاطعه دافيد بحزم:

- ماذا تريد منّا؟

رد عليه هوس بحسم مماثل:

- للأسف، أولاً، أمّك في عداد المفقودين، وقد يطول البحث عنها، وقد تكون نتيجة البحث سلبية.

- ما معنى سلبية؟

- أنت في الحرب يا عزيزي، معنى ذلك، إما نجدها جثة هامدة أو لا نعثر حتى على الجثة أو أي شيء يُثبت أنّها ميّتة.

فزع دافيد من هذه الإحتمالات، فردّ:

- يا للهول، أنتم السبب؟

- لا تغضب، فأنا كذلك فقدت كل عائلتي في الحرب، إنها ضريبة الدفاع عن المبادئ؟

سخر من كلمة "مبادئ" التي نطق بها هوس، ثم قال:

- كيف لا أغضب، وهذا الدمار الذي يعمّ العالم دون سبب؟

أجابه هوس:

- لا، بل هناك أسباب عديدة لكي لا نوقف الحرب...

أُعيد مرة أخرى إلى المعتقل، وخلال ذلك أُمر بإنتشال أديسون من قبره الحديدي وهو على وشك الموت، فَقَدَ نبرات صوته وقدرته على السير، بل لم يتمكّن حتى على الحركة السليمة، صار كدميّة مبرمجة على حركات بسيطة محدّدة، يشكو أكثر مما شكى منه دافيد سابقا، سُمح لأخيه له أن يزوره كأنه جثة ملقاة بين يدي الممرضة والطبيب، الشيء الذي يتحرك بسهولة هي عيونه، تدور في كل إتجاه، يفقد جُهد الاعتراض والمقاومة، يشمئز أديسون من مظهر أخيه الذي يبدو كأحد جنود هتلر، وقد بدا له متواطئًا معهم، لا يستطيع ان يستوعب؛ كيف حدث ذلك؟ فلا يستطيع الغضب، ولا يستطيع الرضى عن إنتشاله من الخزان، ولا عن عدم الرضى عن إنقاذه من الموت.

تعافى دافيد كثيرا من مرضه، وخلال لقاءه مع هوس إشترط عليه أن يُطلق سراح أديسون مقابل أن يدلّه على نصف الذهب، ويبقى النصف الآخر عنده يتاجر به، مع تأمين الحماية له من بطش النازيين، وكذلك يؤمّن له هويّة جديدة، وافق هوس على الإتفاق، غير أن قادة الحرب سرعان ما إستدعوه إلى جبهة من جبهاته، فقد قيل أن قوات هتلر قد عانت في أحد جبهات القتال، وتحملّت خسائر كبيرة في العُدّة والعتاد.

لقد كان هوس مُحقًا حين قال أن الحرب لا تؤتمن...

لم يحِن وقت الذهب والألماس بعدُ، الرصاص والبارود هو المعدن المتداول بين أجناس البشر، ورائحتهما تملأ كل الأنحاء وتزكم الأنوف، حيث الناس المصابة بهيستريا القتل والتنكيل تعمل ذلك بكدٍ، تعافى أديسون من الرضوض والإلتهابات والحروق، صار قادرا على الكلام بأكثر وضوح ممّا سبق، وبدا أكثر اقتناعا أن عليه تدبير طريقة ما للفرار من هذا الجحيم، و أنه حتى الضابط هوس لا يمكن الوثوق فيه عندما يعود، لأنه بمجرد العثور على الذهب سيرميهما بالرصاص كالكلاب الضّالة، صار يبحث في المعتقل أيام عمل السُّخرة لإكتشاف كل مُخرج قد يؤدي به إلى تحقيق مسعاه، إما التمرّد أو الهرب من خلال الأحراش والتفرّق في المدن، جعل مَن أيّده في البداية يتردّد في النهاية، لإنّهم يعرفون أن الحرّاس سينتقمون من أهاليهم الضعفاء الموجودين في المعتقل، سيقتلونهم بعد أن يذيقونهم أشدّ العذاب.

أصرّ اديسون على الفرار، قائلاً لجماعة يثق فيهم يجلسون حوله:

- ألا ترون أننا ميّتون على كل حال؟ لكن لا يمكن أن نقبل أن نكون لقمة سائغة للأوغاد، يجب أن نتحرّك نحو حريتنا مهما كلفتنا المحاولة من تضحيات.

ليخاطبه أحدهم معترضًا:

- أتريد المخاطرة؟ فالكثيرون منّا لا يستطيعون فعل ذلك، لنا أولاد ونساء نخاف عليهم من بطش الجنود.

ردّ غاضبًا:

- أنا فقدتُ أمّي، وهذا يكفي، ولستُ مستعدا لأن أفقد ثانية نفسي وأخي.

أيّده البعض وقد التفتوا إلى بعضهم البعض، يهزّون رؤوسهم تأييدا لكلامه، عزموا على البحث عن سبل الفرار الممكنة، يفتشون عن الثغرات التي يمكن من خلالها التسلّل إلى العالم الخارجي، يعرفون أنهم يحملون أكفانهم على أكتافهم، كما حدث لمن حاول قبل ذلك، إذ أردته رصاصات قاتلة اخترقت ظهره، ثم نُكّل بعائلته كلّها وأصحابه المشتبه في تعاونهم معه، أمّا الذي نجح في الهروب من المعتقل، فقد ذاق طعم الحرية المرّ، فعاش كجرذٍ منبوذٍ يختبئ بين قنوات الصرف الصحي أو المزابل، حتى أصيب بمرضٍ لعينٍ فيجدونه جثّة نتنة بين الأنقاض والأوساخ قد قضمت الحيوانات المتوحشة شيئا من أجزاءها، أما أحسنهم حالا وأوفرهم حظا، هو الذي استطاع تزوير هويته وعاش بهويّة غيره متنكرا، بعيدا عن أنظار من يعرفونه، لكن في حالة ما إذا إكتشف أمره من الأهالي، فيجري إعدامه فورا، والنادر جدا مَن نال استعطاف بعض السكان في الأرياف استعطافا زائفا، ينتهي بتسليمه إلى السلطات تعبيرا عن وطنيتهم، وطمعا في عطايا الجيش، ودليل ولاءٍ للأمة العريقة النسل والنقيّة الدم.

كل هذه القصص لم تثنِ من عزم أديسون في المضي نحو رسم خطّته، ولم يصدّه اعتراض دافيد عن المضي فيها، هذا الأخير الذي يطمع في ظهور هوس قريبًا لكي يفي بوعده.

قال له دافيد محاولا إقناعه:

- عليك بالصبر قليلا، سيخلّصنا هوس من هذا الوضع، لقد وعدني.

أجاب أديسون مستهزأ:

- هل صدّقته؟

- كيف لا أصدّقه، كان يمكنه أن يعرّضنا للتعذيب أو يساوم بحياتنا مقابل الذهب، وهو غير مجبر على التفاوض معي، وهو كذلك يحبّ أمي، وهو في موقف قوّة، يستطيع أن يفعل ما يريد بنا.

ردّ غاضبًا:

- على أية حالٍ، سيفجر رأسينا حالما يصل الى ما يصبو اليه.

لم يصلا إلى رأي واحد، قرّر دافيد انتظار الأمل على يد هوس، وقرّر أديسون أن يحشد أنصاره في سريّة تامة، مستغلا بعض التسهيلات التي إستفاد منها بتوصيّة من هوس، يفكّر في كل لحظة من أجل الفرار من هذا الجحيم، لكن فجأةً وفي صباح باكر أمر قائد المعتقل بتجميع كل السجناء من أجل ترحليهم إلى معتقل جديد، يُدعى معتقل أوشفيتز ببولندا، لكن لا أحد يعلم تفاصيل الترحيل، غير أنهم يعلمون أن كل ما في الامر أن كلّ المعتقلين سيُجمعون في غضون ساعات نحو محطّات القطار بإستعمال الشاحنات وسيرًا على الأقدام، كان الترحيل مباغتًا للعازمين على الهرب، فأُجّل عليهم موعد الهروب إلى فرصة أخرى، إذ اشتدتْ المراقبة لحدود المعتقل ولتنقّلات المعتقلين.

اصطف الناس بمحاذاة المحطّة، بعد تنقلهم إلى عربات كثيرة متسلسلة للقطار، جعلت منه قطارا طويلا جدا، ورغم ذلك الطول لم تستوعب العربات الكمّ الهائل من الناس، غير أنهم أدخلوا المعتقلين إليه بالقوة؛ وهي عرباتٌ مختلفة الإستخدام؛ منها ما هو مخصّص للحيوانات ومازالت فضلاتها الجديدة اللّزجة ملتصقة في الأرضية، يميل لونها إلى السواد والإخضرار الشديد، مع رائحة نتنة تزكم الأنوف، نتيجة حالة متقدّمة من العفن، ومنها ما هو مخصّص لمختلف البضائع، وكلّ عربة من القطار تحمل ضعف طاقة إستيعابها من الأشخاص، يتراصّ النساء

والأطفال وسطها مع ارتفاع بكاءهم وامتعاضهم، لا يعرف أحد مقصدهم التالي، غير أن بعضهم يتفاءل بأنهم سيطلق سراحهم، أو أنهم سيحوّلون إلى معتقل آخر أفضل حالا، ولكن لا أحد يعلم أنهم متّجهون إلى بوابة جهنم في حدّ ذاتها الموجودة في أطراف بولندا، كانت تقدّم لهم وجبة في كل محطة يتوقفون فيها؛ وجبة واحدة لا تسدّ الجوع، ظلّ أديسون خلال الترحيل ينظر إلى كل من حوله بعينيه الثاقبتين يتربّص ويتحيّن أيّ فرصةٍ للهروب ممكنة، غير آبهٍ برصاصة ما تطعنه في الظهر.

كان يفترش الأرض في عربة تبدو أفضل من غيرها، مع رفقة من السجناء المحظوظين، وقبل أن تنطلق الرحلة خُيّر بين البقاء والمغادرة، إلا أنه إختار المغادرة بدون اخيه.

قبل أن يصل القطار إلى المحطة الأخيرة، سينطلق بعدها الجميع في مسيرة الموت التي سيتفاجئ بها الكل، لأن الجنود لقنوا بأن يتخلّصوا ممّن لا يقدر على المسير خلال رحلة طويلة تُقدّر بعشرات الأميال، وسيبقى الأقوياء أحياءً لإستغلالهم في الأعمال الشاقة.

أثناء الرحلة تَلْتِهم الأرض أجساد المرضى والعجزة، يتأمّل الناس في الأرض قائلين في انفسهم سرًا:

- ما أعظمها من أرض.. متيّقنون أنها مصيرنا المحتوم!

خلال الرحلة في القطار كان أديسون يجلس قرب باب العربة متأهبًا للهروب؛ إذ الباب عبارة عن دفّتين من حديد تلتئمان انزلاقا عند الإغلاق، وتبتعدان عند الفتح، قبل الإنطلاق ألصقوا الدفّتين وربطا قبضتهما بسلسلة حديدية خارجية ذات قفل صدأ، كانت حركة القطار تؤرِّجح المسافرين يمينا وشمالا، مع ضجيجٍ مدوّيٍ يملأ مسار سكّة الحديد، تصفّر صفارة الإنطلاق مُعلنة بداية الرحلة، يضع أديسون يده

على المقبض الداخلي، يبدأ محاولة رحلة الهرب السرّية، يتكأ عليه بكل ثقله، يقوم بشدّه بقوة كل مرة طيلة الرحلة، دون أن ينتبه له أحد، لكون الإهتزاز يحرك كلّ شيء في العربة، وأغلب المعتقلين مستسلمين للنوم، حتى أظلم الليل واستمر الشدّ طول الطريق وبدأ لسان القفل ينسل بفعل الشدّ شيئا فشيئا، كان لا يريد أن يخبر أيّ شخص لكي يساعده، فهو لا يريد المخاطرة، خوفًا أن يشي به أحد، حتى ولو كان شخصا أيّده في تفكيره ومسعاه، فهو لا يلتفت لأحد، وقبل أن يصل القطار إلى محطته الأخيرة بمسافة طويلة إنسل كل لسان القفل من مكانه، وبحركة سريعة فتح جزئي الباب وقفز من القطار دون أن يلتفت أو يرى ما الذي قد يستقبله على الأرض، ولحسن حظه وجد نفسه بين أحراش مرتفعة حمته من طلقات الجنود الموجودين على سقف القطار، كانت طلقاتهم متسلسلة في اتجاهه، لكن اندفاعه السريع لم يمكّن أحدا من إصابته إصابة قاتلة، سوى طلقة سلخت كتفه، لم تؤثّر في ثنْيه على إكمال هروبه بين الأحراش ركضا بعد أن تدحرج بعيدا عن السكة، تاركا مَنْ في العربة بين متردّدٍ وخائفٍ من الهروب، غير أنهم لم يتمكنوا من إيقاف القطار من أجل شخص واحد أو حتى عدة أشخاص، فإفراغ مخزن البنادق في إتجاهه كافية لقتله أو الإحساس بأنه إما مُصابٌ على وشك الموت أو ميّت جوعًا أو مرضًا في البرية، أو تأكله وحوش البريّة ليلاً، ثم وجّه الجنود فوّهات بنادقهم نحو باب العربة المفتوح، وبدأوا بطلق النيران حتى لا يخرج سجينٌ آخر، فتراجع كل مَن فيها إلى الوراء تفاديا الإصابة.

كان القفز بداية الهرب وليس نهايته، فالعسكريون النازيون يُحاصرون كل مداخل ومخارج المدن، ويعينهم الأهالي في التبليغ عن كل مشتبه به. هرب بدون أي شيء ثمين يمكن أن يقايض به الطعام، حتى

القلادة الذهبية التي أعطته إياها أمّه قد فقدها في المعتقل نتيجة تهوّره، ولحسن حظه فإن دافيد تدخّل في الوقت المناسب وإحتفظ بها دون أن ينتبه له الجندي، وإمتنع بعدها أن يعيدها إلى أخيه كونه أحقّ بها منه، لأن أديسون أوشك على تضييعيها.

كانت وصية آنـّا هي الاعتناء بالقلادة جيدا، فهي التي تذكّرها بصديقتها العزيزة كريستينا.

تتذكّر آنّا عندما قُبِض عليهم في الحاجز الأمني لأول مرة، شعرت بأنها بداية النهاية لها، لم يكن فرارها سريعا، وكان لهيب الحرب أسرع منها، وصورها انتشرت في مكاتب الجيستابو، ارتعبت لوصول أخويّ صديقتها المغدورة كريستينا اليها والظفر بها بعد سنوات من البحث.

رغبا أخوي كريستينا أن لا يقتلاها ببساطة، بل أرادا قتلا مناسبا، مناسبا للغدر الذي تعرّضت له أختهما المعاقة من صديقة وضعت ثقتها فيها، من طبيبة اعتنت بابنها ثم نالت قتلا فضيعا وتشويها، كان يريدان قتلها أكثر من مرة دون ازهاق روحها، وضعاها في قبو البيت، مقيدة على أحد اساسات القبو، يجلسان على كراسيهما، بينما هي تفترش الأرض، ينظران اليها وقد قدما لها الأكل ككل صباح، يريد أن يذيقاها الحياة حتى تتذوق الموت.

يمكن للإنسان أن يُقبل على الموت عندما يتجرّع الجوع والعطش فيشعر أن الموت منفذه الأنسب، فالمستمتع بالملذات يكون أشدّ تمسكا بالحياة وأشدّ كُرهًا لفراقها، لذلك فالفقراء لا يعبئون بالموت، ويخشى الأثرياء الكلمة أو مشتقاتها.

بينما تجلس آنّـا مقيّدة اليدين، تكمّش رجليها في رعبٍ شديدٍ.

نظر اليها أحدهما، قائلا:

-ماذا نفعل بك الآن؟ قتْلُكِ يسير للغاية، كقتل خنزيرة في الخلاء.

صرخت في وجههما:

- أقتلاني إذًا، ماذا تنتظران؟

ابتسم ساخرا:

-لا، لا.. لن نقتلك، بل سنعذبك عذابا شديدا، سنقتلك أكثر من مرة، دون أن ننتزع روحك الشريرة بسهولة كما تريدين.

الروح الشريرة ذلك اللقب الذي كان يطلقه عليها زوجها الراحل الحاخام جوزيف، وكانت تردّ عليه بنفس اللقب، عندما إكتشفت عمله السري حين التقى بتيودور هرتزل في مؤتمر بال بسويسر في سنة 1897، من أجل انشاء وطن قومي جديد لليهود، علِمتْ أنه سيتبرع بماله لهذا الوطن في الصندوق الذي أُنشأ لهذا الغرض، والمؤسسات التي تعمل من أجل هذا المشروع العالمي، و قد أخبرها أنه سيضع أغلب ثروته هناك ويستثمرها في الأرض الموعودة، ويساهم في الصندوق مساهمة هائلة، رفضت فكرته، لكنه لم يعبأ بها، إذ المرأة ليس لها رأي يعتد بالنسبة له.

قال لها ذات شجارٍ معتادٍ:

- أنتنّ النساء سبب خروج آدم من الجنة، ولا يمكن الأخذ برأيكنّ.

ردّت عليه واصفة أخلاقه بأبشع الصفات، تذكره أنّها كانت المرأة التي تحمّلت معه الصعاب وأسوء الظروف. كانت كلّما سافر في مهمة الحلم اليهودي يأتي اليها العاشق هوس، دون أن يدري بأن صديقه يخونه مع زوجته، حتى طرأت الفكرة لها بالتخلّص من الزوج، والإستحواذ على كل الثروة وحدها.

أخفت خطتها عن هوس، لأنها لا تأمنه بأن يزجّ بها في السجن، استحوذت على ثروات زوجها، كما كانت تحتاج لهذا العاشق لمكانته

العسكرية المرموقة وحمايتها من المساءلة والتحقيق، كما لا تريد أن تثير مخاوفه منها، وكذلك لمكانة جوزيف بين أوساط المدينة، يُعرف أنه يشرف على كنيس يهودي، يقرأ على روّادها آيات التلمود، يلقنهم تعاليمه وما حقّ الربّ عليهم إتجاه دولة إسرائيل الموعودة، يشحذ همم الأثرياء من أجل بذل مالهم لهذا الهدف العظيم، ولم ينس البسطاء أن يتجّهزوا للتوجّه بكل ما لديهم نحوها، يُنسّق الجهود مع حاخامات المشتتين في العالم، لكي تتظافر جهودهم نحو هجرات لا تتوقف تجعل دولة اسرائيل حقيقة لا وهم.

عندما قتلت آنـّا جوزيف أخبرت المحققين أن القتلى قد يكونوا فلسطينيين أو عرب، تسلّلوا إليه تربّصوا به وسمّموه إعتراضا على عزمه طردهم من بلادهم ومشاركته في مؤتمر بال.

كانت ذلك في ليلة شتوية باردة جدا، عندما سمّمت آنّـا شرابه الساخن الذي يطلبه دائما قبل النوم، قدّمت له الشراب، فارتشفه كلّه حتى إرتوى منه، لم يدم الأمر طويلا حتى انقطعت أنفاسه بعد أنْ شعر أنَ أحشاءه تتمزّق بالسكاكين، بعدها أقامت له نعيًا يليق به، حينما وُرِي التراب في قبره، ظلّتْ تستند على قبره ليال طويلة رغم البرد القارس ملتفةً بلباس غليظ، مُدعيّة الحزن عليه، لكنّها كانت ليلا تدسّ ثرواته في القبر المقابل، عندما سألها هوس عن سبب نومها المتكرّر في القبر، أخبرته أن النوم مع الموتى يطيل في العمر، شكّ أنها قد تكون هي القاتلة، مع أنها أظهرت حزنًا شديدا على فقدانها زوجها، الحزن الذي لم يُقنعه، مع ذلك أشعره الأمر بالإرتياح، كان غياب زوجها الأبدي فرصة لكي يستفرد بعشيقته.

صارت آنّــا تحت رحمة الوحشين، إذ كانا يتناوبان على إغتصابها كل ليلة، بعد أن تم تقُييدها مستلقية على الأرض، حتى لا تتمكّن من الحركة والمقاومة، غير آبهين بصراخها، يخبرانها أن الصراخ في الحرب لا يُسمع، وأنها لا تستحق الرحمة لأنها لم تكن تسمع صراخ كريستينا التي كانت تختنق بين يديها.

أنهيا حياتها بحجزها في غرفة محكمة الإغلاق، ودفعا فيها أدخنة سامة، فماتت مختنقة، ثم أُحرِقت، وأُلقيت ككومة لحم تعلو جثث أخرى في جنح الليل، اختلطت بركام من التراب والأحجار، في مكان خلاءٍ لا يكترث فيه أحدٌ بالجثث.

انتهت الحرب العظمى الثانية..

اختفى اديسون واختفى هوس، قيل أن هوس هرب من أيدي الأعداء حتى لا يقع في الأسْر، كما شاع خبر في وسائل الاعلام هروب هتلر وإنتحاره بعد ذلك، غير أن عدم العثور على جثة هوس يفتح كل الإحتمالات، يكون فرز الجثث بعد الحرب على قدم وساق وهو ليس بالأمر الهيّن، ليس لكثرتها فقط، ولكن قد تكون الجثث قطعًا صغيرة لا ملامح لها، أو غبار من رماد ذرّه الريح، قد تكون جثثا بدون رؤوس أو أنصاف جثث؛ كذراع بدون جذع أو جذع بدون أطراف، أو وجوه مشوّهة الملامح، ما بقي من أحياء صار بدون أرواح، والقلوب التي كتب لها الحياة صارت بين حاقدة على كل شيء أو يائسة من كل شيء. بالنسبة لكل فارِ الوقوع في الأسْر أشدّ من طعم الموت، فيما البحث لايزال جارٍ عن الفارّين وعن أمثاله، كما يتوق المنتصرون المنتقمون في البحث عن الضبّاط النازيين وأعوانهم في كل أوروبا، بل في العالم كله، حتى يحاكمون محاكمات عسكرية، أو يُغتالون بدون أية محاكمة.

في ظل هذه الأحوال تعافت تجارة دافيد رويدا رويدا، بعد أن أُنقذ من القتل، التعافي من الدمار بسرعة أمرٌ يثير الشكوك، لذا فكّر ان إظهار الثراء الفاحش خطأ فادح، وعليه ببعض التأني الذكّي، لم يكتمل تسجيل الأحياء ولا الأموات بعدُ في السجلات المخصّصة، بالكاد يجد الناس قوت يومهم، غير أن مجرّد إنتهاء الحرب العالمية الثانية يجعل المرء يتنفس الصّعداء كما هو الحال لأغلب الناس.

بعد الحرب بأشهر نتأكّد بأنّنا أحياء، وأنّ العمر إمتدّ لفترات جديدة من الأمل، وأنّ الذين فقدناهم قد قضوا فعلا في حرب ضروس، لكن ذلك

ليس قطعيا في كل الأحوال، قد ينبت من القبر أحياء، وقد ينبت من أتربة الأرض كنزٌ من ذهب، كما نبت كنز في قبر مجهول أخبرت به آنّـــا ولديها قبل أن تفارقهما إلى الأبد، حين كانوا يرحّلون الى المعتقل، فكان الذهب من نصيب دافيد وحده.

تردّد دافيد على المقبرة التي يوجد بها قبر الأب، مدعيا حنيناً كبيرا له، توجّه نحو القبر المقابل المقصود، وجد العلامة التي أخبرته بها أمّه، إستخرجه في جنح الليل دون أن يثير إنتباه أحد، فتملّكُ ذلك الكنز وحده دون مزاحمة أخيه أو هوس يجعله يكون ثريا بدون أن يزعجه شريك، فقد إشترى بعد ذلك كثيرٍ من المحلات التجارية تدريجيًا، ليوهم من حوله أن ثراءه كان نتيجة تراكم أرباحه، بدأ بفتحها شيئا فشيئا، كما فتح الكنيس الذي كان الأب يشرف عليه، شعر بالأسى لمّا وجده قد نُهب كله وأحرقت محتوياته، لكنه استطاع تجميع بعض رواده القدامى الذين بقوا أحياء، لم يشأ أن يقوم بإصلاحه دفعة واحدة لكيلا يثير الشكوك، لذلك طلب من المؤمنين أن يستعيدوا قوة إيمانهم، وأن يتعاونوا في إصلاحه، كانوا يستمعون إليه، وهم بين متمتمٍ لا يستسيغ كلامه، وبين مشمئز ناقمٍ على أوضاعه؛ يردّدون كيف يبقون في وطن جرّدهم من وطنيّتهم، وإختلس أموالهم، وقتل أبنائَهم؟

قلوبُ كثيرٍ منهم تهفو إلى نداءات الدولة الجديدة إسرائيل، التي أُعلن عن تأسيسها منذ 1948، لكن حتى هذه الدولة مازالت غير مستقرة، رغم أن البريطانيين وفروا السلاح والحماية لليهود هناك، ومكّنوهم من الأرض والعرب، وإعترفت بهم أغلب الدول الكبرى، لقد وعدتهم إسرائيل بالجنسية الإسرائيلية ما أنْ تطأ أقدامهم أرضها، فهم ليسوا بحاجة لأعوام طويلة وتضحيّات في وطن ليس وطنهم كما فعلوا في

دولهم الأم، ففي إسرائيل تتضاعف ثرواتهم من اللّاشيء، ثم تشتدّ سلطتهم في أشهرٍ معدودة.

عندما كان دافيد يخطب فيهم، شعر أنّه يتكلّم مع أديسون، الذي كان يعارضه في البقاء في ألمانيا، ورأى أن الهجرة هي التي تجعلهم يزدادون ثراء، إلا أنّ دافيد يخالفه الرأي؛ رأى أن ما حدث لا يجعله يفكر في الهجرة، حتى خلال الأسر والتعذيب في المعتقل لم يغيّر رأيه.

تأكد أديسون أن أخاه يستفزّه، تذكّر حين صرخ في وجهه، واصفا إياه بالبلادة:

- أأنت غبي أم ماذا؟ ألا ترى التعذيب والتقتيل؟ تريد البقاء ذليلا في أوروبا.. تُهمَتُك الوحيدة أنك يهودي؟

يتجاهل دافيد شتائم أخيه وسبابه المتكرّر، يعلم أن الواقع مأسويٌّ جدا، لكن الذي يعرفه كذلك من كتاب التوراة بأن اليهود قدرهم هو الشتات في العالم، وليس التجمّع في أرض واحدة.

استمر أديسون في شتمه للتوراة، ينتفض صارخًا:

- توراتك التي كنت تقرأها محرّفة ومزوّرة، والذي تتلوه تبريرات للجبناء.

ردّ دافيد بسرعة:

- الجبانُ هو الذي يفرّ.

ابتسم مستهزأً:

- وهل وضعك الآن شجاعة، ألا ترى أنهم يركلون مؤخرتك البائسة كلّ يوم، دون أن تنبس بكلمة.

صمت دافيد، يعلم أن لا أحد سيتنازل عن رأيه، يقول في نفسه أن الأيام ستردّ عليه.

والآن أديسون في عالم المجهول، أو في عالم الموتى أو في الأرض التي طالما حلم بها...

أما الضابط هوس، فقد كان إختفاؤه هروبٌ من المسائلة والقتل، كل الضبّاط النازيون كانوا يقفون أمام القضاء، ليلقوا أحكاما بين الإعدام أو المؤبّد، والذي لم يحالفه الحظ يُعْدم في الشوارع، قد يكون مُتخفٍ بين الناس البسطاء دون أن يُكتشِف أمره، لأنه ربما قد غيّر ملامحه، في غبار المعارك الأخير تتشابه الوجوه، فقد ينتقل الأشخاص مئات الأميال إلى مدن بعيدة إبتعادا عن الذين يعرفونهم، وهناك من ذهبوا إلى دول أخرى في أقصى أمريكا الجنوبية خوفاً من الإنتقام، لكن تم العثور عليهم وإغتيالهم.

بعد تسع سنوات تعافت المدينة نوعا ما من آثار الحرب الدامية، وعادت الحياة إلى طبيعتها، لكن لم تعد ألمانيا موحّدة كما كانت، فيما أصبح دافيد حاخاما مرموقا كما كان أبوه الذي لا يتذكر شيئا عنه، سوى لمحات التقفها من أمه، ومن أصدقائه القلائل، كان يعرف أنه تاجر ثري، يجد إحتراما من البسطاء طمعا فيما عنده، وكذلك من الأثرياء حيث يتبادل معهم المنافع، إضافة إلى العسكريين الذين يشتري صداقاتهم كل يوم، لكنه مع ذلك لا يفوّت صلواته في الكنيس، يلقي خطابه أمام المؤمنين الباقين الصابرين على ما لاقوه، وعند نهاية صلواته، ينصرف الجميع إلى حياتهم بشحنات قليلة من آيات الصبر.

ذات يوم إنصرف كل المتواجدين إلى بيوتهم الا شخصٌ هرمٌ جدًا، بدا شيخًا نحيفا وطويلا جدا، كثّ اللحية والشوارب، يرتدي لباس أسودا تقليدي ديني، وقبعة سوداء كبيرة، يحمل نسخة من الكتاب المقدس، كما كل مرتاديه، يبدو يهوديا شديدُ التديّن، نظر اليه دافيد بتعجّب؛ عمّا

جعل الرجل ينتظر رغم نهاية الصلوات، ظنّه أحد الفقراء الذين يتسوّلون في آخر القدّاس، يعتقد أن ذلك استغلال لخطاباته المشجّعة، وتوصياته بأنْ يبني الناس حياتهم من جديد، إيمانا بأن النازية أصبحت في خبر كان.

اقترب دافيد من الشيخ الواقف بسكينة ووقار، يسأله بهدوء:

- مرحبا بك، سيّدي، بماذا أخدمك؟

أجابه بصوت خافتٍ:

- كلامك مطمئن أيها الحاخام المحترم، مُطمْئِنٌ جدا...لكن...

- لكن... ماذا؟

- ماذا عن النفوس المذنبة؟

- اعترافك بذنوبك يمنحك الخلاص منها.

- كلَّ الذنوب؟

- أجلْ، كلُّ الذنوب...

خفُت صوت الشيخ في كل مرة، ربّما يدلّ على مرضه أو مما عاناه خلال الحرب.

أضاف دافيد:

- رغم كل شيء، ستسكُن الطمأنينة قلوب المؤمنين قريبًا.

رفع بصره إليه، فظهر لدافيد فقدان عين الشيخ اليسرى، وقد رُكِّب في مكانها بؤبؤ عين صناعية، ثم قال الشيخ:

- لكن يا سيدي الحاخام، ما الذي يجعل الطمأنينة تخترق قلوبنا المحترقة.

تنهّد دافيد، كأنه يذكره بالآلام العميقة متعمدًا، ويجيبه بجهدٍ، كأنه ينتشل نفسه منها كذلك، قائلا:

- الإيمان يا سيدي، الإيمان هو البلسم الوحيد.

صمت الشيخ، ثم التفت حوله قبل أن يجيبه، اقترب منه، يريد أن يهمس له بهدوء:

- أو الذهب.. مثلا؟

انبهر دافيد من وقاحة هذا الشيخ، كيف يجرأُ على طلب مباشرٍ للذهب.

ردّ عليه بصوت عالٍ:

- ما هذه الوقاحة أيّها السيّد؟

كان يتوقع أن يكون الشيخ لبقٍ في طلبه، كأنْ يطلب العون بصورة غير مباشرة، فيقدم له الحاخام شيئا يسيرا من المال، كما فعل مع الكثيرين، لكن أن يطلب الذهب دون خجل، فهذا ما أثار حفيظته، فأضاف غاضبًا:

- منْ أنت حتى تطلب منّي الذهب؟ أأنت شريكي مثلا؟

الكلمة التي كان ينتظرها الشيخ ذكرها دافيد، ليجيبه بسرعة هائلة، وقد ارتفع صوته نوعا ما:

- هذه الكلمة التي انتظرها منك، نعم، نعم... أنا شريكك.

تعجّب دافيد:

- شريكي؟! أنا؟ أأنت مجنون؟ مَنْ أنتَ أيها الغريب؟

صمتْ قليلا، ثم همس له، وقد وضع عن رأسه القبعة:

أنا هوس...!!

تراجع خطوات إلى الوراء، وهو يتفحّص بالتدقيق في ملامحه ليتأكّد من وجهه:

- أأنت هوس؟ألم تمتْ أو لم تُقتل؟

- أكنتَ تريد ذلك، وأنا الذي أنقذتك من الموت؟

عمّ الصمت، ثم ردّ عليه:

أنقذتني وقتلت أمي وأخي وكثيرا من اليهود...!

أنا لم أقتلهم، إنما كنت أنفذ الأوامر فقط، تعلم أني أحبّ أمّك لم أكن لأؤذيها أبدا، لقد آذتني هي كثيرا، لكنّي أنا لم أؤذها يوما رغم قدرتي على ذلك.. أنا الآن مطاردٌ من القضاء العسكري، وأريدك أن تساعدني.. لقد تهوّدتُ وندمتُ على كل أفعالي.

ابتسم دافيد ساخرا، وردّ:

- بهذه السهولة؟

- ألم تقل منذ قليل، أن الربَّ يقبل توبة المؤمنين.. أيها الحاخام المحترم.

- أنت.. لا، لا أظنّ.. لا أظنّ.

- أرجوك أيها الحاخام، أنا كذلك دفعت ضريبة الحرب، قُتلتْ كل عائلتي وفقدتُ كل أموالي، والآن أنا مطاردٌ في كل مكان.. المنتقمون يُعدمون كل نازي سواء ثَبُتْ ضلوعه في الجرائم أو لم يثبت.

- تعلم الآن أني أستطيع أن أصرخ لُيقْبض عليك، وقد تموت قبل أن تُنقل للمحاكمة.

- أعلم رجاحة عقلك، لذلك أتيتك، تذكّر رحمتي بك.

ردّ دافيد، صارخا:

- لم تكن رحمة مجانية، لقد كنتَ تريد المال والذهب.

- إهدأ أيها الحاخام، فقد كنت أستطيع أن أسلّط عليك أنواع العذاب حتى تنطق، لكن محبتي لأمك الشديدة جعلتني أشفق عليكم، فطرحت لك الفكرة بإحترام، مع أن ذلك قد عرّضني لخطر المسائلة، وربما

الإتهام بالخيانة لأني تعاملت معك برأفة، فأُسجن أو أُقتل معكم، معاملة لن تجدها مع شخص آخر يحمل الفكر النازي.

تنهّد دافيد، وهو لا يريد إطالة أمد الحوار أكثر من هذا الوقت، وقد يكتشف الأمر شخص آخر، فيعرض نفسه للخطر بتهمة التستّر على أحد النازيين، فقال:

- لنختصر الكلام، ماذا تريد منّي الآن؟

- لقد قلتُ لك ما أريده.

- بأيّ حقٍّ؟

ردّ هوس غاضبًا، بصوت أعلى من ذي قبل، وقد استل من تحت حزامه مسدسا، ووضعه على رأسه، راصّاً على أسنانه القليلة:

- أيها الحاخام الوغد.. لقد نفد صبري، أذكرك إذا نسيت؛ أن الثروة التي تملكها جاءت بالقتل، كانت أمك تقايض النساء مقابل الطعام والمؤونة التي أجذبها لها بالحُليّ والمجوهرات، لقد كانت تقتل كل امرأة أو رجل لا يعجبها، وترمي بجثثهم في أسفل الوادي، لقد كوّنت ثروتها بحمايتي ومساعدتي، وعندما طلبتُ منها حصتي كما إتفقنا في أول يوم، هربت منّي، ثم إختفت عن الأنظار..

صمتْ قليلا، ثم أردف:

- سأختفي الآن، وفي المرة القادمة سآتي لآخذ نصيبي منك، وإلا فإنك ستكون آخر يهودي أحشر في رأسه هذا المسدس.

شعر دافيد بالخوف من تهديده، بدا قويا رغم تقدمه في العمر، السلاح يستجيب مهما كان عمر ماسكه، فردّ:

- حسنا.. حسنًا، لا تغضب، سأجذب لك نصيبك من الذهب، لكنّك تعلم أنّي لا أحمل معي شيئا.

أجاب ومازال يضع المسدس على رأسه:

- سأتي مرة أخرى، وإياك أن تتلاعب بي وتبلّغ الشرطة عنّي، لأنّي سأقتلك دون أن تستطيع أن تحمي نفسك منّي مهما فعلت، سآتيك في الوقت الذي ستنساني فيه، والمكان الذي لا تتوقعني فيه.. وبالشكل الذي لا تعرفه..

صمت قليلاً، ثم أضاف:

- إيّاك أن تتلاعب بي.. إياك..

ظلت كلماته ترنّ في أذنيّ دافيد رغم مغادرته له، بأنه سيأتي في يومٍ آخرٍ، ولم يحدّد له ذلك اليوم، وفي مكان لم يحدّده كذلك، لأنّ هوس لا يريد أن يقع في فخ الشرطة، ربما سيُحمّل كل الجرائم التي اقترفه النازيون تحت مسؤوليته، ثم نجح في الإختفاء سريعا.

لا يدري دافيد أين سيظهر له هذا النازي الأخير مرة اخرى، ولا متى يطالبه بحصته، وعلى أي شكل سيأتيه. فكّر؛ أن التبليغ عليه لن يفيد في شيء، بل قد يشجّعه على قتله وسط جمع مزدحم من الناس. أما إعطائه حصة من الذهب، شيء لا يمكن تخيّله مطلّقا، و الكلام الذي قاله عن أمه آنـــا لا يعنيه، ففي الحرب يتساوى الناس ليصيروا كلهم مجرمين بلا إستثناء، يعتقد جازما أنه لا يوجد في الحرب أبرياء، لو لم تفعل ما فعلت لقُتِلوا جميعا، وهو الآن حيّ بفضل شجاعة وحكمة أمّه، وفوق ذلك هو ثريّ، الأحرى به أن يضع على قبرها كل سبت ورودا عرفانا بجميلها، غير أن قبرها غير موجود، إذ اندثرت وسط غبار الحرب الخانق، الغبار الذي مازال يغطى السّماء، يمنع عنها الصفاء، يسوّد لونها، يخنق الصدور، ويضيق الأنفاس..

كلما زاد مدّة غياب هوس عنه زاد احتمال مقتله، لقد تمنّى لو أن المنتقمين اكتشفوا أمره فأراحوه منه؛ المنتقمون مجموعة سرية تتكوّن من اليهود تطبّق قانونها بطريقتها الخاصة، تقتصّ من النازيين الذين فرّوا من القضاء والعقاب، تجوب العالم بحثا عنهم، جابت كل قارات العالم، تحاول أن تشمّ رائحتهم اينما كانوا، ثم تقتلهم بمحاكمة خاصة إن استطاعت خطفهم، أو بدون لائحة إتهام عندما تغتالهم خلسة بين الأزقة والشوارع ووسط الأسواق.

قام ضباطٌ النازيون بتغيير هويّاتهم، محاولين قدر الإمكان تغيير ملامحهم وعناوينهم، يغوصون في الأحياء العميقة في أنحاء المدن أو في مزارعها، أو في المدن المكتظة حيث لا يوجد مَن يبحث عنهم، مبتعدين عن أعين المنتقمين وجواسيسهم، لكن هوس ظلّ في قلب المانيا، خدعةً منه للمنتقمين، ففي حين يتوقعون أنه هرب بعيدا، فهو يقبع خلف جدرانهم متنكرا في هوية جديدة ومغيرا ملامحه، لا يتوانى في قتل كل من يشكّ فيه، ثم يرميه في ركن من الأركان، القتل الذي يحدث يوميا كان متوقعا في نهاية كل حرب، الإنتقام الفوضوي من الخونة والمتعاونين، استغلال فرصة الفوضى للنهب والسرقة والإغتصاب، لا يمكن التحكم فيه بسهولة، لذلك فدافيد لا يتشجّع في التبليغ عن هوس، ولا يمكنه الإختفاء عن شخص يراقبه مختفٍ هو كذلك. فكّر ان الحل الوحيد هو في قتله والتخلّص منه، كما يفعل كل شخص الآن، فكلّ شخص هو نفسه القاضي الذي يفصل في قضيته، وحده بقانونه الخاص، وهو رجل الأمن الذي يجب أن يدافع عن نفسه كما فعلت أمّه.

❖

مرّت أسابيع دون أن يظهر هوس، وكلما مرّ يوم على دافيد شعر أن ذلك النازي قد قُضي عليه في مكان ما، لكن لن يهدأ حتى يجد اسمه من

بين القتلى، بل جثته بين القتلى، ولن يفارقه مسدسه المحشو بالرصاص خاصرته؛ سواء في قُدّاسه، أو محلّاته، أو بيته، أو خلال كل تنقلاته مهما كانت قصيرة، حتى في دخوله إلى الخلاء لا يفارقه.

وفي يوم من الأيام أثناء تصريف أحد عمّاله في محلّ مجوهراته، عندما خرج العامل من المحل، وكان دافيد يهمّ بإغلاق المحل حتى دفعه رجل ضخمٌ ملثمٌ يمنعه من ذلك حتى سقط أرضا، همّ بإخراج مسدسه من خاصرته، مُنكرا على أن يكون هذا هوس، لأنّ هذا الرجل ضخمٌ، لكنّه قد يكون أحد رجاله، أو قد يكون لصٌ ما، يركل الرجل المسدس بعيدا عنه قبل أن يتمكّن من التقاطه، ثم يوجهه في وجهه.

صرخ دافيد غاضبًا:

- مَن أنت؟ ماذا تريد؟

- إهدأ.. إهدأ.

تراجع الملثم خطوات إلى الوراء ليغلق الباب ويُحكِم إقفاله، وهو يوجّه مسدسه إليه يراقبه، وسط تعجّبه الشديد:

- مَنْ أنتَ؟ ماذا تريد؟

- لا تصرخ، وإلاّ قتلتك.

شعر دافيد أن هذا الصوت ليس غريبا عن مسمعه، جلس الرجل الملثم على كرسي داخل المحلّ، وقد رفع المسدس المُلقى من الأرض، ووضع كلا المسدسين جانبا، ثم نزع عن وجهه اللثام حتى ظهر وجهه كاملا أمام، فإذا به يرى وجهًا يعرفه، يقوم من مكانه، يحاول أن يدقّق في هذا الوجه المألوف؛ فيكتشف أنه ليس هوس، ولا أحد رجاله.

فقال مبتسمًا عندما عرفه:

- أديسون.. أنت أديسون.. أليس كذلك؟

- نعم، أنا أديسون أيها الحاخام دافيد.

قام دافيد بمعانقته، يضمّه إليه بحرارة، وهو يقول:

- أنت حيّ.. أنت حيّ.. الحمد لله، كنتُ أظنّك ميّت...؟

قبل بداية 1940..

كانت قصة طويلة ليحكيه أديسون لأخيه، الفرار من مسيرة الموت ومن القطار المؤدي إلى القتل، لم يكن آخر الصعوبات، فالموت كان يرتدي ألبسة أخرى يتربص به في كل جهة، وقتل شخص ما ضرورة لإنتحال شخصيته بعد ذلك في مكان آخر، وإدّعاء دين غير اليهودية حتى ولم تكن مُطبقا لتعاليمه، ضرورة ملحة، ستنسى كل شيء يدل على أنك يهودي حتى لا تسلم ثانية إلى الجيش الألماني.

ظلّ فترة شهور طويلة تحت جسر قديم على مشارف قرية بائسة وسط الغابات، استعمل ما يُعرف من أعشاب البرية للئم جراحه، وفي سبيل البقاء على الحياة؛ كان محظوظا عندما قبض على جدْيٍ وانقض عليه من مجموعة أغنام خلسة، خفية عن الراعي الذي نادرا ما كان يجوب المكان دون كلبه، وضع اديسون رأس الجدْي بين قدميه، أحكم قبضة يديه على رأسه، ثم لوى رقبته حتى طقطقها وتوقفت حركة الجدي مخرجا لسانه من فمه، حتى صار صريعا بين ذراعيه، ثم أجهز عليه بسكين صنعه من مخلفات الحديد الملقى في أنحاء الغابة، تيقّن أنه لتعيش يجب أن تقتل بشراسة، حتى أن الجدْي لم يتمكّن من الصياح كثيرًا، كما لم يتفطّن الراعي من فقدانه الجدي. عاد الراعي في اليوم الموالي مع ابنه وكلبه، يحمل بندقيته بغضب، يبحث عن الجدي المفقود، معتقدا أن وحشا من وحوش البرية سببًا في إختفاءه، ولكن أديسون كان قد إبتعد عن المكان كوحش بريٍ هائم لا يرحم ولا يتوقع أن يرحمه أحد، توقع

قدوم الراعي الغاضب باحثا عن جديه، إعتلى أديسون أحد الأشجار متخفيًا وهو يحمل جزءً من فريسته المهشمة، يقتات عليها كل ليلة مثله مثل الوحوش، ظلّ الكلب ينبح يحاول التقدم إلى حيث رائحة بعيدة جدا للحم طريّ، يفوح على مسافة كبيرة، تقدم الراعي مع الكلب وابنه فوجدا أجزاء من فريسة الجدي، تأكدا أن لا أمل في العثور على الوحش الهارب، وقد بدأ المساء يُسدل ظلمته، فلا يعلم ماذا سيجدا إن ابتعد كثيرا عن القرية، ربما سيفقد الرجل الكلب وابنه، ففقدان الجدْي ليس بالخسارة الكبرى، غير أنه ليس بالأمر الهيّن كذلك.

مرت ليالي طويلة عليه يختبئ في كل مكان ليلاً، ينهش اللحم بعد أن ينضجه على نار صغيرة، ثم يشرب الماء من الوادي الذي ينساب تحت الجسر الصغير، يتملّكه الخوف من تمشيط للجيش الألماني عن الهاربين من مسيرة الموت أو المعتقلات التي تفقد بعض السجناء دون علمهم، أو برشوة بعض الحراس.

تجول في النهار باحثا عن القرية التي أتى منها الراعي، حتى إقترب منها، ليجدها أنها محاذية للغابة، يتربّص بحركات ساكنيها، يجس نبض المكان، يحاول ان يستفيد بأي شيء يمكّنه من الهروب إلى حيث لا يوجد أي نازي مقيت، بين الأحراش الكثيفة يسمع من بعيد الكلب كثير النباح، فيبتعد عن مصدر صوته، يقترب من جهة أخرى في القرية، فيعثر على ثياب معلقة أمام أحد الأكواخ، فسرق ما يحتاجه، عندما شعر بالإطمئنان بأن لا أحد انتبه لوجوده، صار يقتحم كوخًا ليقتني شيئا من الطعام قد يجده، ليقتات منه، ثم يعود لكي يختبئ بين الأحراش والأشجار من جديد، لاحظ تحركات سكان القرية البائسين، فإكتشف أن أغلبهم نساء في مختلف الأعمار، ولم ير أيّ رجل بينهن سوى الراعي الشيخ وابنه

الصغير، تأكّد أنّ الراعي يتحكّم في مجريات الأمور في القرية، إطمأنت نفسه لِما يراه فيها من سكينة، انتبه إلى بيت في تخومها، عندما شاهد امرأة وحيدة تخرج كل يوم وحدها نحو وسط القرية ثم تعود مرة أخرى، قام بإقتحام منزلها مرة ليأخذ منها بعض الطعام، دون أن يأخذ الكثير منه، أملاً في ألا تكتشف ذلك، وكان عندما يخرج من كوخها قبل أن تعود، يلاحظ أنها لا تُحدث أي جلبة أو تخرج فزعةً، دليل بالنسبة له على أنها لم تكشف أن شخصا ما قد تلصص عليها، أو أنها لجأت إلى الراعي لكي يساعدها؛ الراعي هو الرجل الوحيد الذي لم يبق هناك سواه، فكل الرجال قد أخذوا إلى ساحات الحرب برغبتهم أو عنوة.

إطمئن لعدم انتباهها في مرات عديدة، فكرّر الأمر أكثر من مرة.

ذات يوم تقدّم إلى كوخ المرأة بعد أن ابتعدت هي عنه كالعادة، ولج من الباب متسللاً إلى داخله، إتجه إلى المطبخ يبحث تحت المائدة وبين الأواني، في نفس المكان الذي عثر فيه المرة الأولى على الأكل، لكنه هذه المرة لم يجد شيئا، كان يشم باحثا عن رائحة الأكل ككلب يتضوّر جوعًا أو كفأرٍ كوخ متلصّص، حتى سمع صوت وقع خطى وراءه، فلمّا التفتْ وجد المرأة تقف وراءه حاملة بندقية توجّهها صوبه، و يمتلأ وجهها غضبًا.

قالت له بثقة:

- أتظنّني غبيّة أيها الفأر؟

بدت سيدة ثلاثينية جميلة، ناضجة الأنوثة، على محيّاها الوهن والتعب، لكن تغطيها هالة من الغضب الشديد، فسألته:

- مَنْ أنت؟

تلعثم في الجواب، ردّ عليها، وهو يرتجف من الجوع والبرد:

- أنا.. أنا.. اسمي ماك..

- من هذا ماك؟ كيف تجرؤ على إقتحام بيتي؟ أعلم أنك سرقتَ ملابس زوجي، وسرقت بعض الطعام.. من أنت؟ أخبرني؟

- أنا شخص هربت من الجيش، أرادوا أخذي بالقوة كما فعلوا برجالكم لكنّي هربت منهم، تركت زوجتي وأولادي وحدهم، وأنا مطارد في كل مكان.

عندما أخبرها بقصته المختصرة تذكرتْ؛ كيف أن الجيش قد أخذوا زوجها دون رغبته، ثم أخبروها بعد ذلك أنه قُتِل في ساحات المعركة، وبين تجنيده وقتله لم تمضِ فترة طويلة، بدأت تتأمّل فيه، شعرتْ أن زوجها قد عاد إليها، ظلت تفكّر دون ان تتكلم، لكنها لم تجب، صمتت كثيرا حتى أراد أن يتحرك تصرخ في وجهه:

- لا تتحركْ من مكانك.

تسمّر في مكانه، خاف أن تفجّر رأسه، وخاف في نفس الوقت أن تصرخ بقوة فيمسك به سكان القرية والراعي، ويقدمونه هدية للألمان، لتسأله:

- أأنت يهودي، أم شيوعي، أم متمرّد سياسي، أم ماذا...؟

- لا، لا.. لستُ أحد هؤلاء.

لم تصدّقه، أصبح الصدق عملة نادرة في الحرب، كل شيء محاطٌ بالكذب، قيّدته على كرسي يتكأ على الحائط، تحت تهديد السلاح، أحسّ بعد ذلك أن هذه المرأة تعاطفت معه عندما أبلغها قصة تشبه قصتها، ولمّا جنّ الليل أطعمته بعض الخبز وكوب من لبن العنزة التي فقدت جدْيها، رغم ذلك ظلّ متخوّفا منها متسائلاً؛ لماذا لا تطلق سراحه؟ أو لماذا لم تسلمه إلى الراعي أو إلى العساكر الذي يزورون القرية دوريا.

شعرت المرأة أن الرجل المقيّد الذي يدعي أن اسمه ماك في جعبته كثير من الحكايات، تنزع عنه اللثام الذي وضعته على فمه، ليسألها:

- لماذا تأسرينني؟ أتركيني اذهب، فأنا لم آتِ لأؤذيك، ما جلبني سوى الجوع والبرد.

أجابت؛ ومازالت البندقية لا تفارق يديها:

- أعلم ذلك، لأن الرجال عملة نادرة هنا.. أنتَ تتساءل؛ لماذا لم أسلّمك للجيش؟ أو لماذا لم أطلق سراحك؟

- نعم، لماذا؟

- كلها أمور يسيرة عليّ.. لكن هذا الجيش أخذ زوجي، كما أخذ أزواج البقيّة من النساء، لقد قتلوه عندما زجّوه في المعارك، وهو لا يعرف حتى الإمساك ببندقية صيد.

- لن أطلق سراحك كما لن أبلّغ عنك ما دمت هادئًا، وجودك معي هو المكان المناسب لك، كنتُ أغسل ثياب زوجي دون أن يكون بجانبي.

أحس أن هذه المرأة تتعاطف معه بشكل لم يتوقّعه، فردّ عليها:

- لكن لماذا تفعلين ذلك؟ ماذا لو اكتشفوا أمري؟

- لن يكتشفوا أمرك، إذا لم تخرج من الكوخ، وبقيت مطيعًا.

لم يكن يحلم بمثل هذه الصدفة؛ لإمرأةٍ تريده أن يبقى معها رجل غريب.

بعد أن إطمأن لها، وأحس أنها هي كذلك إطمأنّت له، فكّت قيوده، صار الكلام أكثر سلاما، وحميميا أدى إلى تبادل نظرات الإعجاب، كانت متلهّفة إلى أي رائحة لرجل في كامل قوته، وكان هو قد نسى جسم امرأة ممتلئة يكاد ينفجر أنوثة أمامه، بل إنه قد نسى شيء اسمه انثى، تطوّرت الأمور إلى أن وصل الأمر بهما إلى ممارسة الجنس، كان ذلك تعويضا عن

فقدان زوجها، وتعويضا له هو عن حرمان طويل من النساء، ربما هي تفعل ذلك انتقاما من الجيش الذي حرمها زوجها، لقد وجدت زوجا أتاها من السماء دون أن تطلبه، لكي يرفع عنها الملل والنوم وحيدة كل ليلة، أخبرته حقيقة أن اسمها ماريا اطمأنت أنه لن يغادر المكان، وإطمئن لها عندما كانت تعود بسرعة، كانت كل ثلاثة أيام تتوجّه صباحا نحو وسط الكوخ تجلب بعض المؤن من الراعي، وفي الليل تشتاق للمسات هذا الغريب الذي عوّضها زوجها الذي لن يعود. كانت نادرا ما تتردّد على الراعي، لاحظ أن عاداتها تغيّرت، وإنها تعود بسرعة إلى كوخها، وتغيب أحيانا عن المجيء، كما توقفت عن التحرش به والتجمع مع نساء القرية ليلا في سهرات سمر مشتركة، أثار ذلك شكوكه فيها، حتى قرّر أن يزورها في كوخها مدعيًا الإطمئنان عليها. ذات ظهيرة بعد أن أخذت حصتها من المؤن، أخبرها الراعي أنه اشتاق لها، وأنه سيلحقها فور ذهابها إلى كوخها، فأصابها الذعر، هرولتْ كغير عادتها نحوه، مما زاد شكوكه، بأنها تخفي شيئا ما، هرول وراءها كي يتمكّن من اللحاق بها قبل أن تصل، ولمّا اكتشفت أنه يتبعها مسرعا، أسرعت أكثر دون أن تتمهّل، تلتفت وراءها، تتمنّى أن يغير الراعي مسلكه، كانت تظن أنه يريد معاشرتها كما يفعل مع أي امرأة تعجبه، لقد تُرك كقائد للقرية لأنه شقيق لضابط مرموق في الجيش، وكانت شاحنة المؤن تأتيه إلى كوخه الكبير ثم يقوم هو بتوزيعها بالطريقة التي يريدها، وبالكمية التي يراها مناسبة، وكثيرا ما كانت تناسب عطاء النساء له من الجنس، إقتربت ماريا من محيط الكوخ، ولكي تنبّه أديسون الموجود داخل الكوخ، صارت تصرخ نحو الراعي الذي يقترب منها شيئا فشيئا:

- ماذا تريد منّي؟ ماذا تريد؟ أيها الراعي المزعج.

ردّ عليها ضاحكا:

- لقد اشتقت إليك يا ماريا، ألم تشتاقي أليّ؟

كـثرت الجلبـة حـول الكـوخ، فإنتبـه أديسـون لهـا، ليستكشـف الأصوات التي تتشابك في شبه شجار عنيف، فرأى أن الراعي يقترب من الكوخ وهو يعنّف في ماريا وهي تدفعه لكي يبتعد عنها، لكنها لم تستطع منعه من الإقتراب من الباب حتى إزدادت شكوكه في تمنّعها الذي لم يشهده قبل اليوم، وهي التي كانت تبحث عنه دائما قبل أي امرأة أخرى، ليخطف أديسون البندقية، ثم وقف وراء الباب متربصا ومتأهبًا.

اقتحم الراعي وماريا الكوخ، وهو يصرخ في وجهها:

- ما بكِ أيتها العاهرة؟

نظرت ماريا وراء الراعي، انتبه بأنها تشاهد شيئا وراءه، فإلتفت نحوه ليجد أديسون يحمل بندقية يوجهها إلى صدره، يحاول الراعي أن يمسك الباب لكي يدفعه في وجه أديسون حتى يستطيع أن يخرج من الكوخ، لكن أديسون يضغط على الزناد، فيرديه قتيلا، تنتفض ماريا في وجهه غاضبة مرتعبة:

- لماذا قتلته؟

- أتريدين تركه حيًا ليقتلني؟

- سيسـمع الجميـع ذلـك، ويبحثـون عنـه، إنـه عـين الجـيش هنـا، سيقتلون الجميع إن لم يجدوه، ويقتلوني كذلك.

- ولماذا علينا الإنتظار حتى يقتلوننا؟ لنهرب.

- إلى أين؟

- بعيدا عن هنا.. إلى أي مكان.

قبل أنّ يكتشف أمر قتل الراعي، كان أديسون وماريا قد أخذا ما يجب أخذه وخرجا من القرية في اللحظات الأولى لمقتله، تنقّلا بواسطة سيارة قديمة لزوجها السابق، كان لا يعرفا إلى أين يتجها، فكل الإتجاهات ممكنة، لكن الأهم هو الإبتعاد قدر الإمكان عن محيط هذه الغابة، أخبرته أن عليهما أن يتجهوا نحو باريس حيث تقيم أختها الكبرى هناك، وفي الطريق إتفقا على تغيير اسميهما إلى سميث ولوسي ليجتازا الحدود، إتخذا تخوم المدن وسلكوا طرقا ملتوية بينما الحرب على أشدّها، والنازيون يسدون كل الطرق، غادروا بعد أن دفنوا جثة الراعي في أطراف الغابة على جانب الطريق حتى لا يكتشف سكان القرية مقتله إلا متأخرين، ليكونا قد ابتعدا عن القرية مسافات طويلة. بعد يومين كان ابنه مع كلبه؛ هما مَن عثرا على جثة الراعي مدفونة تحت التراب في اطراف الغابة، في مكان بعيد عن محيط القرية...

جريمة القتل خلال الحرب قد تصبح نوعًا من الترفيه عن النفس للبعض، ربّما تعلو الضحكات خلال إزهاق روح ما، يكون القتل في البدء ضرورة للأغلب، قد تُنفّذ عملية الإعدام بينماً تقطر العيون دموعا حارة، لكن مع مرور الوقت، ومع كثرة التقتيل، يصير الأمر معتادا جدا، تتحول الجريمة إلى لعبة قاسية، ولأنّه إمّا أن تكون قاتلا أو مقتولا، يصبح الجميع قتَلى إذا كانوا أحياء، معذورون في إرتكاب جرائمهم، ويكون الأبرياء مشروعو قتَلى أيضا، وكما الأطفال أشخاص يُمكن الفتك بهم، لأنهم هم يمكنهم كذلك الفتك بغيرهم.

ساد الرعب في كلّ البلاد، وسكن كذلك قلبيّ سميث ولوسي في اسمهما الجديدين، تضيع الهويّة من شدّة الخوف ويتلعثمان، لكنّهما مجبران على التحكّم في أعصابهما عندما يجتازا حاجزا للجيش الألماني مدججًا بالأسلحة، عندما يتكلّمان يحاولان أن يقتنيا ألفاظهما بعناية، بينما تُجيب لوسي بذكاء عن أسئلة الألمان المستفزّة، يختفي سميث وراء مبرّر المرض الجلدي المُعدي الذي تنامى على جلده، فيهابه كل من رآه، فقد ظهرت على وجهه البثور والثآليل وإحمرار مخيف عمّ كلّ جسده، كانت خطّة بارعة من لوسي تقتضي أن يبقى على ما هو عليه، ألاّ يتطبّب بالذي تعرفه من الأدوية، لكيلا يقترب منه أحد، ولا يزعجه أحد، حتى تمكّنه من إجتياز بطش العساكر المتواجدين في كل مكان، المحاصرين لكل مدينة وكل قرية.

مرّا ببطء شديد على الحاجز العسكري الذي تنتشر حوله جثثا مرمية، وفي جهة الأخرى منه أشخاص مقيّدون؛ نساء، وأطفالا، وشيوخا،

حيث الحظ لم يحالفهم لإجتياز الحدود، حتى الذين إجتازوها قد تسقط على رؤوسهم قذيفة ما، فتُشتّت أجسادهم أشلاء لا يكترث لهم احدا، لا تجد مَن يجمعها في تابوت.

كان الحاجز يعجّ بالمعدات العسكرية، وبالدبابات المزنجرة من كلا الجهتين، ورشاشات تعلو المركبات المدرّعة، إجتياز آخر الحدود هو الأمر الأكثر صعوبة لهما، الحاجز الذي إذا أتمّا إجتيازه كأنهما أضافا إلى حياتهما أبو عمرا جديدا. أشار إليهما العسكري بالتوقّف، غير أن التوقف هنا لا يستدعي الإشارة من أحد، فاجتياز الحاجز غير ممكن دون إشارة، وإشارة التوقف قد تكون وابلا من الرصاص ذو العيار الثقيل الذي يخترق أي سيارة ولو كانت مدرّعة.

توقفت ماريا، وهي ترسل إبتسامة عريضة للضابط، يُمعن هو بدوره النظر في أديسون حتّى يكتشف مرضه، فيتراجع إلى الوراء ليتجنّبه، وهو يصرخ في وجهه، ينعته بألقاب قبيحة، يخبره بأن عليه أن يموت بدل أن يكون حيًّا حتى لا يؤذي غيره، يأمره أن يتنحّى جانبًا، ليصبّ عليه وابلا من الرصاص، يقوم بدفع ماريا بعيدا عنه.

لكنّ ماريا تترجّى العسكري، وهي تقول له:

- أرجوك سيّدي، لا تقتله.. أرجوك.

دفعها مرة أخرى بعيدا عنه، تلحّ عليه:

- سيدي.. أرجوك، سأعطيك ما تشاء.

التفت إليها ساخرا:

- أتظنيني أستأذنك في أخذِ ما أريد.

عِلمتْ ما فكّر به، وضعت يديها بين ثدييها، واستخرجت له قلادة ذهبية ثمينة وخاتمين، قدمتهما للضابط، نظر إليها وقد أطلق إبتسامة

عريضة، ففكّر وهو ينظر إلى أديسون الواقف مطأطأ رأسه، قبض الضابط المجوهرات في يديه، ثم فتح قبضته مزهوا بما فيها.

ردّد في نفسه:

- ماذا افعل بهذا البائس المعدي، حتى وجوده جثة خطرا عليّ، ما دامت هذه المرأة قد قدمت لي هاته المجوهرات، فقد أشبعت غطرستي، أما عن معاشرتها فلا وقت لدي لذلك، لكن...

نظر إليها بخبث، وإلى اديسون بغضب، صار بين يديه الآن امرأة ذات قوامٍ جميل، وقطعا من الحليّ، يفكّر قائلا في نفسه؛ لا بأس ببعض المال مع الأوسمة التي توّج بها خلال الحرب نظير أعداد الأعداء الذين قتلهم، ما عدا هذا الموبوء الذي ينتظر الإجهاز عليه، يرمق إليه بإحتقار، بينما هو في تفكيره، يتخلل ذلك توسّلات متواصلة لماريا، تتصاعد توسلاتها، هي تعلم أن هذا الحاجز آخر عقبة قبل الحياة الجديدة التي تنشدها في باريس.

وضع فوّهة المسدس بين عيني أديسون مهددا إياه بالقتل، أصابهما الرعب بأنّه سيقتلهما ثم يرميهما إلى جانب الطريق، خاطبه صديقه الضابط ضاحكا من بعيد:

- دعهما أحياء لا حاجة لنا بجثثهما هنا، سنتعقبهما في باريس، ستكون مطاردة ممتعة.

التفت الضابط ضاحكا من كلام صديقه، رفع المسدس من على جبهة أديسون، ثم قال لهما بصوت قويّ مدويّ:

- أغربا عن وجهي وإلّا غيرتُ رأيّ.

ابتهج أديسون لهذا الطرد المرفق بالإهانة، لا يهم بالنسبة له أن يُهان، المهم ألاّ يُقتل، لم يُظهر ابتهاجه، وضعتْ ماريا يديه تحت إبطيه

تحثه على التقدم، تقوده نحو السيارة، مُضمرةً سعادة لا توصف لكونها تمكّنت من تجاوز الحدود وتجاوز الموت، ابتسمت مطأطأة رأسها دون أن تنظر في وجه العساكر، انطلقت بسيارتها كأنها تهرب من الموت، كان هروبا مؤقتا، ليس دائما ننجو من قبضته.

ابتعدت عن الحاجز رويدا رويدا، زادت من سرعة السيارة كلّما ابتعدت، حتى لا يغير الضابط رأيه، فيرسل قذيفة تفتتهما إلى أشلاء، وعندما تذكّرتْ أن الخطر قد زال أطلقت ضحكة قوية لم تطلقها منذ أن مات زوجها، لم تكن الضحكة نهاية للمآسي، تناست تهديد الضابطان، لا يمكن أن يكون هناك تهديد في الحرب، ولكن القتل هو الشيء الذي يسود، سيتلاشى التهديد الشخصي ويكون الإنتقام عاما، لكل شيء حيّ؛ أشخاصا، وحيوانات، ونباتات، بل مدنا بأكملها.

عندما وصلت ماريا إلى أختها الكبرى ليزا، أخبرتها؛ أن الألمان لا يتوقفون عن إلتهام أوروبا بما فيها فرنسا، الفرار من هتلر ليس سهلا، لكن بعض الإحساس الجميل ينتابهم، يجعلهم ينتبهون لشمس مشرقة فوق رؤوسهم، يتذكرها بعض الناس فيرفعوا أبصارهم خجلين لما يفعله الإنسان ببني جنسه، يبقى الدخان الأسود يتصاعد، وتظل الشمس تبعث في أشعتها على أرض حزينة، ويبقى صفاء السماء هو الطاغي على المكان، تحاول السماء عبثا إبراز جمال الكون لكنها تتلوث بالأدخنة، مِن قتل الناس لبعضهم البعض، الدخان المنبعث من قنابلهم، كل ذلك دون سبب وجيه، سوى تلبية لأمراض نفسية وأطماع إقتصادية وعقدٍ مرضية.

كيف يكون الدمار صادر من شخص مريض نفسيا، مهوسا إستطاع استنطاق المرضى في كل أنحاء العالم؟

وجدت ماريا أختها الكبرى التي تبلغ من العمر سبع وخمسين، كانت تقيم في نفس العنوان الذي كانت تراسها به، لمّا التقتها بدا على ملامحها حزن كبير بسبب التحاق ابنها بالجيش الفرنسي قصرًا؛ جيشٌ يستعدّ لأي خطر من الشمال، حيث تهديدات ألمانيا وزحفها نحو فرنسا، وغربا حيث إيطاليا تحت قيادة موسوليني الفاشي، هي لا تدري إلى أيّ جبهة أخذوا ابنها الوحيد. فالذي يذهب إلى الجيش يذوب اسمه في صفوفه، يصبح رقما من الأرقام، يزيد إذا إلتحق وينقص إذا قُتِل، حاولت الأم مرارا إخفاء ابنها، وحاول هو الهروب حتى لا يقبض عليه أمن الجيش، لكن في آخر المطاف قُبِض عليه واقتيد إلى ثكنات التدريب تحت وابل من الشتم والوصف بالجبن، وإتهام بالخيانة، لهذا أخبرت ليزا أختها أن الإختفاء في باريس ليس حلاً دائم النجاح، ففي أي لحظة قد يقتحم الجيش منزلها لإقتياديها إلى الحجز الذي ينتهي في أغلب الأحيان إلى موت، كل الذين يُؤسرون يقتربون منه، رأت ماريا أن لا حلّ سوى البقاء مع أختها رفقة أديسون المريض، الذي كانت تطبّبه بمفردها، بعد أيام بدأ يتعافى من مرضه، لكنه ظلّ بهويته الجديدة وهي سميث زوج ماريا، حاول أديسون أن يختبئ من أعين رجال الأمن الذين يجوبون المرافق العامة، يخطفون الذكور مهما كانت أعمارهم ويدفعونهم إلى الثكنات دون تمييز، إلا من أثبت أنه أعفي من ذلك لمرض خطير، أو شرط أوردته الحكومة الفرنسية، لا تريد ماريا أن يخطفوه كما خطفوا ابن أختها، أو كما خطفوا قبل ذلك زوجها في بولندا.

رغم كل الاحتياطات وقع أديسون في أسْر الجيش الفرنسي وهو معافى، أُدخل الثكنة ليس سجينا تحت التحقيق، ثم صار مُتدربًا، لكي يحارب نازيي ألمانيا المتربصين على الحدود، قبل أن يبدأ التدريب قام

المحقّقون الفرنسيون بجسّ نبضه، عن مدى رضاه لدخول الجيش الفرنسي، أخبرهم بمشاعر العداء التي يكنّها لهتلر والنازيين لما تسبّبوا له من مأساة، رغم أنه مواطن ألماني، لكن بعد أن قصّ عليهم بعض قصته التعيسة، وكدليل على أقواله أظهر للمحققين الرقم الموشوم على ذراعه، الرقم الذي لم يتمكّن من سلخه، قيل له أنه يجب أن يُعرّض ذلك المكان للحرق حتى لا يبقى أثره، لكن الأمر يتطلّب شجاعة لا يمتلكها.

شعر بالغضب في الأيام الأولى داخل مركز التدريب، لكنه اقتنع أن حمل السلاح في الحرب خيرٌ له من عدم حمله، يفكّر أنه لو كان قد حمله سابقا ربما لتغيّرت مجريات حياته ولكان استطاع أن يدافع عن نفسه، مع مرور الأيام والأشهر زاد حماسه للحرب وحماس مجابهة ألمانيا النازية التي قتلت أمّه، وشرّدتْ عائلته، وأضاعت أموال أبيه.

لم يمضِ وقت طويل حتى أظهر أديسون جديّة ملفتة وتفوّقا في التدريب داخل المركز، جعلت الضبّاط يقربونه إليهم شيئا فشيئا، حتى إرتقى في المناصب وأصبح ضابطا مرموقاً يشار إليه بالبنان رغم أن لكنته الألمانية ظاهرة في لغته الفرنسية الرديئة، إلا أنهم جعلوا ذلك نقطة إيجابية يمكن الإستفادة منها في الحرب مستقبلا بشكل من الأشكال.

بعد أن نال ثقتهم تمكّن من زيارة ماريا، لكنه لم يستطع معرفة أي معلومات مكان ابن أختها، سوى أنه قيل أنه اتجه مع كتائب عسكرية تدعم الفرنسيين في جبهة الجزائر.

تقدّم الألمان بدباباتهم نحو فرنسا كما كان الفرنسيون يخشون، فانقسموا بين مُستسلم لهذا الهجوم الكاسح، وآخر مؤيّد للمقاومة في سبيل وطنه، لكن كان القرار من رأس الحكومة رأى أنّه لا داعي لتدمير باريس، ولن تفيد المقاومة في التصدّي لشراسة هتلر وقوة عتاده، أربك

هذا القرار ضبّاط الجيش، وقع شجار حاد نتيجة إختلافهم حتى كاد تحوّل إلى قتال بينهم، يتهمون بعضهم البعض بالخيانة، ويدعي بعضهم الآخر الحكمة بحقن دماء الفرنسيين، لم ينتظر أديسون ان تتطوّر هذه الجدالات، التي قد تكون من نتائجها إعادة اعتقاله مجددا ووضعه تحت التراب، عندها سيكون تهديد الضابطان اللذين فلت من قبضتهما قد وفيا بوعيدهما، حزم أمتعته فارًا مع ماريا، دون أن ترافقهما ليزا، حاولت ماريا أن تقنعها بالرحيل معها خوفا عليها من الجيش الألماني ومعاونيه من الفرنسيين، لكن أختها رفضت الخروج من منزلها، أخبرتها أنها لا تقوى على التنقل، وأنها ولدت في باريس وستموت فيها، الإستسلام الذي أعلنته الحكومة لا يعنيها، ولا يهمها أن يقترب منها أحد، ولكي تبعث في نفسها وهمًا، تصرّ أن يكونها حلمها لا يموت، بأن يعود ابنها إليها، لأنها إذا هربت من باريس كما فعل أغلب الناس، ستفقد ابنها إلى الأبد.

وعندما لم تتمكّن ماريا من إقناعها، ودّعتها وعلى خديها دموعا حارة، توجّهت مع أديسون مبتعدة عن باريس إلى أقصى جنوب فرنسا، المكان الأكثر أمنًا المتوفر حاليا. زحف الألمان نحو باريس ووضعوا أقدامهم على نصف أرض فرنسا؛ يتجوّلون في شوارعها، تحت إشراف ما بقى من حكومة فرنسا المستسلمة.

كان مع أديسون بعض الضباط الذين رفضوا الإستسلام، تجمعوا في حيٍّ واحد، اغلب ساكنيه من اليهود الذين فروا من مختلف بقاع أوروبا، هنالك روى كل واحد فيهم قصّته المرعبة؛ كيف أنه ترك شيئا منه في مسقط رأسه، بعضهم أظهر رقمًا و نسي اسمه، مازال شبح هتلر وأتباعه يطاردهم.

هنالك فتح الجميع صدورهم، وأخبرهم أحد المتواجدين أن هناك جماعة تدعى أحبّاء صهيون تساعد اليهود الراغبين في الهجرة نحو فلسطين، لكنها تأخذهم إلى ذلك بانتقاء، تذكر عندها أديسون ليفي عندما جاء إلى أمّه قبل سنوات طويلة ثم إختفى عنهم بعد أن اعتقلوا جميعا، لم يكن لهذه الجماعة مقرٌ معروف، لكنها كانت تقتحم التجمّعات اليهودية مستغلّة فرصة الحرب القاصمة لكي يهرب المرعوبون منها إلى حيث الأرض الموعودة.

ذات ليلة حيث يتواجد أديسون وماريا وغيرهم، دخل إليهم أربعة أشخاص يحملون صناديق كبيرة يوزعونها على الجالسين في أنحاء الغرفة الكبيرة، تحتوي كل حقيبة على مؤن غذائية ومشروبات، ووضع أمام ماريا صندوقين أحدهما تحمل اسم أديسون، تعجّبت كيف يخصّ من بين المتواجدين بحقيبة خاصة، فكرت ربما كونه ضابطا في الجيش، مما أرعبها، ولكن الجيش يختص في ثكناته بالمؤن المناسبة، كان يمكن إرسالها له شخصيا، مع أنه غائب عنها منذ أيام لا تدري إلى أين، و هو الذي يغيب كل بضعة أيام عنها، لم تفتح ذلك الصندوق لكنّه أثار فضولها، وانتظرت عودته بحيرة.

عندما فتح أديسون الحقيبة وجد فوق علبة المؤن الغذائية ظرفا أصفرا عليها اسمه الكامل، حمله ثم خرج من المكان، حيث ينام فيه الجميع، ويتوّسدون صناديقهم، تنام ماريا تتوّسد صندوقها، قام أديسون بفتح الظرف بعناية، ثم سحب ورقة بيضاء منه، وبدأ يقرأ رسالة مكتوبة باللغة الألمانية.

« الضابط المرموق: أديسون..

يسعدنا أنك بخير وتمكنت من الفرار من وحشية هتلر، ووجدت مرافِقة جميلةٌ وطيبة إعتننت بك، وأنقذتك من ويلات الحرب، غير أننا نؤكد لك أن النازيين مازالوا يتربّصون بك، لذلك لدينا عرضٌ رائع لك، ينقذك من هذه المطاردة، وتحظى بمكانة مرموقة أرقى ممّا أنت فيه الآن.

ونعرض لك موعدا حتى نحدثك فيه بالتفاصيل، سيكون لقاؤنا ليلة الأحد.

تحيـــــاتي صديق قديم ».

تعجّب من هذه الرسالة الخاصة، كيف عرفوا اسمه الحقيقي، انهالت على رأسه الكثير من الأسئلة، ولماذا يُخصّ بهذه الرسالة دون غيره؟ كلهم عانوا الويلات، ربما لكونه ضابطًا عسكريًا يريدون خدمة خاصة منه، ذهب إلى العنوان الذي ذكرته الرسالة، وفي الزمان الذي حدده المرسل، حيث لا يفارقه مسدسه المحشو، كان مكاناً مظلما ومنعزلا في أطراف المدينة، حتى ظهرت له فيلا كبيرة ذات باب مزدوج، إنها الفيلا المذكورة في العنوان، ما إن اقترب نحوها حتى خاطبه رجلٌ خرج من بين الظلمة وسط الزقاق الضيّق الذي يفصلها عن المساكن المجاورة، تختفي ملامح وجهه، زاد إختفاؤها قبعة كبيرة كالتي يرتديها الحاخامات، وزادت من طول قامته، جعلته يبدو نحيفا جدا، توقف بعيدا عنه، ثم خاطبه باسمه الكامل، قاطعه أديسون وهو يضع يده على مسدسه تحت إبطه، قائلا:

- مَنْ أنتَ؟ وكيف عرفتني؟

- حسناً.. أنا عضوٌ في أحبّاء صهيون، لا يهم اسمّي، ولا حتى اسمك يا سميث، وإنما المهم ما طلبتك بشأنه.

- وماذا تطلب منّي؟

- حسنا، تعلم أنّ هتلر لا يكفّ عن ملاحقة اليهود، وقتلهم، وتعذيبهم، وإذلالهم في أصقاع العالم، وكما أظنّك تعلم أن الهجرات متتالية نحو فلسطين، حتى نتجمّع هناك إستجابة لوعد الربّ، وقيام دولتنا إسرائيل في القريب العاجل على أرض فلسطين.

- وماذا ستقدّم لنا هذه الدولة، وقد فقدْتُ كل شيء؟

- حسنًا، يا صديقي هناك ستجد تعويضا عن كل شيء، فالإمتيازات التي ستحصل عليها ستنسيك كل مآسيك السابقة.

شعر أديسون أن صوت هذا الرجل ليس غريبا على سمعه، يذكره هذا الشخص بليفي الذي ظنّه قد قضى حتفه في حاجز الجيش، إذ لم يظهر من ذلك اليوم، ربما أعدم لحظتها كما أعدم معاونه منهم، غير أنه ليس متأكدا من موته، كما هو ليس متأكد من موت أمه، وسط هذه الهلوسات التي تسببت فيها أسئلة لا نهاية لها، غادر المكان دون أن يجعله يطيل في سماعه، إتفقا على موعدا آخر، سيحدده العضو من أحباء صهيون، سيبلّغه به بطريقة ما.

في طريق عودته، إستمر يفكّر عن هذا الإقتراح الذي وصله، أيمكن أن يكون المنفذ السليم من هذه الحرب نحو أرض فلسطين؟ يعلم أن سياسيين في أوروبا وأمريكا وأثرياء كثر أمثال آل رويتشلد يعملون على تحقيق هذا الحلم وطرد سكّانها الأصليين، هو مشروع عظيم يستحق أن نكون فيه؟ إلى جانب الإغراءات التي قدمها له ذلك الرجل، ليس هناك طائل من البقاء في أزقة أوروبا كالكلاب الضالة، وقد فقد الثروة التي أمل أن يرثها عن أبيه، وفقد أمه في أتون الحرب، أما أخوه دافيد فلا خبر عنه، كان مقتنعا بما يقوله الرجل، لكن ماريا لم يتحدث عن مصيرها، ألانّها

ليست يهودية؟ لتصبح الهجرة في ذهنه أحسن حل لأوضاعه الآن، هناك سيلتقي بيهود العالم كلهم دون إستثناء، بعيدا عن الحرب.

بعد أسبوع إتصل به بنفس الطريقة؛ رسالة في نفس المكان، لكن بعنوان آخر حيث عدة طوابق سكنية، ذهب إلى الحيّ، ثم دخل إلى أحد الشقق السكنية بعد أن وجد الباب غير مقفل، دفعه بهدوء فسمع صوتا يطلب منه التقدّم، هو نفس الصوت الذي سمعه المرة السابقة، بعد بضع خطوات اكتشف أن هناك شخصين ينتظرانه، أحدهما بنفس هيئة الشخص الذي قابله آخر مرة، أما الآخر فشخص بدين أقل منه طولا، يلبسان لباسا متقاربا، قبعة سوداء وسترة تمتدّ إلى الركبتين، وكلاهما ملتحيان، يجلسان على أريكة، تتوسط غرفة ضعيفة الإضاءة، يطلبان منه الجلوس في الأريكة المقابلة، ما إن جلس حتى صار يقلّب في ملامح الرجل الذي التقاه مؤخرا، يفكّر أن هذه الملامح ليست بعيدة عن ذاكرته، يعرفه أو أنه قد رآه يوما ما، حتى توصل في تفكيره.

فقال في نفسه:

- أيكون هذا ليفي؟ أيكون مازال حيّا؟

نظر إليه الرجل، كأنه يقرأ أفكاره، لاحظ أنه أطال النظر إليه، قال له:

- حسنا، أراك تطيل النظر إليّ؟ أعرفتني؟

- ربما.. ألستَ...؟

- حسناً، نعم أنا هو، أنا ذلك الذي تريد أن تقوله، أنا ليفي.

ما إن أكمل جملته حتى إنتفض أديسون من مكانه، يصرخ في وجه ليفي، استل مسدسه من تحت حزامه، ووجهه إتجاه الرجلين اللذان قاما مفزوعين خوفاً من تصرّفه المفاجئ.

صار أديسون يصرخ في وجه ليفي:

- أنت الخائن الذي سلّمنا إلى الألمان وفرّ، كنتُ أعتقد أنك قد أُعدمتْ.

صرخ ليفي يردّ عليه:

- حسنا، لا تلقي الإتهامات جزافا، دون أن تعرف الحقيقة، قد عانيت أكثر مما عانيت أنت وعائلتك، ولقد كنّا في مواجهة خطرٍ واحد، فقط لم يتمكّنوا منّي، لأنّي فررتُ منهم كما فررت أنت بعد ذلك.

- أيها الخائن، أنا لا أصدقك.

- حسناً، يجب أن تصدّقني يا أديسون.

أحس أديسون أن رجلا قد وضع مسدسا على قفاه، فارتبك ورفع مسدسه للأعلى مُعلِنا تراجعه، فأخذ الرجل المسدس منه، ثم تراجع خطوات إلى الوراء.

عمّ الصمت، حتى أضاف ليفي:

- حسناً، دعنا نتفاهم، لو كنت حقاً فعلت ذلك كله ما أتيت الآن أعرض عليك المساعدة.

- لكن يمكنكم ترحيلي بدون هذه اللقاءات السرية.

- حسناً، السريّة أحد أهم طرقنا، لا نعامل الناس بطريقة متساوية، فأنت إطار عسكري يمكننا أن نستفيد منك، لتكون أحد الاطارات في منظمتنا، وتساعدنا في هذا الهدف النبيل.

هدأ غضب أديسون، يجلس على الكرسي، ثم قال:

- وما المقابل الذي أجنيه من هذا الإنضمام؟

ردّ ليفي متحمساً:

- حسنا، الامتيازات ستنهال عليك تباعا حالما تنخرط معنا، أضمن لك ذلك.

برقت عينا أديسون من الإغراء الذي عرضه ليفي، حَلُمَ أنه سيحظى بمكانة مرموقة تجلب الأموال التي طالما فكر فيها، ليعوّض الثروة التي ضاعت منه.

انصرف أديسون وقد وافق مبدئيا على عرض ليفي، شعر هذا الأخير أنه ضَمَّ عنصرا جديدا مُهِمّاً، إعتبره انتصار جديد عندما جعل ضابطا عسكريا يقتنع بأهداف الحركة، ساعده في ذلك أنه إكتوى بنار النازيين، وأنه من المفترض أن يكون صاحب ثروة ورثها عن أمه، بل لم يجد صعوبة في إقناعه بحلم الدولة الجديدة، لكن مازال الطريق طويل حتى يكون مفيدا للحركة.

✡

فشلت محاولة ليفي الأولى، لكن هذه المحاولة لن تفشل فهي في أرض بعيدة عن متناول يد هتلر، لكن يجب أن يتم الأمر في اسرع وقت، لم تنجح عملية التهجير في المرة السابقة.

أخفى عملية الفرار كاملة من الحاجز عن أديسون، لم يكن يقبل بالإعتقال داخل سجون ألمانيا أو معتقلاتها، إذ يصبح ذلك إخفاقا كبيرا للحركة، والتي من مبادئها أن تتخلى على كل شخص مهما كان في حالة الخطر، إذ التضحية باليهود أمرٌ معتاد، ليس مقبولا أن يبقى الضعفاء بيننا، المهم أن يفلت عضو الحركة بجلده، هذه المبادئ التي لا يعلمها أمثال أديسون، لكنه سيتعلّمها وسيجتاز إمتحانات صعبة لمعرفة مدى وفائه لمبادئ الحركة، كان ليفي يعزم على إختباره كما تدرّب هو على الأمر واستطاع أن يهرب من قبضة الحاجز عندما أخبرهم أنه أتى بهذه العائلة اليهودية ليسلّمها لهم، ليمتص غضبهم، ويأمن عقوبتهم، وقد أعطاهم ما يُثبتُ ولاءه؛ بطاقة عليها توقيع هتلر شخصيًا، تسمح له بحرية التنقل، رغم ذلك وجد نفسه مجبرا على تقديم رشوة؛ عبارة عن حزمة من المال

للمرور، كان يحرص على حمل المال حتى يجتاز ما لا يجتازه أي عابر، المال يجعل كل التحركات انسيابية بل حتى القلوب، تصبح العقول معطلة تماما أمام جبروت المال، أغلب الناس بالنسبة له تلهث كالكلاب أمام إغراء المال، المال سلاح فتاك في كل الأحوال.

شيئا فشيئا توطّدت علاقة أديسون بليفي، حتى أصبحت صداقة يتخلّلها معاقرة الخمر ومسامرة النساء، إلى أن فاتحه في جماعة سُمِّيتْ بالمنتقمين؛ التي تسعى إلى تتّبع وقتل كل نازي يوجد في العالم، لكن لا يمكن الإعلان عنها إلا عندما يُحشر أنف هتلر في التراب.

دامت سيطرة ألمانيا على فرنسا سنة فقط، حتى طُرِدت بواسطة الحلفاء منها في موقعة نورماندي الشهيرة، وأجبر الألمان على توقيع الإستسلام المذل، كان هذا الخبر يستحق الإحتفال، وأصبح أديسون نشطا في قتل النازيين أينما كانوا، إذ يوفر له ليفي وجماعته الوثائق اللازمة للسفر بين البلدان والأموال الضرورية، فضاعت هويته الحقيقية في فوضى الهويّات التي كان يتقمّصها كلّ مرة، شعر بالشغف الكبير لقتل كل من يدلونه عليه، كان قتله بشِعا، الرصاصة في الرأس لم تشفِ غليله، إذ كان يقتل ببطء، لا يُنهي روح المقتول إلا بعد أن يذيقه بعض العذاب، والمدهش في الأمر أنه كلما قتل أحد النازيين ذرف دموعا غزيرة، وكأنه يبكي على فقدان الميت، يترك المكان باكيًا، و يكرّر الأمر مع الضحية التالي، ذاع صيته في قلب إسرائيل، الدولة التي ولدت في 1948 من الرحم العفنة للحرب، كان احتفالا مفعما بالخمر والغناء والرقص، ولادتها إبتهاج انبثق من قلب المعاناة، طلب أديسون من ليفي الإلتحاق بجهاز الموساد، لكنه لم يجبه في وقتها، فقد أوضح له أن الأمر يتطلب بعض التفكير في

مستوى عالٍ من المسؤولين، تعجب أديسون منه عندما مضت أشهر ولم يجب طلبه، كأنه يختبر حماسته.

ذات ليلة أخبره أن طلبه سيُقبل بشرطين اثنين، عندما سأله عن الشرطين.

ردّ ليفي عن استفساره:

- حسنا، إن الدخول إلى جهاز الموساد الجديد هو شرف لك، ومهما قدّمتَ لقضيتنا، فإنّ الموساد يجب أن يختبر وفائك بطريقته الخاصة، وإختبار قدرتك على التضحية حتى تكون عنصرا تستحق أن تكون ضمن طاقمه.

- وما هو هذا الاختبار؟

- حسنا، الإختبار الأول، هو أن الموساد قرّر أن يكلّفك بقتل ماريا.

اندهش أديسون أشدّ اندهاش من هذا الطلب، فردّ:

- لكن ماريا ليست نازية ولا تؤمن بهذه الأفكار، وقد أنقذتني من النازيين.

- حسنا، في الموساد عليك أن تطبق ما يطلب منك دون مناقشة.

أبدى تردّدا، ثم قال:

- ما تطلبونه غريب جدا، تعلم أنها ليست نازية، سوى أنها كانت زوجة جندي نازي.. أكيد أنها لا تعني لي شيئا.. مجرّد عاهرة من عاهرات الطريق، لكن قتْلُهَا...!!

- حسنا، كنت أعلم أنك تتردّد، لكن صدقني ستعتاد على ذلك، المرة الأولى هي التحدي لكل منظمّ جديد، إذا نفذّتَ العملية الأولى ستتحرّر من التردّد.

أجاب محاولا مقاومة تردّده:

- سأتحرر بدون شك، لا أحد يقف في طريقي.

صمت قليلا، ثم أردف موجّها سؤاله عن الشرط الثاني، ليجيبه:

- حسنا، الشرط الثاني ستلتحق بأخيك، وتجلب ثروتك معك، لتدفع نصفها في أحد بنوك الممولة لدولة إسرائيل كعربون محبّة منك، لقد إستحوذ أخوك دافيد على الذهب الذي إستخرجه من مكان ما، ولم يعطك نصيبك منه، ضف على ذلك تعامله مع النازيين دون حياء، ستكون مهمتك الأخيرة في ألمانيا، وإن إستدعى الأمر أن تقتله فاقتله، لأنه يتساهل مع النازيين ليحافظ على ثرواته، ويتعاطف مع جماعة كارطا المناهضة لنا، وبعدها تنتقل إلى إسرائيل لتعين في منصب رفيع داخل الموساد.

انتفض معترضا:

- ونصف ثروتي تؤخذ منّي؟ أليس هذا غير منطقي؟

- ثروتك التي ستودعها، ستعود لك أضعافا مضاعفة، إلى جانب عقارات وثروات طائلة، تتضاعف كلما ضاعفت نشاطك، يجب أن تكون مستعد للتضحية لأجل تحقيق أهدافك، وبذلك تكون مواطنا صالحًا، بل إطارا ترتقي إلى أعلى المناصب.

في ليلة باردة، كانت ماريا تنتظره بعد غياب أسابيع طويلة عنها، رفضت فكرة العودة إلى أختها، وهي لا تدري؛ أهي على قيد الحياة أم أنّها ماتت خلال الحرب؟ لكن في قلبها خوفٌ لا يتوقف من الحرب رغم أنها توقفت منذ خمس سنوات، تتذكّر أنه في غياب أديسون عنها، كان يزورها ليفي ليتسامر معها كصديقٍ لزوجها، وفي لحظة متقدمة من السكْر أراد أن يضاجعها، يريد أن يتذوّق طعم صديقة أديسون، لكنها منعته عن بلوغ مراده، فشتمته وطردته شرّ طردة، لم يكن ليفي بالرجل الذي

يستطيع أن يثيرها، حتى ولو كانت في قمّة شهوتها، فهي لم تستسغ شكله النحيل ووجهه الأصفر الذي يظهر فيه عظم فكّيه وشاربه المنسدل بفوضوية على شفاهه الصغيرة جدا، تنبعث منه دائما رائحة كرائحة المجاري؛ رائحة جسمه الكريهة التي لا تستطيع العطور الكثيرة التي يضعها فعلا تغطيت رائحتها. كان السباب الذي تقذفه على مسامعه يكشف كل العيوب التي يتهرب من سماعها أو رؤيتها، فقد كان يتحاشى التدقيق في المرايا، حمل منها حقدا من كلماتها القاتلة لكبريائه التي يتظاهر بها أمام جماعته.

عاد أديسون إليها مرتّبا جدا، أنيقا أكثر من أي يوم آخر، حمل إلى ماريا باقة ورد وقارورة خمر من النوع الفاخر جدا، إلتقطتهما من يديه في سعادة، أهداها إياها مع قبلة حارّة استمرت لدقائق، لم تكن تعلم أنها آخر قبلة في حياتها، وأنها آخر ليلة تقضيها بين ذراعيه، الذي لم يمت في الحرب لا يعني أنه لا يموت، والذي هرب من الموت قد يكون قد أخطأ التقدير، فقد يكون إتجه إليه مباشرة، اعتقد أن يجد الأمان في فخ نُصِب له، فها هو الذي أمدته بجرعة من الحياة يخطط أن يقضي عليها، تستلقي عارية بعد ليلة عارمة من الجنس، في غمرة استسلامها يلتقط الوسادة وهو مخمور، يضعها على وجهها بقوة، تتخبّط وتلوّح بيديها في كل إتجاه، تحاول أن تدفع الثقل الذي يجثم على نفَسِها، لكنه يقطع عليها هواء الحياة، تقطُر عينيه دموعا غزيرة، يقتلها باكيا، كما كان يبكي كل مرة، لكن هذه المرة بأكثر حرقة، يفكر أنه لابد أن ينجح في كل مهامه، يجب أن ينسى ما فعلته من أجله، عندما عالجته، وعندما قدمت مجوهراتها من أجله، يجب أن ينسى كل شيء لحظة القتل، ارتخت ذراعيها، انقطعت

مقاومتها، واستسلمت لنداء الموت، ذلك مكانا أرحب لها من هذه الحياة الضيقة.

بعد بكاء طويل تحقّق الشرط الأول، وبين عينيه الشرط الثاني، ثروة أبيه وأمه عند أخيه دافيد، لا شيء يجب أن يعترض نيل ما يريد، حتى أخيه يجب أن يسلمه كل شيء، لا يريد ان يقتل أخيه رغم انه يستطيع فعل ذلك.

بعد أنّ قصّ أديسون ما أراد أن يقصه على أخيه، أخبره دافيد بأمر الضابط هوس، فقرّر أن يجعله هدفا قادما يضيفه إلى قائمة نجاحاته، مؤجّلا أمر نصيبه إلى وقت لاحق، فقام بملازمة دافيد في تنقلاته، متنكرا في زي حاخام لا يبارح الكنيس، يحمل أغراض أخيه أينما حلّ، دون أن يجلب إنتباه أحد.

في نهاية قدّاس السبت، حيث يجتمع بعض المصلّين من اليهود ليردّدوا تلاوتهم مع دافيد، عندما إنتهى القداس وإنصرف كل المتواجدين ما عدا أديسون، الذي لم يُغادر المكان، وقف متخفٍ عن الأنظار، وكذلك امرأة لا تبرح المكان، تبدو طويلة القامة، تطأطأ رأسها، تتظاهر أمامه بمسح دموعها بمنديل تحمله في يمناها، هي طويلة أكثر ممّا يجب أن تكون عليه المرأة في غالب الحال، مما أثار شكوكه، ضف إلى ذلك إختفاء كل ملامحها حتى عيونها تغطيها بمنديل شفاف جدا، كدليل على تدينها الشديد، لتتجه نحوه بخطوات بطيئة مُتردّدة، وفجأة تخرج يديها من تحت رداءها وهي تحمل مسدس تضعه بحركة خاطفة على جبهة دافيد، رفعت برقعها فإذا هو هوسٌ متنكرٌ بزي امرأة.

صرخ في وجه دافيد، قائلا:

- أكنت تعتقد أنّي نسيتك؟ أم تظنّ أنهم قبضوا عليّ وقتلوني؟

ما إن رأى أديسون ذلك المشهد حتى إقتحم المكان، وهو يحمل مسدسا يشهره من بعيد، جعل هوس يشدّ رقبة دافيد إليه، ويختفي وراءه، يلصق فوهة المسدس في جمجمة دافيد، مهدّدا بقتله إذا تقدم إليهما بخطوة واحدة، حينها خطرت لأديسون فكرة، وهي؛ لماذا لا يتخلّص من دافيد دون أن يلطخ يديه بدم أخيه؟ فاستفزاز واحد منه قادر على التخلص منهما مع بعض، رصاصة تستقر في رأس النازي، ورصاصة أخرى من يدي هوس في رأس دافيد، عندها يكون قد ضرب ما بقى من العصافير بضربة واحدة، حينها يتحرّر من كل شيء يزعجه، دون أن يجعل الفرصة تفوته، فأطلق رصاصة على ذراع هوس، جعلت المسدس ينزلق من يديه ويضغط على الزناد فاستقرّتْ رصاصة هوس في رقبة دافيد جعلته ينزف نزفًا شديدا، وأضاف هو رصاصة أخرى في قلب هوس.

أسرع أديسون إلى دافيد ذارفًا دموعا غزيرة على وجه أخيه، وضع يديه على رقبته محاولا توقيف سيل الدماء، لكن الرقبة كانت تنزف بغزارة كما تذرف عيونه بغزارة، وضع دافيد يده على ذراع أديسون قابضًا بصعوبة، شدّ بآخر جهدٍ يملكه، ينظر إلى أخيه نظرات أخيرة.

ليتكلّم جاهدًا بحروفٍ متقطّعةٍ:

- أ...ل...ي...س، أليس...ابنتي ارجوك اعتنِ بها.

- صدّقيني يا آليس، كان أبوك أكثر من شقيقٍ لي، في لحظاته الأخيرة كان في حِجْري، وكانت آخر كلماته عنك.

رقرقت عيّنا الشابة ممّا ذكره لها عمّها أديسون بعينيه التي تترقرق هي أيضًا بالدموع، إحتضنها بشدّة حتى إنهمرا معًا باكيان.

كانت آليس لا تلتقي بعمّها إلا نادرا، أخبرها أنّ سبب غيابه مطاردة حلمٌ عظيمٌ...

لقد أخذ أديسون آليس بعد مقتل أبيها صغيرة، دون عِلْم أُمّها، ولمّا إعترضت الأم على ذلك كون هذا التصرف يُعتبر خطفًا، أوضح لها أن ذلك من حقه لأنه عمّها الوحيد، وأنه أنقذها من الموت، وأنقذها من قبضة ما تبقّى من الأوغاد النازيين، أوضح لابنة أخيه؛ أن ما فعله هو تعويضٌ بسيط عن فقدانه لأخيه الذي ضاع من بين يديه؛ في محاولة فاشلة لإنقاذه من يد نازي متطرّف، ولذلك لن يسمح أن يفقد ابنة أخيه أيضا، تنفيذا لوصية الأخ العزيز.

أسكن أديسون آليس عند ليزا، بعد أن أخبرها أنها فقدت والديها معًا، فاغتبطت هذه الأخيرة لذلك، وإهتمّتْ بها بالغ الإهتمام، ورأت ذلك أن هذا تعويض من الربّ على فقدانها ابنها وأختها التي ماتت مرضًا حسب إدعاء أديسون، حتى جثتها لم تحظَ بها، ليأتي لها بابنة أخيه تؤنس وحدتها بعد أنْ تقدمّتْ كثيرا في السِّنّ، إعتنى بهما جيدًا، كان يغدق عليهما بكل كماليات الحياة التي لا يمتلكها إلا القليل في تلك الفترة، أخبرها وعينيه تنهمر بالدموع أن ماريا كانت امرأة ووفيّة لا تستحق الموت، وأنّها رغم المرض الذي فتك بها كانت أكثر شجاعة أكثر حتى من الرجال الذين

يرفعون أيديهم مستسلمين عندما يشعرون بإقتراب الموت، أمّا هي فكانت تقترب منه بصدرٍ مفتوحٍ، وكان يُبكيها دون إكتفاء، حتى أنه لم يستطع أن يواصل حديثه عنها من فرط بكائه.

في مرّة من المرات إقترح على ليزا الهجرة نحو دولة إسرائيل، رغم أنها ليست يهودية، لتكون مع آليس لشدّة تعلّقها بها، لكن ليزا رفضت الفكرة من أساسها، أخبرته أنها لم تترك باريس رغم إقتحام الألمان لها، ظلّت وفيّة لزوجها وابنها تنتظرهما رغم يقينها أنهما لن يأتيا، والآن لا يمكن أن تذهب إلى أي مكان سوى إلى قبر في باريس، أخبرته أن أيّ مكانٍ لا يعوّض باريس، رغم المآسي التي أحاطت بها، وأن العمر الذي بقي لها ليس بالذي تجاوزته.

كانت إرادتها قوية في عدم الذهاب رغم إغراءاته الكثيرة لها، من جهة أخرى أقنع بإغراءات صندوق الوكالة اليهودية المادية والمعنوية كثيرا من الناس في أنحاء أوروبا للتوجه نحو الدولة الحلم، حشد عدة جمعيات ومنظمات حكومية وخاصة، إتصل برجال أعمال وشخصيات عامة مرموقة في كل أنحاء العالم، كان يذكّرهم بحجم الدمار الذي أحدثه النازيون في أجساد وأرواح اليهود، وأن وجودهم في بلد منفصل بعيدا عن أشباح النازيين، وعن رمادهم الذي قد يشتعل في أي حين، كان ذلك ضرورة قصوى لحمايتهم من تجدّد حرقهم بالملايين أو تعذيبهم، كان يعمل على دعم بالأموال من أثرياء اليهود، ولكن هو لا يأخذ من الثروة التي إمتلكها بعد مقتل دافيد، كان بالنسبة له أنه لا يستحق كل هذا الذهب، وأن استثماره في دولة إسرائيل هو المكان الوحيد المناسب لأنْ يُنمي أمواله، أو هو الوحيد الذي يستطيع أن ينميه بطريقته الخاصة دون علم آليس، فقد روى لها أن ثروته سلبها النازيون.

من كثرة إلحاحه في موضوع الهجرة أصبحت ليزا تُبدي شزرا مما يردّده على مسامعها كلما أتى إليهم، كانت باريس تتعافى مما خلفه هتلر الهالك، رغم أن قواته لم تدمّر المدينة، لكنهم قتلوا بعض أبنائها، كبرت آليس بين متضادّين؛ بين مربيتها ليزا التي ترفض فكرة الذهاب إلى إسرائيل وتؤكد لها أنها فرنسية قلبا وقالبا؛ ولن تكون إلا فرنسية كما كان أجدادها، وبين الذهاب إلى بلاد بعيدة تجهل مصيرها فيها. أخبرت ليزا أن كلّ الذي يسرده العم أديسون مجرّد تلفيقات وأكاذيب من أجل سلب أرض الغير من العرب وتهجيرهم، وأن اليهود كُتِبَ عليهم الشتات كما تقول الكتب المقدسة، وأن السياسة تسلّلت الى التلمود فحرّفت تعاليمه...

عندما عاد العمّ بعد عدة أعوام غاب فيها عنهما، لاحظ أن آليس تزداد معارضة لأفكاره، تردد الكلمات التي سمعتها من ليزا، كما أنها تعيش حياة عبثية طائشة، ترتاد الملاهي وتتسكع ليلا مخمورة بين البارات، تتعاطى المخدرات بأنواعها، تأكد أنها تلقنها غير ما يريد، وبالطريقة التي لا يريد، عاد يوما وأغرقهما بالهدايا لكنها رفضت هداياه، فإمتعض من إمتناعها.

خرج أديسون ذات يوم مع ابنة أخيه إلى الحديقة العامة، بعيدا عن مسامع ليزا.

بعد تجاذب أطراف الحديث معها، إقترب منها في هدوء مُصطنعا ابتسامة خبيثة:

- الآن أصبحت شابة ناضجة وجميلة، عليك أن تستعدي لمهمّتك الجديدة، وكفاك من الحياة الطائشة.

ردّت متعجّبة ضاحكة مستهترة، وهي تعلم أنّه يقصد الدولة الجديدة:

- أأنا كذلك لديّ مهمة؟

- طبعا، لكل فرد مهمّته، لا يهمّ جنسه، ولا مركزه، حتى الفقير المعدم مهمته الهجرة، وتحمّل الصعاب لأجل تحقيق الحلم...

قاطعته:

- لكن الحلم تحقّق، ودولة إسرائيل كما أعلم نالت إعترافها قبل عشر سنوات.

- ليس الأمر بهذه السهولة، العرب القوميون وغيرهم من الأعداء يتربّصون بنا في كل لحظة، مازلنا في حالة حرب مع الفلسطينيين، وعلى الحدود يهدّدنا الأعداء بمحونا من على الأرض، وباقي العالم يتهرّب منا...؟ يا آليس، لم تثبّتْ أقدامنا في الأرض بعد، ونحتاج لكل الإمكانيات المتاحة وغير المتاحة لتثبيت وجودنا.

أطلقت آليس ضحكة طويلة:

- ههه.. و ما هي الإمكانيات التي تقصدها؟

- أتعلمين؟ أنتِ من ضمن الإمكانيات، كل شيء يمكن الاستفادة منه.

- ماذا تقصد؟

وضع يده في جيبه مُمسكا قلادةً ذهبية، طلب منها أن تقترب منه، وضعها على رقبتها، وعينيها تبرق إنبهارا بالقلادة الثقيلة، أخبرها أنها ستملك الكثير من المجوهرات إذا عملت بجدٍ، ثم قال لها:

- هذه القلادة ما تبقى من مجوهرات جدتك آنّـــا، وهي أعزّ ما ترك لي أبوك.

نظرت إلى القلادة وانبهرت بجمالها وحجمها الكبير. وضعها على صدرها، ظهرت وهي معلّقة عليها تكاد تلتصق به من ثقلها، ثم نظر إليها

بخبثٍ، يتمعّن في جسمها؛ شابة ناضجة يمكن الاستفادة منها، بجسدها المشدود، ووجهها الذي يزداد نظارةً وإشراقا وجمالا، عيونها الزرقاء المغرية، وقدّها المتناسق. من إطالته النظرات فيها، فهمت معنى كلمة الإمكانيات، لكنها استغربت، كيف يفكر عمها في إستعمالها كطُعمٍ أو إغراء لتحقيق لأهدافه أو كأداة ابتزاز؟ أتكون القلادة رشوة لبداية مهمتها؟ كان أديسون بخيلا جدا في تقديم الهدايا دون مقابل، لذلك فهمت اهتمامه الشديد بها، وكأنها يقول لها؛ لا يجب أن تضيع إمكانياتها الهائلة في أمور تافهة وحياة طائشة.

وبعد تبادل الضحكات وضع يده على كتفها، لم تكن تلك اللمسة عادية بالنسبة لها بعد أن عبّر لها عن قوة إمكانياتها، لمسات إمتدت إلى أسفل ظهرها، حتى تدارك الأمر، قائلا لها:

- أنتِ تجيدين عدة لغات فبجانب الألمانية تجيدين الفرنسية والإنجليزية، لم يبق لك إلا إجادة اللغة العبرية لتكوني ملمّة.

كان كلامه تمهيدًا لمهام أكبر، وتلميحا بأن كلّ شيء قد يكون سلاحا في عالم الحرب، سَرَحَتْ آليس بذهنها في تلك المهام، فكرت أنها ستنال الأموال التي تشاء، رغم أنها ستكون قريبة في متناول يدي الأغراب لكن من أجل كثير من الذهب وقلائد الذهب. من أجل تفادي معارضة ليزا، طلب منها ألاّ تخبرها بشيء أو بأي حديث معها، وقال لها:

- في حكم السياسة تعتبر ليزا عدوّة، نحن نضحي بأرواحنا وبناتنا من أجل هدف عظيم، وهي تعارض الفكرة، مثل هؤلاء من المفترض أن يُحكم عليهم بالإعدام؛ رميًا بالرصاص في ميدان عام، لولا أنك متعلقة بها لكانت واحدة منهم، مع أنّي لا أعدك بسلامتها.

قاطعته، وهي خائفة:

- هي واحدة فقط، لن تؤثر في بلوغ الهدف العظيم.

ردّ بغضب:

- يجب ألا يرفض أحد في هذا العالم الفكرة، إنها مشيئة الربّ، لا أحد يجب أن يجرأ على رفض مشيئته، أظن أن ما حدث لليهود في أصقاع أوروبا كاف للتحرر من أفكار الخذلان، هناك أثرياء قدموا ثروات طائلة ولم يبالوا لهذا الهدف... وليزا ترفض حتى تشجيعك على السير على هذه الطريق.

- ستقتنع عاجلا أم آجلا بما تقول.. دعك منها.

استغل خوفها من غضبه المتصاعد، فقال:

- هل انتْ مقتنعة بما أقول؟

- نعم، نعم، أنا.. أنا مقتنعة بما تقول.

لم تقتنع تماما، ولكن كانت خائفة من أنه سيؤذي ليزا، لقد حكى لها بعض أعماله الإجرامية في سبيل الهدف الذي يتكلم عنه كلما زارها، وها هو يطلب منها أن يكون لها دورٌ في تجسيد حلم الجميع.

قبل أن يرحل نبّهها بأنّ عليها الإستعداد في أي وقت، لأنها سترافقه في المرة القادمة إلى بريطانيا، لتترك هذا العالم البائس، وتلتحق بعالم أكثر بريقا، إذ ستلتقي بأشخاص مهمّين، سيتضح بأنه ليس لديها فراغ في حياتها، وتفهم أنهم مهمّين لإنهم يصنعون مصائر الناس والأمم، وإذا أجادت الدور المنوط بها سترتقي في المناصب أكثر وأكثر وتصبح من الأثرياء. كتمت الأمر عن ليزا، صارت تحلم ليلا ونهارا في الإرتقاء الذي ستحظى به، والعالم المبهج الذي ستلتقيه.

بعد بضعة أشهر قدِم إليها ليأخذها من باريس إلى وجهة لا تعرفها قبل أن تتوجّه إلى بريطانيا، وعندما سألت إلى أي مكان ستذهب،

أخبرها أن كل الإتجاهات ممكنة، وأن هذا السؤال يجب ألاّ يتكرر كثيرا إذا كان في سبيل تحقيق الهدف العظيم.

لكن السؤال الذي يلح في ذهن أديسون؛ هل تُقْبَلُ آليس من طرف باقي فريق الوكالة ومن رؤسائه؟ يجب أن تجتاز الإختبار حتى تلتحق بالوكالة، هل تستطيع استعمال إمكانياتها بالشكل المناسب؟ يقصد كل الإمكانيات، لذلك طلب منها الصبر وقوة الإرادة التي يجب أن تصْهر أمامها كلّ المعوّقات، وقبل الإنطلاق أخبرها؛ أن أهمّ مبدأ في عملها الجديد هو أن تنسى كل شيء تعرفه، رغم أنها تعرفه بالتفصيل.

انطلقت مع عمّها في سيارة منفرّدين، كان الوقت ليلاً، لم توقظ ليزا أثناء مغادرتها، إقتضى تدبير أديسون تلك المغادرة أن يبقى الأمر سرا، هو أول مبدأ أساسي تتعلمه في مهمتها العظيمة، كان يذكّرها أن تكون كتومة جدا، حتى في نفسها يجب ألاّ تهمس بشيء، كان الدرس الأول الذي يتفق عليه أيّ نظام مخابراتي، لأنه عند انكشاف الأسرار نكون بلا قيمة، سيكون الموت المصير المحتوم، بأيدينا أو أيدي أعدائنا وبطريقة فضيعة جدا. و عد الإبتعاد عن ضواحي باريس، اقتربت سيارة سوداء خلف سيارته، وسيارة أخرى سبقتها تخفف السرعة لتمنعه من تجاوزها، حاول مراوغتها يمينا وشمالا، لكن دون جدوى، لقد كان الطريق ضيّقا جدا، حيث توجد منعطفات وأودية في طرفي الطريق، تدفعه السيارة التي تتبعه من الوراء تجعله يفقد السيطرة على إتجاهه، لتنحرف السيارة عن الطريق منحصرة بين السيارتين، وقد إصطدم وجهه بعجلة القيادة حتى فقد توازنه، بينما آليس مُرتعبة لا تدري ماذا تفعل، حتى إقتحم شخصان سيارتهما واضعين مسدساتهما على رأسيهما، لم يتمكّن أديسون أن يظفر بمسدسه الذي انزلق من يديه دون أن يتمكّن من حمله، أمرهما صارخين

بالنزول من السيارة، رفعا أيديهما إستجابة للتهديد، ثم أُقتيد أديسون مباشرة خلف الأشجار، ودون أن تسمع آليس أي كلام سمعتْ طلقات نارية، ثم خرج الرجل الذي كان قد إقتاد عمها بين الأشجار، تأكّدت أنه قد قُتِل على يدي ذلك الرجل، أصابها الذعر الشديد، فبدأت بالصراخ والبكاء بأعلى صوتها تطلب النجدة، ليحملها اثنان نحو السيارة الأولى وقد وضعوا على أنفها مخدّرٍ جعلها تفقد الوعي وتكفّ عن التخبّط والصراخ.

عندما استفاقت وجدت نفسها مستلقية في غرفة مظلمة ضيقة بضوء خافت، وكأنّها في عالمٍ غير عالم الحياة، فُتِح باب الغرفة واندفع نحوها رجل، أخذها عنوة من ذراعها، يُخرِجها من الغرفة إلى غرفة مقابلة أكبر منها ضعيفة الإضاءة، بها طاولة صغيرة، وهي تصرخ محاولة منعه من جرّها، لكن دون جدوى أمام ضخامة جسم هذا الشخص المفتول العضلات، يُمسك بها كما يمسك بعصفورة صغيرة، يضعها على الكرسي، ويثبّتها بيديه، تدفع يديها من على كتفيها وهي تلعنه، قائلة:

- انزع عني يديك أيها القبيح، أنا جالسة دون أن تضع يديك المتّسختين على كتفي.

استجاب لها ونزع يده عنها، حتى ولج الغرفة من الجهة المقابلة رجل آخر، يحدق إليها بتركيز وهي تبادله نظرات الغضب، ودون أن يكلمها جال حولها، يتمعّن فيها من أعلى شعرها الأصفر، ويدقّق تفاصيل جسمها المكتنز، لتنتفض قائلة له:

- ماذا تريدون منّي؟ ومن أنتم؟ ولِم قتلتم عمّي؟

جلس في الكرسي المقابل، ثم قال لها:

-نحن من نسأل وأنتِ من ستجيبين، وليس العكس، أيتها العاهرة.

صرخت مجيبة:

-ماذا تريدون؟ أيها القذر.

- سنقتلك، إذا لم تجيبي عن أسئلتنا.

صرخت مرة أخرى:

- أقتلني اذاً، أنا لا أخشى الموت.

ابتسم الرجل المحقّق:

- إذا كنت حريصة على معرفتنا من نحن، فنحن البوليس السري، ولا أظن أيتها العاهرة أن هناك أحد في العالم لا يخشى الموت، خاصة إذا كانت شابة مغرية مثلك، ولنختصر.الحديث، ماذا كان يقول لك عمّك أديسون؟ إلى اأن كنتم متجهين؟ من هو رئيسكم الفرعي في فرنسا؟

- أيها الأغبياء هذه الأسئلة كنتم تستطيعون توجيهها إلى أديسون قبل أن تقتلوه، أنا لا أعرف شيئا مما تقولونه، لا أعرف شيئا.

صرخ بعنفٍ في وجهها:

- أنتِ تعرفين كلّ شيء وكفاك مراوغة، وإلاّ وضعتُ رصاصةً في جمجمتك وحطّمت وجهك الجميل.

أجابت بنفس درجة الصراخ:

- أقتلني، وأنْه المسألة، هيّا، إفعل ذلك الآن.

- أجيبِي، وأنقذي حياتك.

- أقتلني، أيّها الغبي.

وما إن أكلمتْ جملتها الأخيرة حتى صفعها صفعة قوية أسقطتها أرضًا مع الكرسي، جعلتْ وجهها يحمرّ إحمرارا شديدا، ليحملها الرجل الضخم ويرجعها إلى الكرسي عنوة بعد أن أعاده إلى مكانه، استمرّ يكرّر عليها نفس الأسئلة مع صراخ متواصل، وكلما أنكرت كلامه أعاد صفعها

مرة أخرى ليُعيدها مرة أخرى، حتى أنهكتْ قواها من الصراخ والصفع المتواصل.

وبعد أن تأكّد المحقّق من تعنتها، وأنها أُنِهكتْ من هذه الجلسة، أمر الرجل الضخم أن يعيدها إلى الغرفة المظلمة، ولمّا دخلت الغرفة استلقت باكية على بلاط الغرفة دون أي فراش أو غطاء، ترتعد من البرد، فانكمشتْ تحك قدميها على بعض، تضمّ يديها على كتفيها تحاول تدفئة جسمها، ترتخي استجابة للنوم، حتى غطّتْ في نومٍ عميق مليء بالكوابيس.

استيقظت بعد ساعة فقط، وهي تسمع صراخا من خارج الغرفة قريب جدا من غرفتها، صراخ مُرعب شديد، كان صوت امرأة تستغيث وتستنجد أن يتوقفوا عن تعذيبها، كان أمرا فضيعا تستيقظ به، كانت محاولةٌ منهم من أجل تخويفها من التعذيب الذي ستناله إذا لم تتعاون مع المحقّق.

كان الصوت يخفت ويرتفع مرة أخرى، وعندما هدأ الصوت شعرتْ أن صوتها قريب إلى ذاكرة سمعها، لم يكن صوتا غريبا، قامت بصعوبة متثاقلة، وضعت أذنها على باب الغرفة حتى تعرف حقيقة هذا الصوت غير الغريب عنها، أغمضت عينيها وركزت في الصوت الصادر خلف غرفتها، فتأكّدت أنه صوت ليزا، لقد جلبوها هي كذلك إلى هنا، لا تعلم لماذا جاءوا بها إلى هنا؟

صرخت تناديها باسمها، وبدون انتظار طويل فوجئت بفُتِح الباب عليها مرة أخرى من نفس الرجل الضخم، ليأخذها عنوة مرة أخرى إلى المكان الأول الذي استجوبت فيه، فوجدت المحقق ينتظرها في الجهة

المقابلة، يحدق إليها بغضب من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها العاريتين.

جلست مُنهكة، دون أن يُجبرها الرجل الضخم على الجلوس، عندها فُتح الباب فإذا بها امرأة يجرّها أحد المُختطفين، يحمل في إحدى يديه سكينا بينما المرأة النحيلة جدا التي ترتدي قميصا ممزقاً، ولما اقتربت ببطء منها عرفت أنها ليزا، تحاول الذهاب إليها فيمنعها الرجل الضخم، فبدأت بالصراخ:

- لماذا أتيتم بليزا؟ ما دخلها بالموضوع؟ أيها الأنذال.

- هذه العاهرة قامت بالتبليغ عنكما فور خروجك مع أديسون.

لتقاطعه ليزا موجّهة حديثها لآليس بصوت خافت بطيء:

- لا يا آليس، لقد خفت عليك لما إختفيت دون أن تخبريني، خشيت أنك قد خُطِفتِ.

قاطعها الرجل المحقّق:

- بلاغكِ أيتها العاهرة لم يكن مقتضباً، لقد استرسلت في أمور تضرّ بآليس وبالعمّ أديسون.

تعجّبت آليس من حديثه، تحاول أن تفهم ما يجري، تتساءل بصوت مرتفع:

- ماذا تقول؟ لا أفهم شيئا، أأنت تدافع عن أديسون وقد قتلته؟ أأنتم بوليس سري أم ماذا؟ أم عصابة سرّية؟

التفت المحقق وراءه، ويُنادي:

- أديسون.. أخرج.

فإذا بأديسون يتقدّم إليهم، وسط حيرة آليس وتعجّبها الشديد، تتساءل موجّهة له الخطاب بكلام متقطّع:

- لكنّك.. قُتِلتْ في الطريق، خلف الأشجار، لقد سمعتُ طلقات توجّه إليك.

رد عليها أديسون:

- لقد سمعتِ لكنّكِ لم تريْ شيئا، إنه درسك الأول؛ العين قبل السمع، حتى العين تكذب، والعقل هو سلاحك الأول والأخير.

استمر بالحديث وسط ذهولها الصامت:

- كل ما كنت تشاهدينه مجرد إختبار قاسٍ، كان ضروريا من أجل أن نكمل الرحلة نحو مركز التدريب.

ردّتْ بغضب شديد:

- كل هذا الصفع والإهانة مجرد اختبار؟ أأنت أبله مثلهم.

- لم يكن اختبارا شديدا ولكنّي كنت مقتنعا ومراهنا على تجاوزك الإختبار، لقد أخبرت رؤسائي بذلك لكنهم لم يستجيبوا، أخبروني أن الاختبار طريق لابد منه لكل وافد جديد للمنظمة، وعندما تركتك في باريس كانت هناك عيون تترصّد تحركاتك وتحرّر التقارير عنك، حتى إتفقوا على هذه الخطّة.

كانت ليزا لاتزال تنظر بذهول إلى تفسيرات أديسون، تأكدت انها وقعت في يد وكالة أحباء صهيون التي تحشد شخص يحمل أفكارهم نحو هدفها، عندها التفت أديسون إليها، اقترب منها ثم فجّر رأسها برصاصة، صيّرها جثة هامدة، جعلت آليس تنتحب من هول المنظر، ضمّتها، وهي تقول:

- لقد قتلت أمّي، لقد قتلتَ أمّي.. أيها الأوغاد.

اقتيدت آليس مُعَصّبة العينين، إلى مكان أكثر رفاهية، لتتجاوز حزنها على ليزا مدة عدة أشهر، ثم أخذت نحو مركز التدريب الذي أخبرها به

أديسون، لقضاء ستة أشهر تحت التدريب المكثف، من أجل أن تتبدل إلى شخصيات جديدة مختلفة؛ مرّة كانت بهيئة صحفية، ومرة أخرى تتحول إلى سكرتيرة رجل أعمال، ومرة أخرى إمرأة أعمال في حدّ ذاتها، هاجرت إلى بريطانيا لتبدأ في تقمّص ببراعة شخصيات مختلفة تتبدّل حسب الحاجة، كتبديل البدلات، وكأنها تضغط زر التغيير من وجه إلى وجه آخر، أحستْ أنها ستكون أقوى من ذي قبل، وأصلب من أيّ امرأة، حتى أصبحت أشبه بالرجل صلابة بلا قلب، تتقن كل الألاعيب، وتتجاوز كل الإختبارات، تقتلع قلب الأنثى وتضع مكانه قلبا بلاستيكيا، لا يلين إلا للمال والمصلحة، سلاحها الأساسي هو الجنس، مقابل أهدافها، تنازلٌ يصبّ في فائدة إسرائيل وإسرائيل فقط.

تخرجّتْ في سريّة تامّة تحمل أكثر من هويّة، أتقنتْ العبرية، وتعلّمت أساليب الإختفاء والتسلّل والمراوغة والإغراء والتمويه وأنواع الحيل، فاقتحمت قلب حلبة الصراع رفقة أديسون، يجولون العالم على أساس أنها ابنته، يقدمها كهدية دسمة لشخصية مرموقة في سهرة حمراء لينال معلومة أو موافقة سياسية هامة، أو تمويل ضخم لإستثمار تجاري، كان الجنس العملة التي تشتري الرجال دون إستثناء، الرجال يبحثون على الجنس وفي لحظة الذروة يقدمون كل شيء سري وغالٍ ونفيس من أجله، وفي سبيل مطارحة الجنس معها يسلّمون أوراقا سرية وأموالا طائلة مقابل ليلة واحدة مع فتاة طاغية الأنوثة، تكبر يوما بعد يوم، وينفجر جمالها مع مرور الوقت لتزداد خبرة وخلاعة، أصبحت تحقق نتائج مبهرة أبهرت أديسون العم الذي كان يبتهج كلما أدخلت ابنت أخيه رجلا إلى غرفتها الخاصة، تقتنص أهدافها بذكاء شديد، حتى كُلفت بتجنيد جيل جديد من النساء يكملن مسيرتها الحافلة.

خلال عملها الذي جاب أصقاع العالم، تنجب آليس أولينده دون أن تريد ذلك؛ أنجبتها في قلب ألمانيا الشرقية، كانت تعرف جيدا أباها الذي طارحته الغرام، لكن الأب لم يعترف بحبه لها ولا نسب ابنته، لأنه رجل متزوج وسياسي مرموق، سيقتلها دون أدنى تفكير إن أصرّت على الإقتراب منه، لذلك وضعت ابنتها في دور رعاية لتتفقدها كل حين، تكبر أوليندە وتتقدّم آليس في الأبو خالد، فهاجرتا نحو إسرائيل لتستقر مع ابنتها هناك، بعد أن طلبت ما كانت تدّخِره في بنكٍ في إسرائيل وآخر في بنك بسويسرا.

قضت أوليندە مراهقتها في أزقة تل أبيب، وهي لاتزال تحمل الجنسية الألمانية ، ثم أضافت الجنسية الإسرائيلية التي لا تتطلب سوى وضع القدمين على الأرض، وبعد أن أتمّتْ الدراسة الجامعية أقنعتها الأم أن عليها أن تقدم شيئا لدولتها الجديدة، بأن تنخرط في الجيش وتضحي من أجلها، ومن أجل كل اليهود في العالم، وهي قبِلت بذلك بكل افتخار، أبدت كفاءة عالية في الميدان وخشونة مع المتظاهرين وكل الأعداء، حتى صارت من ألمع وأوائل ضباط الجيش في دُفْعتِها.

الجزء الثاني

حتى التراب ترف.

اختلفت النظرات عمّا سبق؛ حتى تحيّة الصباح بدت باردة؛ وباهتة، ونادرة، ثم صارت منعدمة، مرّ غسّان أمام زملاءه كشخصٍ منبوذٍ لا يستحق التحيّة، أضحوا يرمقونه بنظرات مُتشكّكة، بل مُتهمة له بالخيانة، يستحق على ما اقترفته يده الذبح من الوريد إلى الوريد، هم نفس الأشخاص الذين كانوا قبل الحادثة يستقبلونه بالأحضان، أمّا الآن فهم يتحاشونه، ينسحبون من طريقه، فالذي صنعه للمجنّدة الإسرائيلية شاع في أروقة المستشفى، جعل مديره المدعو جميل؛ ذو الرأس الأصلع والبطن المنتفخة؛ ينتظره على أحرٍّ من الجمر؛ بعد أن استدعاه إلى مكتبه، يتملّكه غضبٌ وحنقٍ شديدين إتجاه ما صنع.

عندما وصل إليه وجد زميله فارس يقف على يمين مكتب المدير، حيث يبدو ضخم الجثة، عريض الكتفين، منتفخ الخدين من سمنته، بوجهٍ دائري عليه شارب رقيق وطويل، يرتدي قبعة سوداء لا تكاد تغطي شعر رأسه الكبير.

خاطب المديرُ غسّان غاضبًا، وهو يتعرّق من جبينه:

-أخبرني يا هذا؛ كيف لك أن تعالج قتلة الأطفال؟

كان الأفضل أن تموت بطلقة من أحدهم بدل أن تقوم بمعالجة جنّدي صهيوني، الأجدر أن تقاوم، إلى أن تموت شهيدا، وألّا تكترث لتهديداتهم، فهم لم يرحموا جريحا، ولا مريضًا؛ سواء كان طفلا، أو امرأة، أو شيخًا، بل هم يتجرؤون على إقتحام المشافي والمدارس، ولا يعترض طريقهم أحد، ولا يحترمون قانونا ولا إتفاقًا...

كان غسّان يتوقّع سوء عاقبة العمل الذي قام به، لذلك فهو لا يكترث بما يسمعه، لكن ما إنْ وصفه بالخائن، حتى انتفض رافضًا هذا الوصف الشائن.

ردّ عليه بغضبٍ شديدٍ:

-ما قمتُ به كان تحت التهديد، فخفتُ على حياتي، وقد يفعل أي مُسعفٍ كما فعلت أنا بالضبط اذا كان تحت تهديد السلاح، ما حدث لا يستدعي هذه الأوصاف المشينة، أيها المدير.

كان فارس يسمع الحوار الدائر بينهما مطأطأ رأسه، لم ينبس بكلمة واحدة، ولم يتدخل تأييدا لأيٍ منهما.

أضاف غسّان:

-أنا قبل أن أكون مُسعفا كنتُ شرطيا في شرطة الحكومة الفلسطينية تحت قيادة منظّمة، أحترم القانون، وأعرف كيف أتصرّف في كل الظروف.

قاطعه جميل:

-لا أقبل أيّ مبرّر من مبرراتك، من اليوم أنت مُوقّفٌ عن العمل حتى تمثُل أمام مجلس التأديب، ليقرّروا في أمرك؛ ما يرونه مناسبًا لقاء ما اقترفته من كارثة لم تحدث من قبل، وفي العقوبات التي تستحقها.

تواصل صراخهما يتصاعد، حتى سُمِع في آخر أروقة المشفى، إلى أن قام غسّان برمي شارة عمله فوق المكتب، ثم نزع سترة المسعفين ورماها على الأرض، قائلاً:

-لا أنتظركم تقرّرون مصيري، كل ما فعلته في سبيل العمل ذهب هباءً، سأترك الوظيفة قبل أن تقرّروا طردي من المشفى.

ظلّ المدير يتمتم في مكتبه، متوعّدا إياه بأشدّ العقوبات، حتى ولو قدّم استقالته، وعقّب على ردّه قائلا:

-الذي يُساعد الأعداء لا يمكن أن يبقى بيننا في المشفى؛ بل لا يبقى حتى في فلسطين.

ردّ غسّان متهكّما؛ وهو يغادر المكان:

-الذي يسمع كلامكم لن يصدّق أفعالكم، فما يحدث بينكم وبين الإسرائيليين يفوق ما يحدث بين العشّاق، وتدّعون أن بينكم العداء، والله لقد أضحكتني.

غادر المكان دون أن يلتفت إلى المدير، وهو يتلفّظ بالسباب والشتائم، مع صمتٍ غريب من قِبلِ فارس، أما باقي زملاء العمل فهم بين متفاجئ ممّا حدث، وبين باصقٍ على الأرض، معترضًا على ما أقدم عليه شخصٌ يدّعي أن في عروقه دمٌ فلسطيني حرٌّ.

اتجه نحو أبيه عمر المدعو أبو العمر، حيث وجده كما أغلب الوقت على شاطئ يافا، ليجعل منها فرصة لا تعوّض حتى يؤنس أبيه بضعة أيام.

في صباح باكر هربا من ضوضاء المدينة إلى هدوء البحر، ركب معه القارب في رحلته المتكرّرة بحثًا عن الرزق في قلب البحر.

روى أبو خالد لابنه غسّان أنّ أباه عثمان قد علّمه منذ الصغر أصول الصيد، وعلّمه كيف يتعامل مع روح البحر، وكيف يُبَادِله نفس المشاعر، ذكّره بأنه قد غمسه عاريا في شهوره الأولى من الحياة في البحر، ليصير صيّادا مثله.

قال له آنذاك كأنه يعلّمه، وقد كان صبيّاً لا يفقه كثيرا مما تتلفظ به شفاه الأب:

- يجب أن يخرج من صلب الصيّاد صيادٌ مثله، بل أمهر منه.

حرص أبو خالد على أن يرافقه ابنه غسان في أكثر رحلاته في كل رحلاته منذ أن بلغ العاشرة، فتعلّم على يديه الصيد والسباحة والغوص، والأهم من كلّ ذلك أنه أحبّ البحر كما أحبّه أجداده، وأتقن فنّ الصيد كما أتقنوه.

كبر في كنف البحر، وشعر مع الأيام أن هذا الوحش الأزرق يستفزّه ليقتحمه دون خوف، فسبح حتى اختفى عن الأنظار، غاص إلى أعمق الاعماق حتى ظُنّ أنه قد التهمه البحر، اعترف له أنه ذو هيبة وجمال، جمالاً لم ينقص من هيبته شيء، كما لم تكن هيبته غطاءً يحجب جماله، وهنا تكمن روعته؛ فهو يغمس أنف كل متكبّرٍ في مياهه المالحة، هو كأيّ إنسان عزيز النفس لا يقبل الإهانة من أحد، يحترم من يحترمه، ويمرغ كلّ من قلّ أدبه في طحالبه.

أراد غسّان أن يرافق والده حتى ينسى بعض همومه، لم تكن المساحة المسموحة للصيّد كبيرة كما كنت قبل أن يختنق البحر بأغلال الإحتلال الإسرائيلي، لم يكن يتوقّع أن يتحوّل إلى سجن هو أيضا، في حين يدعوك إلى معانقته، فيمنعك عن هذا العناق الآمن بطش الإحتلال، يتقلّص البحر كل سنة، كأنهم يريدون أن يمنعوك معانقة الحرية.

يقول في نفسه:

- لن يتحوّل البحر إلى سجن ولو حاولوا ذلك.

لا يقصّ غسان لأبيه ما يحدث له في عموم يومياته، فلا يريد أن يُشغله بمشاكله، أو يتسبّب في إرتفاع ضغطه. فقد تجاوز السبعين عاما، يسكن في قلب أبو خالد بعض الحزن عندما إختار أبنائه أعمالا غير التي تمناها لهم، وتفرّقوا في ربوع الوطن دون إلى يتمكّنوا من زيارته، بعد أن

رفضوا البقاء في يافا مدينة جعلتها إسرائيل إحدى مدن عاصمتها تل أبيب، إلا غسّان فقد بقي معه قريبا منه بعد وفاة أمّه، يطمئن عليه ويطمئنه عندما يأتيه في أيام عطلته لمساعدته، أخبره يوماً كلاماً لم يفك لغْزه، وفهمه أبو خالد على أنه إستهزاء، أو شيءٍ آخر فاق الجدّية بأشواط.

كانت جملة مقتضبة تحتاج إلى تفسير عميق، وتتضمن تأويلات كثيرة، إذ قال غسان لأبيه:

- ليس الصيد في البحر دائمًا يا أبي.

تلك الجملة التي خرجت من لسانه دون أن يشرحها له، كأنه لا يريدها أن تخرج من فيه أصلاً، فيتساءل أبوه:

- أيّ سمكٌ يوجد في البرّ؟! أيقصد مثلاً.. البنات؟ وهو الذي يرفض فكرة الزواج دون سبب واضح !!

يعلم الأب أن ابنه لا يفكّر في الزواج، ولا يكفّ الأب عن نصحه، ولا يكفّ الابن عن تفلّته وأحياناً عن غموضه. عندما تخلّى الأبناء عن أبيهم كان هو الوحيد الذي يزوره كلما سمحت له الفرصة، غير أنه استعان بابن أخيه أبو صلاح المدعو مسعود، ذلك الشاب الشغوف بالبحر أكثر من أبنائه من صلبه، الذين تفرّقوا عندما إشتد عودهم، وأخذتهم مناطق متفرّقة من فلسطين.

❖

تذكّر أبو خالد أن القارب الذي كان يملكه والده عثمان كان أكبر من هذا، إذ كان يتصاغر كلّما هرِم واقترب من القبر، كأنه الوطن فلسطين يتصاغر أما جبروت الإحتلال المتعاقب عليها، أسرّ أبو خالد لابنه أنه يتمنّى أن يموت في البحر ويدفن فيه، لا يهم إنْ اكلته الحيتان، فالحيتان ماهي إلا خَدَمُ البحر تنظفه ممن يريد تشويه روحه، يغوص غسّان بتفكيره عميقا في البحر، لكنه يتدارك قائلاً:

- أطال الله في عمرك، يا أبي.

رأى أبو خالد أن الوفاء يقتضي أن يكمل مشوار الإبحار، ذلك ما علمه له أبوه عثمان وهو الأكبر في أعمامه..

قبل أن تحلّ لعنة إسرائيل تحديدا في سنة 1905م.

يتذكّر أبو خالد أن عائلته كانت تمتلك ثلاثة قوارب كبيرة كاملة التجهيز، وأرض شاسعة تقدر بخمسة الآلاف دونم في جبل الزيتون قُبالة القدس، وألفين أخرى في تخوم حيفا، ومنزل كبير في المدينة القديمة بالقدس الشريف ومنزل آخر في قلب مدينة يافا، بالإضافة إلى عربة كبيرة من النوع الفاخر، ومحلٍ كبير للفواكه في سوق القدس القديم.

كان والد أبو خالد عثمان تاجرا مرموقا وثريا جدا في أنحاء فلسطين أثناء سلطة العثمانيين، ورث ذلك بدوره عن أبيه أحمد المكنى بأبي علي الذي كان هو الآخر ذو مركزٍ مرموقٍ.

كان لأحمد جدًّ عمر المدعو أبو علي والد عثمان علاقات مع كبار الضباط العثمانيين، وعلى رأسهم الضابط الكبير المدعو رشيد بِكْ، لقد كان صديقا قريبا جدا له، يُساعده في مختلف معاملاته مع الجيش العثماني، وتذليل كل عراقيل قد تعترضه، حيث أن أحمد كان يتعامل مع المورّدين الذين يشترون منه غِلال العام من برتقال وزيتون ومشمش وغيرها من محاصيل المواسم، التي كانت تصدّر بعد ذلك إلى بريطانيا وفرنسا وألمانيا...

كان لدى أبي علي منزلا واسعًا في البلدة القديمة في القدس، مع محلٍ كبير قد أجّره لصديق رشيد بك اليهودي المسمّى يوسف إيلان بعد أن توسّط له من أجل إتمام العملية، وضمان شخصي منه.

ففي ذات مساء صيفي جاء يوسف إيلان مع الضابط رشيد بك في سيارة خاصة مع سائقه، وكان يوسف راكبًا يرفقه، حيث بدا شابًا في نهاية العشرينات، ذو جسم نحيلٍ جدا، يرتدي ملابس رثّة، ومظهره يدعو للشفقة لكل من يراه، يحاول إظهار الابتسامة المستمرة أمام الشيخ أبو علي حتى يكسب ودّه وثقته وتعاطفه، رغبة منه في إتمام الإتفاق في أسرع وقت ممكن، وبدون كثير من الشروط.

قبل أن يلجا غرفة الضيوف، سلّم السائق أحد أبناء أبو علي مجموعة من الهدايا التي جلبها يوسف إيلان والضابط، ثم دخلوا جميعا إلى الغرفة الكبيرة التي كانت تتسع لأربعين ضيفاً مرة واحدة، تستند على جدرانها أرائك فارهة مزركشة بأبهى الألوان الزاهية، وعليها وسائد تناسبها لونًا وشكلاً، وفي كل أربع أرائك يتوّسطها موائد دائرية نحاسية مزخرفة عليها أواني فضية للزينة، وعلى كامل الغرفة بساطٌ من النوع الرفيع السميك يُغطي كل البلاط.

بدا أحمد أبو علي رجلا في منتصف الخمسينات متوسّط الطول، يرتدي لباسا أنيقا، بوجه ممتلئ أبيض وشارب عريض، على رأسه طربوش أحمر، يربط وسطه بحزام عريض. جلس الضابط رشيد بك على الأريكة، الذي بدا كهلاً في منتصف الخمسينات، بدينًا بوجه ممتلئ أبيض، يعلو شفاهه شارب عريض وعيون كبيرة حادة، يرتدي طربوشا أسودا وزيا عسكريا يعلّق على صدره من جهة الشمال نياشين وأوسمة مختلفة، أمر أبو علي مرافقه بالجلوس، وطلب لهم واجب الضيافة، وبعد تبادل التحيات المتبادلة بينهما، مع كلمات عتاب طويلة على الغياب الطويل، أجاب الضابط بأن مشاغل الناس كثيرة، حيث أنه موظّف مكلّف بقضايا كثيرة

في قضاء القدس، وأنه قد جاءه من اجل شيء آخر مهمّ، يرجو منه ألاّ يخذله في إتمامه.

خاضا مطوّلا في السياسة وما يدور في أنحاء فلسطين، وعن الحرب التي تجري في حدود الدولة العثمانية، قبل أن يخوضا في الحديث الذي أتى من أجله، فسأله عن ولده عثمان، فالضابط رشيد بك هو الذي أطلق على الصبي هذا الاسم، وكثيرا ما كان يرسل له الهدايا في صغره، وهو نفسه الذي ألحقه بمدرسة القصر التي تُدعى أندرون رغم إعتراض الأم، أما عثمان فكان يأمل أن يلتحق بنادي الفروسية، عندما اكتشفت أنه مولع بها، لكن الضابط أقنع أحمد أنه من الأفضل أن يلتحق الطفل بتلك المدرسة حتى يصبح إطارًا من إطارات الدولة في المستقبل، وقد التحق بها فعلاً منذ سنتين وهو في سنّ الثلاثة عشر، هي المدرسة التي يلتحق بها أيضا الأطفال الأسرى أو أبنائهم من البلدان التي ينتصر فيها العثمانيون، فيجمعونهم في تلك المراكز يلقّنونهم الدين الإسلامي ثم يدرّبونهم تدريبًا خاصًا، ليكونوا في المستقبل إطارات تستفيد منها الدولة في الإدارات والثكنات العسكرية، رغم اعتراض الأب في أول الأمر، تخلّى عثمان عن حلم الفروسية مؤقتًا، وأبدى حماسا كبيرا في قبول هذا العرض الذي قدّمه رشيد بك، و ما أقنع أبو علي بذلك هو التوصية الخاصة التي خَصّ الضابط إتجاه عثمان، عبّر رشيد بك عن إعجابه به منذ ولادته، كان كثيرا ما يُرسل له الهدايا الثمينة، وكان أبو علي يقدّر مشاعره النبيلة، لأنه يعلم أن الضابط كان عقيما، رغم انه تزوّج اكثر من مرة، رغبة في الإنجاب دون جدوى.

التحق عثمان بالمدرسة، فقد أراد أن يكون جنديًا عسكريا، لينشأ متعلما منضبطًا، يردّ اعتداء المعتدين، يتعلم فنون القتال بدل فنون

الفروسية، ويقف في ساحة المعركة كأنه في ساحة الفروسية، يحمل بندقية حقيقية في قلب المعركة، بدل أن يحمل بندقية للزينة، وقد بدأت بوادر شجاعته وقوته في تدريباته، بدل أن تكون شجاعة عقيمة في فروسية فارغة، كان يتفقّده الضابط كلما سنحت له الفرصة.

زحفت الحرب إلى قلب الإمبراطورية العثمانية المتهالكة يوما بعد يوم، تصاعد قلق أبو علي على ابنه، لكن رشيد بك كان كل مرة يطمئنه.

لمّح أبو علي لرشيد بك عن سبب مجيئه بلباقة، فيتفهّمه ويقدّره، فيسأله:

سبق السؤال ابتسامة عريضة:

- مرحبًا بك السيّد رشيد بك.

شكرا.. شكرا.. لندخل في الموضوع، أقدم لك صديقي السيد يوسف إيلان.

وضع يوسف يده على صدره، يطأطأ رأسه نحو أبي علي، وفي صوت لا يكاد يُسمع يردّ:

- تشرفت، سيدي.. بك.

أردف رشيد بِكْ مشيرا إلى يوسف، قائلا:

- لقد جئتُ به إليك شخصيا، خصيصًا لتراه، رغم ما تعرفه من كثرة مهامي والحرب المهولة التي تحاصرنا من كل جانب. يوسف شخص وفيٌّ جدا وتاجر بارع وذكي جدا، وجاء بضمان منّي ليستأجر منك محلك للفواكه بالقدس الشريف، وسيظل يشتري منك نسبًا كبيرة من السلع تتفقون عليها مُسبقًا، وسينوّع تجارة الفواكه إلى سلع أخرى، وسيرسل لك أو تأتي إليه لتأخذ أجرة السنة التي تتفقا عليها، فما رأيك يا سيّد أبو علي؟

أمعن أبو علي النظر في الشاب الصامت الذي يجلس قرب رشيد بك، ثم قال:

- الحقيقة يا رشيد بك، لقد فاجأتني بهذا الطلب، فأنت تعلّم أنّي أغلقتُ المحل منذ مدة بسبب المشاكل التي حدثتْ لي، فآثرت تركه فارغا على أن أؤجره لأحد، وقد جاءني الكثيرون يقترحون عليّ مبالغ طائلة لتأجيره أو بيعه فلم أفعل..

قاطعه رشيد بِكْ:

- عفوا سيد أبو علي، أنا لست أيّ شخصٍ قد يقصدك، وأعلم تفكيرك مسبقاً نتيجة لما حدث لك سابقاً، لذلك أتيتك شخصيا، فأنا لم أرسل لك رسالة ولم أرسله لك وحده في القطار، هذا الشاب يحوز على ثقة تامّة منّي، ويستحق الثقة كذلك منك، وسترى ذلك مع الأيام، ولقد اخترته لأنه شاب فقير وكان أبوه رجلا وفياً عمِل لدينا منذ شبابه في دائرة تسجيل العقارات، ولم أجد له إلا هذا الحل الذي لا أظنك سترفضه لأنّي أعرف مقامي عندك. أحسّ أحمد بالإحراج، فلا يمكنه الرفض ببساطة لما يطلبه رشيد بك إلا بتبرير ذلك الرفض، وهو الضابط الذي قدّم له خدمات لا تعدّ ولا تحصى، ولا يمكنه أن يتحايل عليه في أي شيء، فهو ضامن للشاب وإذا ضمن رشيد بك أحدا كان صادقا كما عهده منذ عشر سنوات.

قطع رشيد بك تفكير أبا علي، قائلا:

- لا تهتم سيّد أحمد، فسيعرض عليك مبلغا معتبرا الذي لا تحلم به، وبالعملة التي تريدها كل سنة، سواء بالليرة العثمانية أو بغيرها.

فكّر أبو علي متعجّبا، كيف يكون فقيرا، ويمكنه تقديم أيّ مبلغ أطلبه؟ فتكلّم بما كان يفكر فيه، قائلاً:

- ولكن رشيد بك، كنتَ تقول أنه فقيرٌ، ثم قلت أنه يمكن أن يدفع ما أريده من إيجار، وكذلك بالعملة التي أريد؟!

ابتسم، و ردّ قائلا:

- أحسنت، أحسنت سيّد أبو علي، يوسف ابن صديقي لا أفرّط فيه، لقد توفي عمّه الثريّ في ألمانيا منذ شهرين، ومن حسن حظه أن عمّه هذا لم يتزوج أبدا، وقد كان يوسف الوريث الشرعي الوحيد له، وتخيّل أن عمه اشترط في وصيته أن يدفن في مقبرة اليهود التي تؤجرها أوقافنا لهم، وهي مسّجلة في دفاتر دائرة تسجيل الأراضي، كما أنه لا يستطيع أن يذهب إلى ألمانيا، فقرّر بنصيحةٍ منّي تنفيذ وصية أبيه وعمّه بالبقاء في فلسطين والعمل فيها، وقد دُفن عمه على أرض فلسطين كما أوصاه، لقد ورث ميراثا لا بأس به جعله قادر على مجابهة قسوة الحياة، ولا أريده أن يبذر أمواله فيما لا ينفع، بل سيكون استثماره هنا مفيدا للمجتمع ككلّ، وقد اقترح عليّ هذا الإقتراح الذي طرحته عليك الآن، ونتمنّى أن تقبله مع توفير كل الضمانات التي تريدها.

انتهت الاستضافة سريعًا دونما أن يقدم أبو علي موافقته النهائية، حاول ألاّ يغضب ذلك رشيد بك، رطّب العلاقة معه بكلمات إطراء طويلة فضرب له موعدا في رأس الشهر ليلتقيه بعد أن يستشير إخوته، ويقدم له شروطهم مع طالب الاستئجار الجديد السيد يوسف إيلان، مبررا عدم موافقته الفورية عندما ذكّره بما حدث له قبل سنة من المستأجر السابق الذي أخرجه باستعمال القوة، ورفض الضابط الشكوى التي تقدم بها المستأجر المشتكي، الذي كان يتماطل في تسديد ما عليه، وتغييره للعين المؤجرة دون إذنه، ليستغله أحمد فيما بعد كمخزن لسلعه التي لا تتأثر بالحرارة ولا الرطوبة، ورفض كلّ المتقدّمين لاستئجاره.

يعلم رشيد بك أن أحمد هو أكبر إخوته الثلاث وهم أبو عمران وأبو صلاح أم صبري عبلة، وهو الوكيل الوحيد لكل أملاك أبيه وكلمته لا ترد من طرفهم، لكنه طلب من جهة أخرى من يوسف أن يتحلّى بالصبر لتنجح صفقاته، يُصدر الشاب إبتسامة عريضة، يُطمئنه أنه سيظلّ وراء صفقته حتى تتحقّق، و لن ينسى نصيبه في كل صفقة، سواء ساعده مباشرة أو بطريقة غير مباشرة.

❖

اشتعل سعير الحرب العظمى الأولى سنة 1915..

لمّا اندلعت الحرب العظمى الأولى التي اشتعلت نارها في ألمانيا وأوروبا، فأصبحت ترعب العالم كله، حيث الجرائد الفلسطينية تتناقل الأخبار عن الدمار الذي يحدث هناك، كل دولة إما ترغب في استعادة أراض ترى أنها أحق بها، وأخرى تتوسع في محيطها، بينما الإمبراطورية العثمانية التي تتناقص شيئا فشيئا، وتخشى. تربّص الدول الغربية، وتترصّد محاولة أن تصدّ هجمات الداخل من معارضين سياسيين عرب متذمّرين من سلطتها، فأرادت خلالها إعادة هيبتها في مصر بمهاجمة البريطانيين الذي يسيّطرون فعليا عليها، وقد أبلت في بداية الأمر بلاء حسنًا، تريد إعادة محمد علي لبيت الطاعة، لكن العثمانيون أضعف من أن يقفوا على أقدامهم ضد الهجمات المتعددة الأطراف، رغم ان الدولة العثمانية تحالفت مع الألمان.

وجد الشاب عثمان نفسه في عالم صارمٍ، كبُر على تعلّم النظام، تعلّمَ اللغات إلى جانب العربية كلّ من التركية والإنجليزية والألمانية، وتعلم استخدام مختلف أنواع الأسلحة، وانضم إلى فرقة الفرسان، أحبّ الخيل، كان يشمّ رائحة الحرب تقترب من فلسطين، وقرارات العسكر تُحرّر من

أجل أن يجندوا الناس للتقدم نحو مختلف الجبهات تطبيقا لقرارات الحاكم جمال باشا.

كان قريبا من التجنيد نحو ساحات المعارك لولا تدخل رشيد بك بجعله بعيدا عن الحدود، لكن لم يدم الأمر طويلا بعد أن أستدعي رشيد بك نفسه للإلتحاق بجبهات القتال، تعويضا لقائد الخط الأول للدفاع، نحو إيقاف تقدّم العدو الكبير، بعد ذلك انقطعت أخباره عن مركز القيادة، وعن الأب أبو علي.

وافق أبو علي على كراء محله ليوسف إيلان استجابة لطلب صديقه، وفي يوم استقباله له عند قدومه للإتفاق على مبلغ الأجرة، أكرم يوسف أبا علي أيّما إكرام، انبهر بحجم الاستضافة، طمعاً في رضى أحمد عنه، وبتوصية متبادلة من رشيد بك، واتفقا على أجرة سنوية مقابل الاستغلال الكامل للمحل، مع شراء نصف محصول الفواكه من أحمد لإعادة بيعه، والنصف الآخر كان يصدره نحو بعض دول أوربا، واتفقا على السماح ليوسف أن يبيع في المحل أيّ شيء يراه مناسباً.

تمّ التعاقد بينهما في مكتب التسجيل بحضور رشيد بك الذي جاء في عطلة قصيرة، وتمّ الإتفاق على الأجرة السنوية القابلة للتغيير حسب الأحوال، وبعد عودة أبو علي إلى يافا، انتشرت حكايات الحرب في صفحات الجرائد، وعاد رشيد بك مرة أخرى إلى الجبهات المتقدمة في المواجهات، وجُنّد كلّ الشباب للدفاع عن أرض فلسطين ضد القوات البريطانية الزاحفة نحو القدس، وسط تململ الجيش العثماني وتفرّقه في الجبهات، التحق رشيد بك إلى فرقة المدرعات بكل عزيمة من أجل توقيف زحف الجيش البريطاني المدعوم من طرف الجيش الفرنسي.

شيئا فشيئا بدأ يتهاوى العثمانيون، وشعر رشيد بك أن القوات التي حوله بدأت تتقلّص، وتتساقط بين جريح وقتيل، وأصبحت المدرعات بدأت تتهالك وتتدمّر بفعل قاذفات صواريخ الأعداء، حتى فَقَدَ الإتصال بالقيادة التي طلبت منه أن يطبق الأوامر وألّا يتراجع عن الهجوم بينما هو في حالة الدفاع، إقترب رشيد بك من الوقوع في الأسْر، فضّل أن يُقتل على أن يؤسر، يكون القتل على يد الاعداء أهْون من الوقوع في قبضتهم، حيث يكون كل شيء ممكنا، لكنه في الأخير انسحب من المعركة مع مجموعة من الجنود، واختفى عن الأنظار.

وقع الشاب عثمان في يدي البريطانيين والعشرات من الشباب، كان نقص الوقود والمعدات وعدم وصول المؤن إليهم انهيارا لمعنوياتهم وقدراتهم، وسببٌ أساسي في استسلامهم، مما جعل نصف الكتيبة تقع تحت حصار كتائب بريطانية، أجبرت نائب قائد الكتيبة على الإستسلام.

لكن لا يعني الإستسلام البقاء حيّاً، فقد حدث في زمن ماضٍ إن استسلمت قلعة يافا لنابليون بونابرت عن طريق قائدها أحمد باشا الجزار، الذي تلقّى ضمانات من نابليون بعدم قتل الأهالي، لكن القائد الفرنسي نقض الإتفاق، فقام جيشه بتقتيل الأهالي، وغدروا بحاكمها، كما غدروا بالمستسلمين جميعًا.

في نهاية عام 1917م...

اجتاحت قوات الجيش البريطاني جنوب قضاء فلسطين، ثم انتقلت نحو وسطها، وبعدها توغّلت في كلّ أرضها، وخلال عامين فقط انهارت قوات العثمانيين، ووقعت الأرض تحت رحمة الإحتلال.

جمّع الجيش البريطاني الشباب اليافعين في معسكر إعتقال منفرّدين؛ بمن فيهم عثمان، الذي يقف وسط المعتقل، يتكأ عليه شاب جريح يُدّعى أحمد؛ مُصابٌ في قدمه اليمنى التي يرفعها عن الأرض، يكمشها إلى الوراء، يكاد يسقط من شدّة الألم لولا إتكاءه على صديقه، يُشير الضابط البريطاني إلى المعتقلين على أن يفترقوا، حيث كل واحد يتخذ إتجاها مختلفا، محاولة منه أن يفرزهم إلى مجموعات متعدّدة، يُحدّق القائد فيهما منكمش الجبين، وهما الوحيدان اللذان لم يتحركان، يأمرهما بصوتٍ مرتفع:

-أنتما هناك، أحدكما في الجهة اليمنى والآخر في الجهة اليسرى.. سريعا هيّا.

رفع أحمد ذراعه محاولاً التحرّر من كتف عثمان، فقبض عثمان بيده اليمنى القوية يشده إليه، يمنعه من التخلّص منه، ضَمَّه إليه بقوة مع توجيه نظراتٍ حادّة إتجاه القائد، ثم ردّ بلغة انجليزية جيّدة، وبصوت تحدٍّ مرتفعٍ، مخاطباً إياه بقوله:

-نحن لا نفترق أيّها القائد، دعنا أحياء مع بعض أو أقتلنا مع بعض.

اهتز القائد الإنجليزي مُنتفضاً من جرأة عثمان ونظراته المستفزة، فأصرّ على تنفيذِ ما أمر به، أومأ إلى الجنود لكي ينفذوا ذلك بالقوة، فأسرع نحوه جنديان يحملان بندقيتهما، ليجذبا ذراع أحمد بعيدا عن رفيقه حتى

سقط أرضًا، ثم قاما بدفع عثمان الذي حاول مقاومتهما دون أن يتمكّن من ذلك، فانتفض يصرخ معترضًا لما حدث، ليقوم أحدهم بضربه بأخمص البندقية على رأسه حتى شجّه وتطايرت منه الدماء وسقط مغشيا عليه، جُرّ إلى مجموعة غير تلك التي أقتيد إليها صديقه.

عوقب عثمان بمنع الأكل عنه، قبل أن يتم ضربه ضربا مبرحا، تسبب له الضرب في كدمات مختلفة في كامل أنحاء جسمه، رُبِط في وسط المعتقل أيامًا طويلة تحت لفحات أشعة الشمس، ولا أحد تمكن من مساعدته، حتى كاد أن يهلك، قبل أن يزج في السجن مع باقي رفاقه.

كان عثمان وأحمد قبل ذلك صديقان مقربان لم يفارقا بعضهما منذ سنوات التدريب في معسكرات العثمانيين، يتشابهان في الشكل كأنهما شقيقان، حتى أنهما بنفس الوزن بقدراتٍ متساوية، وكثيرًا ما كان يناديهما قائدهما العثماني بالتوأم، لكنهما يتميزان عن بعضهم البعض في لون الوجه فأحمد وجهه مائل للسمرة، أما عثمان فكان قوي البنية بوجه أبيض جدا، لكن كلا وجهيهما دائريا الشكل، بعينين كبيرين، وأنف دقيق، كان لا يفترقان إلا عندما يُسرّحان في عطلة لزيارة أهلهما، فيذهب عثمان إلى أبيه احمد في يافا، ويذهب أحمد إلى أهله في القدس.

ذات مرّة اكتشف عثمان أمر غريب لم يكن يعلمه عن أحمد، لقد اكتشف أن صديقه المقرّب مسيحي الديانة حينما وجد صليبًا في جيبه صدفة، لم تكن الغرابة في أنه مسيحي فقط، رغم صداقتهما القوية، فلا غرابة في الديانة، فهناك الكثير منهم في فلسطين كما اليهود ولكن اليهود بنسبة قليلة جدًا، لكن أن يكون اسمه أحمد فهذا الغريب في القصة، وهو الاسم الذي يختص به المسلمون عن غيرهم؛ فلسطينيون أو عثمانيون أو غيرهم.

بحث عثمان عن صديقه والدهشة تملأه، وعندما عثر عليه سأله دون مقدمات:

- أحمد... أحقًا أنت مسيحي؟!

أجابه بعد تردّدٍ:

- نعم مسيحي أرثوذكسي، ولِمَ؟

ابتسم ساخرًا، ثم قال:

- ولكن اسمك أحمد، على اسم النبي محمد.

ردّ ضاحكًا:

- وما المشكلة في ذلك؟ إنه مجرّد اسم فقط.

- ولكن كيف يسمّيك أهلك باسم لا يؤمنون بصاحبه.

اعترض قائلاً:

- وماذا في ذلك نحن أحرار في تسمية ما نشاء، لا أظن أن ذلك يزعج أحدًا في شيء.

- أعلم أنكم أحرار، لكن حيّرتني، لأول مرة أسمع بهذا التناقض بين الاسم والديانة.

- ليس الأمر فريدا من نوعه، فلا علاقة للأسماء بالدين، الأسماء تصلح لكل الناس في إعتقادي، وربما يوجد أمثالي الكثير.

- أنت مخطئ، نحن لا نسمّي أي اسم.

- ونحن نسمّي أي اسم.

- هل هناك سرّ لهذه التسمية مثلاً؟

- نعم للإسم سرّ.

- أيمكنك أن تقصّه عليّ؟

- إن في ذلك قصّة طويلة يا صديقي، ها نحن صديقين ندافع عن الوطن ذاته، رغم أننا لسنا على دين واحد، لا تتطلّب الصداقة ولا الوطنية نفس الدين !

شعر عثمان بالإحراج:

- أعلم.. أعلم.

صمت قليلا، ثم أضاف متهكّما:

- لكن أخبرني هذه القصّة الغريبة، يا صديقي المسيحي.

غضب من تهكّمه، وردّ:

- ماذا بك يا عثمان؟ أنت لأول مرة تخاطبني بديني.. إذًا سأخاطبك كذلك أيها المسلم.

صرخ عثمان:

- أنا مسلم، وأفتخر بذلك، وأعلن ذلك دون خوف بأعلى صوتي.

ردّ عليه بصوت أعلى:

- أنا كذلك مسيحي أرثوذكسي، وأفتخر بديني دون خوف.

ضحك بقوة، وردّ:

- ولماذا إذًا تُخْفي ديانتك عنّي؟

- أنا لا أخفيها، أنا لا أخفيها...

اشتد الشجار بينهما، انتهى برمي الصليب من طرف عثمان على الأرض، أخذه أحمد وهو يمسحه ويقبله، حتى افترقا على سباب متبادل لم يحدث بينهما منذ التقيا من سنتين، ولم يكشف أحمد لعثمان عن السبب الغريب والقصة التي جعلت الأب مارون يُسميه بهذا الاسم الإسلامي.

كان الأب مارون قسيسا أرثوذكسيا معروفا بدماثة أخلاقه وحبّ الناس له، وقيامه بدور المصلح بين الناس ويحظى بإحترام المسلمين أيضا، لكن بعد زواجه ظلّ بدون أبناء رغم سعيه الحثيث مع الأطباء دون جدوى، حتى دلّه جاره الشيخ التاجر أحمد أبو ماجد على علاج طبيعي فعّال جدا، أتى به من خارج فلسطين أثناء سفره المتكرر من أجل بضائع مماثلة، وعندما سلّمه الدواء ليستعمله على شكل مشروب ودهن، اغتبط القس مارون لفعل جاره، أخبره القسّ أنّه إنْ وُلِد له صبي فسيسميه باسمه، تعجّب جاره من هذا النذر النادر لقسٍّ من المفترض أنه لا يؤمن بالنبي محمّــد؛ وأحمد اسم من أسمائه، مرّت ثلاثة أشهر حتى أحدث الدواء المعجزة وحملت زوجته بولد ذكر، فأسماه أحمد، رغم رفض أهل القسّ وكل المحيطين به لما فعله، إتهموه بالخروج عن المسيحية وإعتناق الإسلام، وكل تبريراته لم تشفع لخطوته تلك، بل إن أغلب روّاد الكنيسة هجروها من فعلته، تلقّى رسالة غير صريحة التهديد عن هدفه من هذه التسمية، كان ردّه عليهم؛ أن في ذلك رسالة محبّة وسلام من المسيح نحو إخوتهم المسلمين، إرتاح العثمانيون من هذه الخطوة النادرة الحدوث؛ جعلوا المعترضين يخافون إظهار معارضتهم.

كان عثمان يعتقد أنّها خطّة من صديقه أحمد حتى يغطّي على ديانته، ولكنّه في النهاية تأكّد من صدق القصة، وإعتذر له بعد مقاطعة طويلة، لم يتقبل في البداية إعتذاره، لكن تذكره لمواقفه في كثير من الأحداث جعلته يتقبّل إعتذاره.

عندما كانا معا في قبضة البريطانيين أبديا تعلّقا مُلفتا ببعضهما البعض، حيث كان أحمد يسقي صديقه سرًا عندما كان مربوطا في ساحة

المعتقل، تدخل قائد مركز الإعتقال مستفسرا ليعرف سبب هذ التعلّق بينهما، مع إختلاف ديانتهما، أجابه عثمان إجابة الواثق من نفسه:

- هناك شيء مشترك اسمه وطن، الوطن دين أيضًا...!

كلمة كانت أشبه بطلقة بارود في وجه السائل، جعلت هذا القائد يحقد على عثمان أكثر من غيره. انفصل الصديقان عن بعضهما، كلٌّ في سجنٍ خاص، في إنتظار إصدار الأوامر بحق أسرى الحرب، إستمر إعتقالهم سنتين كاملتين تحت أعمال السخرة الأشبه بالتعذيب، ورغم محاولات الأهالي التدخل لدى النافذين حتى يتم إطلاق سراحهم، كان كل ذلك كان دون نتيجة إيجابية.

تم اطلاق سراح بعض الأسرى بطريقة سرية ملتوية لكل صاحب نفوذ ومال، فقد بدأ يشعر عثمان أن الأسرى حوله يتناقصون يوما بعد يوم، حتى اختفى صديقه وأصبح لا يراه، سمع أن أبوه قد دفع مبلغا معتبرا حتى يخرج ابنه الوحيد، وظل ينتظر في أبيه أبو علي أن يحذو حذو مارون في دفع مبلغ كاف من أجل أن ينتشله من هذا السجن، لكن الأمر طال جدا.

بعد بحث طويل، عرف أبو علي السجن الذي يتواجد فيه ابنه عن طريق القس مارون، حاول أن يستعمل نفس طريقة القس مارون، لكن بدون جدوى، فقرّر جمّع إخوته كلهم، ليذهبوا جميعا نحو مقر فرع للجيش للمطالبة بإطلاق سراح ابنه، وعند محاولة دخول المخفر منعوهم من ذلك، كادت أن تحدث مشادات تنتهي بإعتقالهم جميعا حتى خرج أحد الضبّاط يتساءل عن سبب هذه الجلبة، ليطالبوه بكلمة واحدة وهي إطلاق سراح عثمان.

ردّ قائد المخفر عليهم:

- عثمان مسؤول عن أعمال إجرامية، فقد حمل السلاح وإعتقلناه في جبهات القتال يحاربنا، ويحق لنا أسره، بل واجب علينا إعتقال كل عائلته لتجرئه على قتالنا.

ردّ الجميع بأصوات مرتفعة:

- أنتم محتلّون ومعتدون.. وجب علينا الردّ عليكم.

اشتبك الجميع مع الأفراد المحيطين بالمركز، يُطلقون النار في السماء من أجل تفريق الناس الذين بدأوا في التجمّع بشكل أكبر في الساحة المقابلة، انتهى بإعتقال الكثير منهم، احتجز بعضهم في ليلتها في سجن واحد، وبعد التحقيق معهم وتسجيل أسمائهم، طلب أحد القادة من قائد المركز أن يُطلق سراح أبو علي وبعض المعتقلين فقط، ويُبقي في الحجز على إخوته أبي صلاح وأبي أبو خالدان وزوج أخته عبلة، كما أُبلغ أحمد على أنه مستدعى لدى أحد قادة الجيش في غضون ثلاثة أيام. استغرب أحمد عندما أطلق سراحه دون إخوته، ظل يصرخ ويهدد أمام المركز حتى يأس من أن يخرج له قائد المركز، يطلب منهم أن يبقى مع إخوته، لكنهم كانوا كل مرة يطردونه ويدفعونه بعيدا عن محيط المركز، دون أن يحاولوا قتله أو اعتقاله.

عاد أبو علي إلى بيته يائسا من إطلاق سراح إخوته، لكن لا يعلم أيّ أمر قد دبّره له الإنجليز، حتى تلقّى في اليوم الموالي إستدعاء من قائد في الجيش المدعو آرثر.

توجّه صباح الموعد المحدد نحو مكتبه، يرافقه أحد الجنود بعد أن تم تفتيشه جيدا، أصبح أبو علي وحيدا عندما اعتقلوا كلّ إخوته، لم يكن يعلم أنهم جريئين إلى هذه الدرجة، لقد جردوه من سنده، ويجب أن يكون هو لهم الآن هو السند.

دخل إلى المكتب الواسع الذي كان سابقا لضابط مرموقٍ في الجيش العثماني، لم يُغيّر أيًا من أثاثه الفخم، قام الضابط الإنجليزي النحيف ذو الشعر الأشقر الكثيف من كرسيّه الكبير، ثم خاطبه قائلا، وهو يدلّه على الأريكة المقابلة بعصا سوداء قصيرة يحملها:

- تفضل سيّد أحمد أبو علي.. تفضّل.

رفض أحمد الجلوس قائلا:

- لم آتِ هنا للجلوس.

ضحك آرثر باستهزاء:

- يبدو أنك صعب المراس كما أخبروني.

- صدّق من أخبرك، أرجو أن تدخل في الموضوع مباشرة.

- صح صح، كلامك صحيح، اذًا استمع لما أقوله لك، نحن نقدّر كثيرا الرجال المحترمين أمثالك...

قاطعه:

- وتقديركم هذا واضح، كان بالقبض على إخوتي كلّهم، وإحتجاز ابني لديكم؟

- أولاً إخوتك أثاروا الفوضى ويستحقون السجن، وابنك مشارك في أعمال عدائية ضد قواتنا.

- ورغم ذلك نحن على حق، أنتم تعتدون علينا.

- لا.. لا، نحن جئنا نخلّصكم من العثمانيين.

- ومن طلب منكم ذلك؟

ابتسم، وردّ:

- هناك من ساعدنا في الوصول الى هنا، وهم منكم... ناقمون بشدة على معاملة الإحتلال العثماني إتجاهكم.

- لا أظن ذلك صحيحا، إنها تبريرات... وإذا كان ذلك صحيحا فهي تبريرات للخيانة فقط من الخونة.

- ربّما.. حسب مفهومك..

صمت قليلاً، ثم أضاف:

- المهم إذا أردت الإفراج عن إخوتك ابنك، فهناك شروطا من جانبنا..

- أنا لا أقبل بشروطكم.

- حسنا، إذا لم تقبل فسيحالون على القضاء العسكري، ولن تكون عقوبتهم أقل من الإعدام بقائمة من التهم كتهمة خلق الفوضى والإخلال بالنظام العام والتسبب بقتل جنودنا وو...

كان تهديدا مباشرا صريحا له بإعدام إخوته و ابنه، شعر بالخطر يحدق بجميع إخوته ابنه وهم في قبضة الإحتلال، والحل هو الموافقة على الشروط التي يقترحونها عليه، وقد لمّح له القائد خلال اللقاء به بعضًا منها؛ وهي أنّ يؤجر الأراضي لهم التي يمتلكها في يافا والقدس للقوات العسكرية، لجعلها مراكز تدريب لهم، أمهله أن يفكّر في الموضوع، لكن آرثر أكد له أنه لن ينتظره إلى الابد، فقد يسمع خبر إعدام أحد إخوته، لأن القضاء العسكري قد يأخذ قرارا مستعجلا بإعدامهم، لا يستطيع التدخل لتأجيله.

غادر أحمد القائد وهو غاضب ومحتار، يفكّر؛ كيف له أن يقبل أن يجعل الأرض التي ورثها عن أبيه؟ رغم أنه طلب الاستئجار مقابل مبلغ مادي مغري، إضافة إلى اطلاق سراح إخوته وابنه، لكن هي خيانة رغم ذلك، سيمقته الجميع، كما مقت هو من ساعد الإنجليز على اجتياح فلسطين، لكن ما هو الحل؟

جلس في غرفته واضعًا رأسه بين يديه، وزوجته تبكي بحرقة، كانت تنتظر رجوعه بابنها بعدما وعدها ان يفعل المستحيل حتى يعود بهم جميعا، لكنها حسب ما رأت لم يفعل شيئا، عاتبته على عدم قبول شروطهم مباشرة، فردّ منتفضا:

- أبهذه السهولة نفرّط في أرض أجدادنا؟

ردتْ عليه، وهي تبكي:

- كيف؟ ألا تفكّر فيما يعانيه ابننا وإخوتك بين الأعداء؟

صمت قليلا:

- لا أدري.. لا أعرف ماذا أفعل.. دعيني، أرجوك.

خرج من داره تاركًا زوجته غارقة في دموعها، خرج ليفكّر بصفاء ذهن؛ إذ حتى الأرض الذي يتكلمون عنها ليست ملكه وحده، كل إخوته الثلاثة ملّاكٌ لها، وهم أبو عمران وأبو صلاح وأعبلة أم صبري، لم يبق له إلا أن يتجه إلى أخته عبلة ليطمئنّ عليها ويستشيرها أيضا، والتي تسكن بجواره، دخل عليها وهي التي تترقب أن يأتي زوجها معه، تطل برأسها؛ المغطى بشال أسود مطرز بالبياض؛ نحو الخارج، تلتفت إلى كل إتجاه، ترفع رأسه المشدود نحو الأعلى، ثم تنظر إلى الطريق الذي أتى منها أحمد؛ لعلها تلمح زوجها قادم من هناك، تفتّش في ملامح وجه أخيها، لتكتشف وجهًا بائسًا لا يحمل أي تعابير للفرح وللبشارة، تيقّنت بأن زوجها لم يأتِ، ولم يطلق سراحه، لتنهمر باكيةً:

- أين زوجي يا أبا علي؟ أخبرني أين هو؟ أين هو؟

لم يجبها، فالجواب واضح، شعر في هذه اللحظة القاسية، أنه هو السبب الأول في أسْر إخوته عندما احتجوا من أجل ابنه، لذلك فهو يشعر بالذنب لما حدث، جاء محمّلاً بحيرته، يستشير أخته عن هذه الكارثة، لأنه

يثق في رجاحة عقلها رغم انها تصغره سناً، كثيرا ما أبانت للعائلة رجاحة عقلها وعين الحكمة في رأيها، حتى باقي اخوته يلجؤون إليها عندما تستعصي عليهم بعض المشكلات، انتظرها بعد أن هدأت، كانت جميلة الوجه بعينين سوداوين كبيرين، تتحدّث بهدوء ورزانة تقل عند باقي نساء الحيّ، قصّ عليها أحمد ما حدث معه، معبّرا عن حيرته، قائلاً:

- ماذا أفعل؟

بصوتٍ خافت همست، وكأنها لا توجّه له الحديث:

- الأرض.. زوجي.. إخوتي.. ابن أخي..؟

بعد فارق وقت غير قصير، ونظرات متبادلة مع بعض، أطالت النظر في سقف الغرفة، ثم تساءلت:

- لكن.. مَن الأغلى؟

كان سؤالا قصيرا، لكنه كثيفٌ جدا، سؤال محيّر، يحتاج إلى تفكير عميق، تصعُب المفاضلة بينهما، تحتاج الإجابة عن السؤال مزيدا من تفاصيل السؤال نفسه؛ التفاصيل هي التي تجعل الإجابة أكثر صحّة، ليردّ أحمد بعد تفكير:

- أعلم أن إخوتنا وابني هم الأغلى، لكن الأرض كذلك جزء منّا، وطلب استئجاره من طرف الإنجليز هي طريقة ما من أجل الإستيلاء عليها.

- لكن كان يمكنهم الإستيلاء عليها دون استشارتك.. وقتل الأسرى.

- لا يستطيعون فعل ذلك، لأنهم سيجلبون ثورة الناس عليهم.

- للثورة ثمن غالٍ وعمرٌ طويل جدا، الوقت يمرّ، وزوجي مهدّد بالإعدام، وإخوتنا كلهم معرضون للقتل على يد الإنجليز، وابنك عثمان في وضع بائس أيضاً.

تنهّد أبو علي من هذه المعضلة، فكر أن الثورة لا تنطفئ جذوتها مهما خبت، وأن التأجير لا يعني البيع، والتربص انتظارا لا يعني الاستسلام، والتأهب دأب لا يمكن ذمه دائما، وأن الإحتلال سيذم مهما زبن وجهه القبيح، ويجب إتباع أسلوب مخادع كما يفعل هو تماما.

خلص أحمد من تفكير عميق، إلى أن استأذنها في إمكانية تأجير الأرض لهم، لكنه أخبرها أنه قبل ذلك سيرى رأي المختار لمساعدة في حل هذه العقدة، رغم أنه أشيع أن المخاتير قد فقدوا هيبتهم يوم دخل البريطانيون البلاد، فتفاجئه عبلة أنها سمعت بأن المختار قد أقيل من منصبه، وعُيّن مختار جديد من طرف الإنجليز لأنهم يرونه أولى بهذا المنصب، يقاطعها أبو علي:

- من هذا الذي عينه الإنجليز؟

- لا أدري، ما دام قد عيّنوه هم، فهو يؤيّدهم أو يسايرهم.

ارتبك من هذا الخبر، إلى أن ردّ:

- رغم ذلك، فسأذهب إليه.

غادرها وفي ذهنه أن يقبل الإقتراح، لا يمكن أن يُخاطر بحياة ابنه وإخوته عند الإنجليز، يمشي حزينًا نحو المختار الجديد، ربما يجد مخرجا ما، فيقترحه عليه دون أن يخسر الأرض، أو ربما ضامنا ما كي لا يخسرها بشكل نهائي، غير انّه يشكّ في أمر هذا المُعين الجديد، لذلك سيقطع الشك باليقين عندما يلتقيه.

بدا المختار الجديد رجلا مُسِنًا يكسو رأسه الشيب، لكنه بدينا، ليس من أبناء منطقة يافا، إذ لم يره أحد من قبل، على رأسه طربوش بنّي اللّون ووجه دائري أبيض منتفخٍ بشارب دقيق، يرتدي لباسا جديدا وقد اعتنى بهندامه إعتناء ظاهرا، وعندما دخل عليه في مكتب المختار رحّب

به، وطلب منه الجلوس، غير أن أبو علي لا يظهر أي تجاوب مع ابتسامات المختار الجديد، كيف له أن يبتسم والإنجليز يعبثون بأبناء البلد، وربما يكون حانقا على الأتراك العثمانيين، كان قد سمع وهو في طريقه إليه أن المختار كان مسجونا في أحد سجونهم، لكن لا أحد يعلم؛ لماذا سُجن؟ ويتساءل أبو علي في نفسه؛ كيف لسجين أن يصبح في منصب مختار مباشرة دون أخذ رأي أهل المدينة، لم يسبق أن عُين مختار دون استشارة أعيان المدينة، يعتبر المختار مَن بيده الحل والربط، كان سابقا يدافع عن الأهالي ويقدم الضريبة الجماعية للدولة، ويتقدم الناس في كل مناسبة سواء سعيدة أو حزينة، وكان يحظى سابقا باحترام الجميع وبحبّهم، أما الآن فقد اختفى مستقيلا، تاركا منصبه، وقد شاع أن الإنجليز جاءوه من قبل وهدّدوه، اتُّهُم أنه لم يقبل بوجودهم وبتحريضه للناس ضد الإحتلال، تأكّد الناس بأنها إقالة مقصودة.

بدا المختار سعيدا جدا في تعيينه، يظهر ذلك من خلال بريق عينيه، عُرِف بأنه كان تاجر سمسار أراضي وعقارات وتورّط في أعمال تزوير في مناطق أخرى.

بادر بالكلام بصوت خشن إلى أبي علي:

- أهلا وسهلا بك، أيمكنني أن أتعرف عليك.

- أنا أحد وجهاء أهل المدينة الذين تأذّوا بما فعله الإنجليز.

فهم المختار أنه يقصده، بأنه ليس من وجهاء هذه المدينة، وأنه تأذى ممن عيّنوه على رأس المدينة، وليس ممن استفادوا من الإنجليز؛ يقصده، بأنه هو أصبح وافدا غريبا إليها غير مرحّبٍ به.

بعد صمت طويل، قضاه في التفكير في كلامه، ثم ردّ:

- وماذا فعل بك الإنجليز؟

شعر وكأن أحد الإنجليز يحدثه على لسانه، رغم أن شكله فلسطيني أبا عن جد، فأجابه:

- فعلوا الكثير.. على سبيل المثال أسروا إخوتي وابني.

- وأنت جئتَ هنا لكي أساعدك في إطلاق سراحهم، أنا لن أستطيع مساعدتك إذا لم تخبرني مَن أنت.

قال بثقلٍ لأنه شعر بدونية إتجاهه، وإستعلاءً من جانب المختار في كلامه:

- اسمع أيّها.. ال.... مختار.

صمت وكأنه تعثر في الكلام، قاطعه المختار:

- اسمي رشيد حسن.

ثم أكمل أحمد جملته:

- أما أنا فاسمي أحمد آل سامي أبو علي، وقد أسرّوا ابني عثمان في الجبهة، وأسروا إخوتي كذلك عندما قمنا بإحتجاج ليطلقوا سراح ابني المأسور منذ سنوات.

- آه.. نعم، نعم، لقد عرفتك، وسمعت بحكايتكم، لا عليك كنت مشغولا بعدة مشاكل، الإنجليز ليسوا سيئين إلى هذا الدرجة، سأتدخل لديهم حتى نجد حلا لهذه المشكلة، هل نقدّم لك شيئا تشربه.

- لا، شكرا..

- اشرب يا رجل، فلكلّ مشكلة حلٌ.

أبدى المختار رشيد اغتباطا لأن أحد الوجهاء يقصده، ففي قصد مكتبه إعترافا صريحاً به، جلس أبو علي على الأريكة المقابلة على مضضٍ، ينتظر كأس الشاي الذي لم يطلبه، في محاولة لمعرفة تدخل المختار بما ستثمر مقابلته.

بعد دقائق أتاه به أحد الفتيان الذين يعملون في خدمته، قصّ أبو علي على المختار طلبات الإنجليز، وما إن أنهى قصته التي يعلم تفاصيلها المختار، ردّ عليه قائلا:

- وماذا في الأمر إذا أجّرتْ لهم الأرض؟ أليسوا السلطة القائمة؟ أنصحك بقبول عرضهم، وستستفيد من إطلاق إخوتك وابنك من السجن، وستستفيد بالأموال الطائلة التي ستنهال عليك، وكلما تأخرت في الرد عليهم كان خطرا عليهم، كأنْ ينفذوا الإعدام في أحدهم...

وما إن أكمل جملته حتى سمعا صخبًا خارج المكتب، فخرجا مُسرعين، فوجدا جمعًا من الناس تتوسّطهم أخته عبلة وأبنائها ينوحون بأعلى أصواتهم أمام جثة زوجها المُلقى على الأرض.

في اليوم الثالث من عزاء أبي علي، قَدِمَ يوسف إيلان ليُقدّم إليه واجب العزاء في زوج أخته، يرافقه شخصٌ آخر أكبر منه عمرًا، يبدو ذلك من خلال الشيب الذي يكسو شعر رأسه، وجسمه البدين، ووجه ملتحٍ بذقنٍ أبيض خفيف، تُقلهما عربة يجرّها حصان، وجدا أبا علي يجلس رفقة بعض جيرانه من الرجال في باحة بيت كبيرة مقابل منزله؛ جعلها مكان لإستقبال المعزّين، فيما خُصّص داخل البيت الآخر لإستقبال النساء المعزيات، وبعد أن قام بمصافحتهما بوجه عبوس يتلقى تعزيتهما ونكرانهما لكل ما حصل له، جلس يوسف ورفيقه قربه، يظهران الأسف، طال صمت الرجلان يسمعان ما يدور حولهما بين كلامٍ ثنائي وآخرٍ ثلاثي.

بادر يوسف بالتحدّث إلى أبي علي:

- جئتك بصديق عزيز عليّ لأعرّفك به، إنه السيد كوهين تاجر ألماني مرموق من أصدقاء عمّي الذي توفي في ألمانيا، على كل حال، أنا آسف لأن الوقت غير مناسب لهذا الحديث، فقط أريد أن أخبرك أنه يمكنك أن تتعامل معه مستقبلا، فلديه علاقات جيّدة مع العديد من التجار في كل أنحاء العالم، وقد أتى إلى فلسطين ليستثمر فيها، ويبحث عن شركاء، ولم أجد في بالي سواك، فأنت أولى بهذا التاجر، قبل أن يتعاقد مع أي تاجرٍ غيرك.

كان أبو علي ينظر إلى ذلك الرجل القصير يلبس قبعة طويلة وهنداما مرتبا على وجهه نظارات شمسية، ثم التفت إليه، وأجابه:

- أولا، أشكركما على تحمّل عناء السفر من أجل تقديم واجب العزاء، لكن يا يوسف، هل ترى أن هذا الوقت مناسب للتحدث في مثل هذه الأمور؟

ردّ كوهين بلغة عربية رديئة:

- كلامك صحيح سيد أبو علي، نحن نعلم ما تمرّ به من محنٍ، وأنا كوني لن أمكث طويلا في فلسطين، حرصتُ على أن أراك، وقد جئت قبل أي شيء لأعزيك في زوج أختك.

أضاف يوسف:

- صحيح سيّد أبو علي، نحن نقدر ما تمرّ به من أزمات، وأعلم كم أنك ساعدتني في بداياتي، وأنا الآن أعرض عليك مساعدتي، فصديقي كوهين له علاقات كثيرة مع بعض قادة الجيش يمكنه أن يساعدك في إطلاق سراح إخوتك وابنك.

شعر أبو علي أن مساومة ما يتعرّض لها الآن، أو أنها ابتزاز لكي يقبل التجارة مع هذا الغريب الذي جاء إليه، مقابل أن يتوسط له عند الإنجليز، لقد تكلم في نقطة ضعفه حين ذكر ابنه وإخوته، غير أنه لا يعبأ حاليا بما يقترحه من تسهيلات في تجارته، بينما يتشاطران الحديث كان بعض جيرانه ينصتون إلى كلامهم، وكان الرجلان لا يريدان الإفصاح عن ذلك أمام الجميع حتى لا يكتشفا وجهة نظر جميع الحضور حول هذا العرض، إتقاء ردّة فعل تفسد إبرام الصفقة، ولأنه لم يُجبْ إجابة واضحة استمرا في الحديث، واصل كوهين:

- لا تظنّ يا سيّد أبو علي أن الأمر ابتزاز، فنحن نعرض خدماتنا عليك، وأستند في ذلك إلى وثوقك في صديقك يوسف.

قبل أن يجيب نظر إلى بعض جلسائه، ليستأنف حديثه قائلا:

- أترى الوقت مناسبًا لمثل هذه الأمور؟

- أعلم.. أعلم، سيّد أحمد، نحن نقدر ظروفك حقًا، ومتعاطفان جدا معك.

- حسنًا، ولأنكم ضيوف فإني سأقبل الحديث معكما، ما الذي تتاجر به سيّد كوهين؟ وما الذي يمكننا أن نفعله سويًا؟

سعِد كوهين بهذا الردّ الرائع، فقال له:

- حسنًا، سيّد أبو علي، أنا تاجر في كلّ شيء، ابتداءً من الذهب حتى أحذية النساء، أو أيّ شيء نتفق عليه، أو ما يناسب السوق كالحمضيات أو الزيتون، وعشقي الأكبر في العقارات بمختلف أشكالها.

ردّ أبو علي منزعجًا من حماسته الزائدة مقاطعًا:

- فهمت.. فهمت، دعوني أفكر في الأمر.

افترقا دون أن يسترسلا فيما عزما عليه، لكن الضيفان اعتبرا أن ما حدث بداية جيّدة، فما دام قد قابلهما دون أيّ اعتراض، فهو على الأرجح لن يرفض التعاون معهما.

مرّ مقتل زوج أخته مرورا عسيرا، إذ انتفض كلّ من في القرية لِما حدث، لكن الإنجليز جهزوا أنفسهم لردّة فعل الأهالي؛ قاموا بقتل بعض المنتفضين، وقتل وأصيب بعض جنود الإنجليز كذلك، كان فارق التجهيزات العسكرية حاسما في المعركة، حتى تراجع الأهالي، وبدل أن يدفنوا واحدا دفنوا ثلاثة، وأصيب عشرة من عائلة زوج عبلة.

فكّر أبو علي أنه لا مفرّ له من المضي معهما ما دام الأمر قد يؤدي ذلك إلى إطلاق سراح إخوته وابنه، وأنّ النتيجة يجب أنْ تتحقق، كما يجب عليه أن يتأقلم مع هذا الوضع الجديد، يخشى أن تهلك زوجته حزنا على ابنها عثمان، أو قد يهلك عثمان نفسه، مع أن له أولاد آخرين غيره، أكبرهم علي الذي يتولى أمور تجارته ولا يكاد يستقر في البيت، كما طلب منه ألا يتدخل في الأمر حتى لا يجرّ إلى السجن هو كذلك، وهو الذي لا يعلم أيّ سجن يقبع فيه عثمان؛ هل يأكل جيدا؟ هل يُعامل بشكل لائق

أم لا؟ كل يوم يمرّ دون رؤيته تزداد أمه نحافة وإصفرارا، فلا أكل ولا شرب ولا نوم، اقتربت من الموت لكنها لم تمت، تصرّ أختها على إطعامها وسقيها، لكنها ترفض في كثير من الأحيان، يشتركان في الدموع والآلام، لأنهما كلاهما يعرفان إحساس الأم التي تفقد ابنها، إذ لا تستطيع العيش بحياة العادية، وإن عاشت فإنها ستكون امرأة محترقة من الداخل، أما أبو علي فلا يقلّ منها ألمًا، الرجل يبدو أكثر مقاومة للألم من المرأة، يعلم أن الإعتماد مركّز عليه فقط، وفي سبيل الأمل الذي يسكنه من أجل إنقاذ ابنه وإخوته يتشبّث بطرفه، يخاف أيضا أن يفقد الجميع في ظل تغول الإحتلال، لذلك لا طريقة للوصول إلى الأمل سوى قوّة الصبر، وهو ما يملكه الآن، ويدرك كذلك أن الصبر دون أن يتحرّك صوب ذلك البصيص، لن يصل إلى مبتغاه، قرّر بعد أشهر مضطرًا أن يذهب إليه؛ وفي المكان الذي إتفق عليه مع يوسف وصديقه.

ضرب معهم موعدًا، هو يعلم كما جميع الناس أن اليهود أصبحوا الأقرب إلى الانجليز من غيرهم، كان الموعد في البيت الذي اشتراه كوهين مؤخرًا في الجانب الشرقي من المدينة القديمة للقدس، ذلك ما أخبره به صديقه يوسف الذي رافقه إلى كوهين، عندما أشار له للبيت الكبير الذي يسكنه، شعر بانقباضة شديدة في الصدر، يتأسّف سرًا عن بيع أشبه بالسرقة، يتذكر جيدا أن هذا البيت كان ملك عائلة فلسطينية مشهورة أصلها من لبنان، ويتساءل في نفسه؛ كيف انتقلت ملكيته إلى كوهين؟ لابّد أنه أغرى صاحب البيت بمبلغ طائل حتى قبِل أن يبيعه، أو أنه استغل ظرفًا من الظروف القاسية للعائلة، لكنه في الأخير، سيعرف القصة الكاملة يوما ما حين يستفسر عن بعض معارفه عن حقيقة ما حدث.

ما إن وصل إلى بيت الضيافة حتى وجد كوهين يقف منتظرًا، يحمل كأس نبيذ، مُرحّبًا به، وفي الأريكة يجلس الضابط البدين آرثر، تتوسّطهم مائدة عليها كأس نبيذ ممتلئ، ما إن رآه الضابط حتى تبادلا ترحيبًا حارًا، ثم جلس الجميع على الأرائك متقابلين.

ابتدر يوسف بالكلام بوجه منشرح، موجّها كلامه للضابط آرثر:

- ألم أقل لكما أن السيد أحمد رجل حكيم، وسيأتي حتى قبل الوقت المحدّد؟

ابتسم آرثر وكوهين.

ردّ أبو علي بصرامة:

- إذا كانت المنفعة متبادلة، فلِمَ لا؟

انطلقت ابتسامة كبيرة من كوهين، ثم قال:

- رجال الأعمال ينظرون دائمًا إلى المنفعة المتبادلة، لذلك فأنت حاليا غني بفضل هذا التفكير.

نطق آرثر:

- رائع سيّد أبو علي، كلامك مشجّع، هكذا يمكننا أن نتفاهم.

وقف كوهين وهو يحمل كأسه، يبتعد عن الأرائك قليلا، ثم قال:

- لندخل في التفاصيل.

صمت قليلاً، ثم أردف:

- سيدي المحترم أحمد، لقد أعجبتني أرضك الجميلة في يافا، ولديّ اقتراح أن تؤجّرها لي أرضك لمدة عشر سنوات، وسأشتري عليك المحصول الذي على الأغصان مهما كانت جودته هذه السنة، كل الأشجار بالثمن الذي تحدّده.

ردّ أبو علي بغضب:

- ماذا تقول؟ عشر سنوات كاملة؟ وماذا ستفعل بالأرض؟

ردّ كوهين:

- لا تغضب سيد أبو علي، نحن نتناقش فقط، الكلام أخذٌ وعطاءٌ، وأنت أدرى مني بذلك.

شعر ابو علي أنه فقد أعصابه، فقال:

- كيف نتناقش ؟ وأنتم تحتجزون طفلي وأخوتي وتبتزونني دون حياء.

تكلم الضابط آرثر:

- ابنك وإخوتك بخير.

رد أبو علي:

- كما كان زوج أختي بخير وغدرتم به.

وقف آرثر وقد وضع الكأس على المائدة ثم قال رافعا صوته:

- كان الخطأ خطأه حينما حاول أن ينتزع بندقية من أحد جنودنا، فلم يكن على الجندي إلا الدفاع عن نفسه.

-هذا كذب، ولقد مات زوج أختي شهيدا في سبيل حريته وكرامته.

- لا تتهمنا بالكذب، هناك شهود عما حدث.

- لا أصدقكم، لا أصدق شهودكم.

اشتد الصراخ بينهما حتى تدخّل يوسف محاولا تهدئتهما، فاقترب من أبي علي، واقترب كوهين من الضابط آرثر، حتى توقفوا جميعا عن الصراخ.

قاطعهما كوهين:

- يا سادة، لقد جئنا لنتفق، لا لنتشاجر.

ليؤكّد يوسف كلامه، يفتح آرثر علبة سجائر جديدة، رغم أن العلبة الأخرى ما زالت تحوي بعضاً منها.

حاول يوسف تهدئة أبو علي، قائلا:

- يا سيد أحمد، أنت رجل تمتلك تفكير تاجر كبير، ونحن نعرض عليك صفقة مربحة، مع كل احترامنا لك.

ساد المكان صمت متشنّج طويل، إلى أن قال أبو علي:

- حسنا، أيها ال... ما المقابل؟

صرخ كوهين مغتبطًا:

- ههه.. هكذا يكون الكلام سيّد أحمد، لم يكن هناك داعٍ للمشاجرة..

ثم اقترب من آرثر، يضع يده على كتفيه كأنه يطبطب عليه:

-سيقوم السيد آرثر بتحرير أخويك وابنك حالما نسجل التأجير دون تأخير.

رمق آرثر أحمد دون أن يقول شيئًا.

تكلم أحمد:

- أهذه صفقة تجارية أم ابتزاز من لصوص؟

انفعل آرثر من كلامه، ليهدئه كوهين، لكيلا يقول شيئًا مستفزا، فلم يرد على كلامه أحد.

إلى أن أضاف:

- ومَن يضمن لي أنّكم ستطلقون سراح ابني وإخوتي فور التسجيل؟

تكلّم يوسف محاولاً طمأنته مقتربًا منه:

- أنا أضمن لك ذلك.

دفعه أبو علي بكف يديه على صدره، وهو يقول:

- ابتعد عنّي، أنت واحدٌ مثلهم.

تراجع يوسف عنه بإشارة من كوهين، حتى لا يُثير غضب أبا علي أكثر، بينما شعر هذا الأخير أنه في وضعٍ لا يُحسد عليه، إذ هو وسط عصابة تساومه من أجل تأجير قسري لأرضه، تحت مساومات لم تحدث له من قبل، أما عن الضمان، فأيُّ ضمانٍ لن يكون كافيًا في حين فلسطين تحت سلطة الإحتلال، ما عليه سوى أن يفكر جيدا، أن يقاوم استغلالهم قدر ما يستطيع، رغم أنه ليس في مركز قوة حتّى يتفاوض.

بعد أن كان يوسف متسوّلا عند الشيخ أحمد، أصبح الآن ضامنا، وله كلمة ذات وزن، تغيرت الأمور كثيرا بعد دخول الإحتلال البريطاني الذي أصبح يستحوذ على الأراضي والعقارات بشتى الطرق كغول يبتلع الأخضر واليابس يوما بعد يوم.

بعد تفكير طويل ودون أن يقاطعه أحد، التفت أبو علي إليهم قائلا:

- لكن قبل أن يتمّ أي شيء، لدي شروط، كما أنّي لست المالك الوحيد، فعليّ أن أستشير اخوتي، وأريد أن أرى ابني أيضًا، ولن أمضي إلا وهم خارج السجن.

رد آرثر بصوت خافتٍ، و قد شبك يديه مع بعض قائلاً:

- ليس هناك أيّة مشكلة، إذا أردت أن تلتقيهم غدا، فسيطلق سراحهم في أقرب وقتٍ، لكن فك احتجازهم نهائيًا لن يكون إلا بعد أن تتمّ الإجراءات القانونية.

تمتم أبو علي دون أن يسمعه أحد:

- يا لكم من أوغاد، وهل لكم إجراءات قانونية؟

❖

أراد أبو علي أن يخفّف الوطء على زوجته التّي تكاد تموت شوقًا لرؤية ابنها، إضافة إلى أنّه يريد أن يُلقي بعض المسؤولية على إخوته حول ما

يحدث له، كان الخبر مفرحا جدا لها لترى ابنها، يمكنها أن تدفع ثمنًا يجعلُها توافق على أن تقدّم أيّ شيءٍ حتى لو تطلّب ذلك تأجير الأرض لمجرد احتضانه، عندما رأت عثمان كان عناقها لا يشبه أي عناق، تهاطلت قُبُلها ممزوجة بالدموع، كان المنظر مؤثرا في أبي علي، بثّ في قلبها بعض الطمأنينة، وفي قلبه أيضا. رغم صعوبة تفريق ذلك الإحتضان عن بعض، لكن الجنود قاموا بفصلهما، كأنهم يفصلون الشجرة الزيتون عن الأرض، غير أن الضابط آرثر وعده بأنه سيخرجه من السجن حالما يوقّع الإتفاق. أما لقائه مع أخويه أبو صلاح وأبو عمران بحضور أخته عبلة، كان موعدًا لطرح الإتفاق الذي أُقترح عليه، يريد أن يصرّح به أمام اخوته، فأخبرهم بكل شيء لكي يستقصي رأيهم حول هذه المشكلة التي وقعوا فيها جميعا.

انتفض أبو صلاح معترضًا على رضوخ أخيه لطلبات الإنجليز؛ الذي يبدو رجلاً ضخم الجسم، بملامح حادّة وعيون سوداء كبيرة، بينما بقي أبو عمران يستمع لإعتراض أخيه دون أن يقاطعه، أخبرهم أنه مستعد للموت من أجل الأرض، وأن الإنسان بغير أرض الأجداد ميّتٌ وهو حيّ، وعديم الكرامة، استمر في الحديث، انتظره الجميع حتى أفرغ ما في جعبته من كلمات حادة آذت أسماع إخوته.

إلى أن قاطعه أبو عمران مُبديًا رأيا آخرًا، قائلا:

- لا يمكن التفكير في حالة غضب، يا أخي، فنحن في موقف ضعفٍ، يجب أن نكون أذكياء في تفكيرنا لحل هذه المعضلة، فهم قادرون على استعمال القوة وقتلنا جميعا وأخذ الأرض عنوة دون تفاوض، ما الفائدة من الكلام العصبيّ الذي لن ينجي لا الأرض ولا أرواح الإنسان؟

قاطعه أبو صلاح مُنْفعِلاً:

- نموت، و لا نبيع الأرض، قد يأخذونها عنوة لكن لا نسلّمها بأيدينا.

صرخ أبو علي في وجهه:

- نحن لا نبيع الأرض، ولن نبيعها مهما كانت الظروف، أنا اتفقت معهم على الايجار فقط، مع وثائق قانونية.

- وهل تضمنهم؟ تكلّم، أتضمنهم؟

وقفت عبلة منتفضة في لحافها الأبيض الفضفاض، توجّه إصبعها في وجوه الجميع، وهي تصرخ، يتطاير الشرر من عينيها الكبيرتين:

- كفى... كفى.. أأصبحتم أعداء؟ أتمكّن منكم العدو؟ بدل أن تتفقوا تختلفوا.

عمّ الصمتُ المكانَ، صدى صوت عبلة في آذانهم، أختهم التي تحظى بهيبة ومكانة بينهم، يكنون لها احتراما كبير قل نظيره، ثم تردف:

- اسمعوا جميعا، لقد خسرتُ زوجي، ولا أريد أن أخسر إخوتي كذلك، صحيح أن الأرض غالية، لكن الأرض بلا رجال ما فائدتها؟ أخبروني إن متّم أنتم، بماذا تفيدني الأرض بدونكم؟ ففي وجودكم أملٌ دائم في إستعادة الأرض، الأرض مثل الأم تحنّ لأولادها مهما تخلوا عنها.

تنهّد أبو صلاح مطأطأ رأسه، مطلقاً زفرات ساخنة:

- أمّا أنا فلا أبيع ولا أؤجر، هذا كلامي الأخير، أتركوني أموت أو أقتل، لا تعني الحياة لي شيئا بدون الأرض، لا تؤجروا حصّتي منها.. لن أقبل مهما كان المقابل، وإن متنا فسيخلفنا جيلٌ أقوى منّا.

ضمّ أبو علي شفتيه متأسّفاً، قائلاً:

- وأنت يا أبا عمران، ما هو رأيك؟

- افعل ما بدا لك، فأنت مفوّض لما تراه مناسبا، المهم أخرجنا من هذا الجحيم.

نظر إلى عبلة، دون أن يسألها، أومأت له بالقبول بأسف، فقد صرخت برأيها منذ قليل، ثم قال:

- لا إله إلا الله.

انصرف أبو علي وعبلة من السجن، وقد قررا أن يوافقا على إيجار الأرض مقابل أن يطلقوا سراح أخويهما وابنه عثمان، الذي لم يخبره عن أمر الايجار، اشترط أحمد على الإنجليز ألا يؤذوا أخيه أبو صلاح.

تم تسجيل إيجار الأرض ما عدا حصة أبو صلاح الذي رفض تأجير حصته من الأرض، رافضًا الخروج من السجن بهذه الطريقة، رغم أن الحصص لم تكن معروفة بالدقة المطلوبة، ولا بالوثائق القانونية، لكن الإنجليز ضموها إلى أحد المعسكرات.

عانقت الأم ابنها تحتضنه ولا تكاد تصدّق عينيها بأن عثمان بين يديها، تخاف أنها الآن تحتضن روحه فقط، كان فراقا طويلا دام سنوات، كانت تظنه قد فارق الحياة، لذلك تتلمّسُه بيديه، وهي تقول:

- أأنت معي حقاً؟ لقد متّ في غيابك؟ يا كبدي.. بك استرددتُ روحي.

سأل عثمان أبيه عن سبب عدم اطلاق سراح عمه أبو صلاح، تردّد في الإجابة عن سؤاله، لكنه أدرك انه عليه أن يجيبه و لو أن الإجابة لا تعجبه، فقال له:

-لقد رفض تأجير أرضه، ورفض الإنجليز إطلاقه إلا بموافقته على التأجير.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنني أخرجتك من السجن عندما أجّرت أرضي لعشر سنوات لمستثمر يهودي يدعى كوهين، ولو لم أفعل ذلك لأعدمتَ أنت وأعمامك.

بُهت عثمان مما سمعه، كان يظنّ أن تدخّل المختار وأئمة المدينة هم الذين أرغموا الإنجليز على إطلاق سراحه، لكن الحقيقة أن رشوة غالية دفعت من أجلهما، خلال تفكيره قاطعه الأب يطمْئِنه قائلاً:

- إنه تأجير وليس بيعًا.

خرج عثمان من البيت مسرعًا حزينًا، يفكّر؛ سيفقد حق السّير على أرضه، بل سيفقد شيئا من روحه، تذكّر أنه تذوّق ترابها صغيرا، وارتشف القهوة مرة، والشاي مرات أخرى، في جلسات لا ينساها رفقة جده تحت شجر الزيتون.

يتذكّر أنّ جدّه أشار إلى شجرة الزيتون بيده المتجعدة:

- يا بُني، نحن كلما كبرنا اقتربنا من الموت، أما شجرة الزيتون كلما كبرت اقتربت من الحياة، إنّها تزداد تعمّقا بضربِ جذورها في قلب الأرض، تمتصّ من العمق ما يُبقيها حيّة وشامخة إلى الأبد، أوصيك كلما شعرت بالموت والحزن، تمسّكْ بجذورك وامتص ماء الحياة منها.

كان يشعر بِسِعةِ العالم مع كلمات جده التي تنبض شعرًا وحبّاً في الأرض، أخبره كم من مرةٍ، في لحظات صفاء:

- إننا محْسُودون على هذه الأرض يا ولدي، على مرّ التاريخ، لذا تشبّث بها كما تتشبث شجرة الزيتون بالأرض.

كانت وصيته التي كثيرا ما كان يردّدها في أذنه، كأنه كان يستشرف المستقبل، يقول له:

- إنّ هذه الأرض مقدّسة بالنسبة لنا، ولا يمكن أن نقتلع منها.

ردّ ببراءة الأطفال:

- ألا يمكن اقتلاعها إلى الأبد؟

صمت الجدّ، ثم ردّ:

- اذا سُقيت بالدم لن تُقتلع، ستصبح قوة لا تواجهها أي قوة في العالم، بل قل كل قوى العالم.

تحت ظل الشجرة سرد له حكايات لا تنتهي، حتى إذا انتهت حكايات ذلك اليوم، أطربه الجد بالزجل وغطّ عثمان في سباتٍ عميق.

لمح عثمان عدّة رجال وامرأة يطؤون أرضهم الموجودة في يافا مُترجّلين سيارتهم، يسمع من بعيد ضحكاتهم وصيحاتهم المرتفعة، ليتذكّر أن جده قد تنبأ مسبقاً بهذه اللحظة التي لم يستطع أن يستوعبها الآن، لم يستطع أن يتحمّل المشهد، صار يصرخ عليهم، والتحق به كثير من الناس، وهم يقولون متّحديين من بعيد في صوت واحد:

- أُخرجوا من أرضنا، أخرجوا من أرضنا.

حتى صار كل الأهالي يردّدون معه نفس ما يردّده، وما أن رأى الوافدون المشهد حتى هرولوا إلى سيارتهم خوفا من الجمع الزاحف نحوهم، في تلك اللحظة شعر أنه انتصر عليهم عندما هربوا، لكنه كان انتصارا مؤقتاً. مضت الليلة دون أن يعود عثمان إلى البيت، تفقّده أبوه عند بعض أقرانه، ذهب بعضهم إلى الأرض التي قيل له أنه شوهد فيها، لكنهم لم يجدوه، سمع الوالد بما جرى عندما قدِم غرباء نحو أرضه، كان يظن أنهم هم نفس الأشخاص الذين إتفق معهم على التأجير، بحثوا عنه في كل مكان، فلم يجده أحد، فأصاب الأم حزنٌ كالجنون. ومضت أيام طويلة دون أن يظهر، حتى الإنجليز نفوا وجوده عندهم، ليختفي عثمان عن وجه الأرض، وعن كل الأنظار...

خاطب يوسف الضابط آرثر مبتسمًا:

- سيّدي، أتمنّى أنّ المؤونة قد أعجبتك.

- ههه... إنها رائعة، وخاصة الفواكه المتنوّعة التي أرسلها لنا.

- ههه.. إنها من أجود ما أشتري من منتوجات أبي علي.

- أكيد تقصد سابقا، وهي الآن مُلْك كوهين.

قبل أن يتكلّم أصدر قهقهة طويلة:

- صدقت، نعم وهو كذلك.

- أرضه ذات محصول جيّد.

- طبعا.. طبعا إنّها رائعة.

- ههه أعلم، لذلك امتنعَ عن تأجيرها لكم.

-و امتنعَ عن بيعي المحلّ، معتمدًا على القانون العثماني القديم الذي يمنع اليهود عن تملّك العقارات، في آخر مرة طردني أمام الجميع، وهدّدني برمي سلعي خارج المحل عند إنتهاء مدة الإيجار، لكن لكلٍّ دولة قانونها، ولكل قانونٍ بنادقه.

أجاب آرثر ضاحكًا:

- لقد أصبح يكرهك... ههه، يجب أن يعلم أنه ليس هناك قانون عثماني الآن، الوضع تغيّر وستتغيّر القوانين، وكل قاطن على هذه الأرض له الحق في التملّك ما يشاء، لا تخرج من المحل أبدا، سنركّعه عاجلا أو آجلاً.

- شكرًا سيّدي آرثر.

انصرف يوسف إيلان من فيلا آرثر، لم يفارقه منذ تعاقد معه، دأب على تقديم المؤونة لحرس الفيلا من الجنود وكذلك للضابط آرثر وعائلته

التي ترافقه، بل وطّد علاقته بكل عائلته، تجوّل بهم في القدس وضواحيها، تحت حراسة مشدّدة.

ازداد توافد اليهود بوتيرة متصاعدة إلى فلسطين، كانوا يتوافدون عن طريق السفن من كل حدب وصوب، وأغلبهم أتى من روسيا وأوروبا الشرقية، ثم بريطانيا وفرنسا، حتى أنه لم تبق دولة لم ترسل يهودها إليها، حتى أقيمت لهم مستوطنات خاصة بهم، وأحيانا يستقبلهم يهود قاطنين جاءوا قبلهم، وتسهل لهم الإدارة الإنجليزية كل شيء؛ كانت إدارتها تشترط أن تكون الهجرة منتظمة ومصرّح بها، لكن عندما تكون غير شرعية يتم رفض رسو بعض السفن على الموانئ. لاحظ عرب فلسطين التوافد المستمر لليهود، حيث بدأ يتملّكهم الخوف مما يُخطط لهم، فازدادوا تعلّقا بأراضيهم، أفتى لهم مفتي القدس أمين الحسيني بتحريم بيع ممتلكاتهم، لكن هذا لم يكن كافٍ، فقد استطاع اليهود بمساعدة الإنجليز ومنظمات دولية مشبوهة، بما في ذلك فروع منظمة أحباء صهيون الموجودة في كل أنحاء العالم، وفروع الوكالة اليهودية؛ بالإستحواذ بطرق ملتوية على بعض العقارات والأراضي الزراعية الشاسعة في مختلف أنحاء البلاد، كانت إحدى الطرق الاغراء بالمال؛ التي قد تكون مبالغ خيالية تجعل ذوي النفوس الضعيفة تخضع لها.

كان أحمد انسانٌ نصف حيّ منذ أن اختفى ابنه، فَهِمَ أن اختفائه كان احتجاجًا على تأجير الأرض، رغم أن الأمر تم من أجل فكّ أسره، لكنه لم يقتنع، كما لم يقتنع أبو صلاح وغيره الكثير، أما هو فكذلك لم يقتنع في سريرته كما أخبر الجميع، لكن بعض الخيارات حتميّة ومُرّة، الأرضُ مازالت أرضه في القدس شامخة على جبل الزيتون، والكلام عن أرض القدس يختلف، مكان مباركٌ لا يقبل المفاوضات والمساومات، كان لا

يحتمل عدم زيارة المسجد الأقصى المبارك في كل أسبوع، كانت العائلة تمتلك ثلاثة قوارب تدرّ عليهم أموالا طائلة.

اشْتكى البحّارة من تضييق الإنجليز عليهم من حين لآخر، يمنعونهم من الصيد بحجة أن هناك تدريبات عسكرية، أو بأي حُجّة واهية، وفي أحيانا أخرى يستهدفون محيطهم بإطلاق النار لتخويفهم.

أنكر الإنجليز وجود عثمان في قبضتهم، وأقسم آرثر أنّه ليس في معتقلاتهم، وأكّد له أن سجلات السجون لا تتضمّن اسمه، حتى طرح عليه فكرة أن يجوب كل السجون للتأكّد بنفسه، أخبره أنه لو أراد أن يخطفه، لماذا يكون قد أطلقه أصلاً؟ لمْ يصدّقه، فراسل المفتي كي يتدخّل لدى الإدارة الإنجليزية، لكنه سمع نفس الإجابات.

❖

مضتْ عشر سنوات دون أن يظهر، أصبح في حكم الميّت، ولم يتبق إلا شهر على إنتهاء عقد الإيجار الذي سرى بين أبي علي و وهين. فتنقّل أبو علي إلى كوهين، لكنه هذا الأخير رفض استقباله، ثمّ توجّه إلى يوسف، فتهرب كذلك من ملاقاته، تأكّد أنه يتعرض لمؤامرة كبيرة، هرول إلى محله غاضبًا لطرد العمّال، فوجده فارغا وقد غير الأقفال كلها وحصنه جيدا من أي محاولة كسر له، لينطلق بعد ذلك إلى مكتب تسجيل الأراضي في القدس، فوجد أن كل موظفي الإدارة هناك قد تبدّلوا، وعندما طلب منهم عقده لكي يفسخه، وجد أن العقد قد تبدلت صيغته من إيجار إلى بيع، فإستشاط غضبا وكاد يجن مما اكتشفه، بدأ يصرخ في المكتب، يلوّح بيديه في كل إتجاه، حتّى طرده الجنود الذين كانوا يحرسون مدخل المكتب، فجنّ جنونه أكثر، يشتم ويلعن اليهود والإنجليز، في نفس تلك اللحظة كان بعضهم يمرّون قربه متجهين إلى حائط البُراق يحملون ستائر بيضاء، وشموعا طويلة، وأبواقا مخروطية الشكل، عاد مهرولا يحمل

قضبان حديد، وضعه في حلقات الأقفال ليقوم بكسرها في ثورة غضب، حتى كسره ودخل المحل وقام برفع كلّ بضاعة يراها أمامه يقذفها خارج المحلّ، جاء إليه العمّال يحاولون منعه من ذلك، فيما بقي يوسف يراقب الوضع من بعيد دون أن يتدخل في الشجار الناشب أمامه، ودون أن يتدخل لمنعه، غير أنه عندما لمحه أبو علي بدأ يصرخ باصقا في وجهه، دون أن يتمكّن من الامساك به، فلم يستطع أن يطاله إذ حال بينهما كثير من الناس.

قال بصوت عالٍ:

- أيها الخائن؛ أخرج من محلّي، لا إيجار لك هنا بعد الآن.

ثم علا صوته أكثر، ليعاير اليهود بالخيانة والعمالة للإنجليز، حتى توافد حوله الناس، وكلّ مَن كان في الأسواق، يصرخ كالمجنون يسبّ المارين منهم، يصفهم باللصوص عندما سرقوا محلّه، وزوّروا عقده، ليبدأ بعضهم بالصراخ معه مساندين له، لتشتعل النار التي كانت تتقد في قلوبهم ممّا يرونه من تزايد سطوة اليهود المتنامي في ظلّ حماية البريطانيين، فكبرت التظاهرات في لحظات معدودة ليتجمع الناس من كل مكان، شحذ الجنود أسلحتهم محاولين بالقوة تفريقهم، لكن الجموع تقاومهم، يتدافعون فيما بينهم في كر وفرٍ، لتبدأ المقذوفات تتطاير بين المتظاهرين، فيحتمي اليهود وراءهم ومعهم يوسف، يتقاذفون كل شيء يجدونه أمامهم، ويرد عليهم العرب ومعهم أبو علي برمي كل شيء يمكن أن يؤذي خصومهم، إلى أن بدأ الجنود بإطلاق البارود من بنادقهم، ليسقط جرحى كثيرون وسط المحتجّين، يلتقطهم آخرون حتى لا يُأْسرون أو يقتلهم اليهود، استمر الإشتباك وتوسع أكثر من أسبوعين دون أن يتوقف

حتى استقدمت الإدارة الإنجليزية مزيدا من القوات، لتتحكّم في الإشتباكات.

أسر الجيش خلال المظاهرات المئات من الفلسطينيين، وخلفت المشادات قتلى من الجانبين، وكان من المصابين أبو علي بإصابة مباشرة في عظمة ركبته اليمنى، حتى تهتكّت، ليفقد وعيه في المكان، لكن من حسن حظه أنه انتشل من طرف بعض المتظاهرين، ونُقِل إلى المشفى ليلتها فاضطر الطبيب الذي عالجه إلى قطع رجله حتى يوقف النزيف الحاد، وينقذ حياته من الهلاك.

أُجلي بعد ذلك سرا نحو منزله في يافا، بعدها أعدم الانجليز بعدها ثلاثة أشخاص شنقاً، وأبقوا في الأسر المئات منهم.

عندما استفاق أبو علي من غيبوبته وأراد أن يقوم من مكانه اكتشف أنه فقد رجله في ذلك اليوم المشهود، تسرّبت من عيونه دموعا حارة لم يستطع أن يمسكها، كانت تجلس قباله أخته عبلة، تنثر دموعا لما آلت إليه حالته، سأل عن أبنائه الذين فروا من قبضة الإحتلال خوفا من إعتقالهم مع أخوهم علي.

قال لها متنهّدا:

- يا ليتني متّ، ولم أعش إلى هذه اللحظة، فقدتُ رجلي التي أقف عليها، فقدتِ زوجك وفقدتُ ابني الذي اتكلت عليه، وبعدها ماتت زوجتي كمدا، والآن أفقد المحل والأرض.. يا لهذا الكوارث العظام.

تأوهّتْ عبلة طويلاً، وكأنها تقذف من صدرها هواءً حارًا مملوء بالأسى والألم، تريد أن تقول كلاما أكبر من كل الذي حدث، فقالت:

- آه.. لن نتنازل على الأرض يا أخي، مهما فعلوا.

رد حانقاً:

- بهذا القدم المبتورة؟

- القلبُ هو المهم؛ وليس القدم، هناك أرجل سليمة في الأنحاء لا تتحرّك في إتجاه الحق قيد أنملة، بل أكثر من ذلك؛ تخون الأرض.

كانت كلماتها دواء ليأسه الذي أصابه بعد بتر قدمه، كانت دائما البلسم الذي يعالج جرح روحه في أحلك الظروف.

تحسّر، ثم يشهق باكيًا، قائلا:

- إنها غلطتي عندما وثقتُ في أولئك الملاعين.

قاطعته عبلة:

- ليست غلطتك، كنت مجبرا في سبيل تحرير إخوتك وابنك، ولم يكن العقد بيعًا، كان يمكنهم أن يخِدعوك بأيّة وسيلة، لا تقتل نفسك بالتحسّر والهمّ.

- كيف لا أفعل وأنا السبب...؟!

كانت محاولاتها تبدو يائسة لكن لم يكن لها مفعول والحادثة قريبة من الوقوع، مضت أياما طويلة تأتيه مواسية، وقد وضعت بجانبه عصا يتكأ عليها كلما أراد أن يقوم إلى حاجةٍ ما.

بعد ليالي طويلة، وفي ليلة دامسة يطرق بابه طارق ثم يدفع الباب ويلج الغرفة، جعله يُمسك عصاه، يتوجّس خوفًا من القادم في منتصف الليل، لكن الباب ينفتح بهدوء مُحدثًا صريرًا خفيفا، أضاء أبو علي فانوسه، فإذا هذا الشخص الأشبه بالشبح يُسرع إليه معانقا، وهو لا يزال مستلق في سريره، ليسمع صوتًا يناديه:

- أبي.. أبي.. أبي.

دفعه بهدوء إلى الوراء لكي يواجه وجهه؛ كان وجها جميلاً ظنّ أنه فارق الحياة، مضت عشر سنوات دون أن يراه، قال بحشرجة:

- ابني عثمان، أأنت عثمان؟ أأنت حيّ حقاً؟

- نعم، أنا حيّ.. أنا حي، يا أبي.

- أين كنت؟.. قلّي.. أين؟

- سامحني يا أبي، إنه قصة طويلة جدا...

ضمّه مرة أخرى، نسى فقدان قدمه، عودة الابن تجعل القدم شيء ثانوي، وجوده قربه في هذا الظروف أعظم تعويض عمّا جرى له، فقدَ قدمه واستعاد ولده.

أخبره الأب معبّرا عن ارتياحه:

- كم اشتقت لك يا عثمان، وتبدو بصحّة جيّدة يا بُنَيّ، صار فيك شيء من الشيب.

- الحمد لله.

- أتعلم ما حدث لنا؟

- أعلم كل شيء، غير أنّني كنتُ بعيدا جدا من هنا.

- أين كنت إذًا؟

-كنتُ بعيدا جدا.

- لماذا هربت؟

- سامحني يا أبي، كان يجب أن أفعل ذلك، شعرتُ بأن جدي يطاردني عندما فرّطنا في الأرض، شعرت أن ترابها يلتهب تحت أقدامي، فركضت، و كضت، حتى كاد ينفجر قلبي من الركض، ثم فكرتُ كثيرا، وبكيتُ كثيرًا على جدّي وعلى أرضي، كان كلامه يطاردني في كل مكان، شعرت بالعار والخزي، يناديني، بقوله؛ أيّها الخائن.. أيّها الخائن.

بكى الأب بشدّة، حتى جعل عثمان يحتضنه، ويطلب منه الكف عن البكاء، قائلا:

- اذاً أنا خائن.. أنا خائن...

أمسكه من كلتا كتفيه، قائلا:

- أنتَ لستَ خائنا يا أبي، حاشاك أن تكون خائنًا.

استمرّ في بكائه، وارتعب عثمان عندما أخبره بتلك الكوابيس التي رآها ابنه، وهو يردّد ذارفا للدموع بغزارة:

- كان عمّك أبو صلاح مُحِقًا... وأنا كنت الغبي المتواطئ.

قام عثمان ليطبخ له بعض الأعشاب لتهدأ أعصابه، كل الكلام الذي سيقوله لن يخفف عنه الشعور بالندم، لكنه كان مجبرا على القدوم إليه عندما سمع أن رِجْل أبيه بترتْ أثناء ما سمي بثورة فلسطين الكبرى.

كان خطرا عليه أن يأتي، لولا أن الشيخ عز الدين سمح له بزيارة أبيه سرا، فالعيون تتربّص بهم في كل مكان من أجل تتبّع حركاتهم منذ أن قدموا إلى بيافا.

❖

كان عثمان قد إلتحق بجماعة الشيخ عزّ الدين في ضواحي دمشق في مكافحة الإحتلال الفرنسي، قبل أن يغادر عثمان بيت أبيه إلى دمشق، كان قد إتجه نحو القدس، ليختبئ عند صديقه المسيحي أحمد عامًا كاملا، يقاسمه المعيشة بموافقة أبيه، يُخفيه عن أعين الناس حتى لا يكشف مكانه أحد.

بعدها دلّه أحد الشبان نحو الطريق إلى الشيخ عزّ الدين؛ الذي كان يقود بمقاومة شعبية في سوريا حتى يكون عنصرا من عناصره، ودّع صديقه أحمد وانطلق بين الأحراش والغابات نحو الرجل الذي يفكّر كما يفكّر هو، حتى تمكّن من الوصول إليه.

كان عزّ الدّين رجلا مهيبًا، ذو لحية طويلة سوداء بها شيء من الشيب المتفرق، يضع على رأسه عمامة بيضاء، مع قميص أسود طويل،

له مشيةٌ داخل المسجد تمتاز بالهيبة والوقار، وهو الإمام فيه، يشعّ وجهه نورًا، يراقبه عثمان دون أن يتحدث إليه بما يريده منه، لاحظ وقد إلتفّ حوله بعض الأشخاص، يتبادلون معه أطراف الحديث، كان ينظر إليهم منذ دخوله حتى خروجه، انتبهوا له، ليكتشفوا أنه غريب عن البلاد، كان دائم التردّد على المسجد، يتربّص بالإمام عزّ الدين يوميًا بعيون مُعْجبةٍ، إلى أن جعل الشيخ يستدعيه إليه، حتى يستقصي.أمره ويسأله شخصيًا، بعد أن تأكّد أنه ليس عينًا من العيون المُتجسِّسة، فلا تكون العين بمثل هذه السذاجة ليُكشف أمرها.

في نهاية إحدى الصلوات اقترب الشيخ من عثمان واستأذنه ليجلس إليه وحيدين، إلا رجلين اثنين يجلسان في آخر المسجد، كأنّهما يحرسانه.

بعد أن ألقى عليه السلام، سأله:

- هل لي بمعرفتك، أيها الضيف؟

- أكيد سيدي، أنا إسمي عثمان أحمد آل سامي، جئت منذ أيام من يافا.

صمت قليلاً، كأنه يريد كلاما يحتاج إلى شجاعة هائلة، حتى أضاف:

- جئتكَ أطلب الإنضمام إليكم.

انبهر الشيخ من الطلب الشجاع المباشر لهذا الشاب، ومن قطْعه لكل المسافة بين يافا مشيا على الأقدام، حتى وصل اللاذقية رغبة في الجهاد على أرض سوريا تاركًا بلاده، سرد له القصة الطويلة وسبب مجيئه إليه، أخبره بأنه متمكّن جدا في الأعمال العسكرية، وأنه سيُفيده كثيرا في الميدان، لكن الشيخ لايزال يتوجّس خِيفة منه، ولم يرد عليه بالإيجاب ولا بالسلب، جعله ينتظر وقتًا طويلاً، صارحه بأنه سيسأل عنه، ويستقصي عن قصّته، كأنه يُعطيه فرصة للإنسحاب إذا ما قرّر العودة،

ليعرف حجم إرادته، لكنه أصرّ على البقاء، وأبان عن قوة عزمه، ظل يجلس في نفس المكان مدة ثلاثة أيام دون أن يملّ أو يكلّ، حتى تأكد الشيخ من قصته كاملة، ومن مدى إصراره على الإنضمام.

وفي آخر الليلة الثالثة بعد صلاة العشاء، أصاب شيء من الإحباط قلب عثمان عندما إنصرف الشيخ دون أن يلتفت إليه وفرغ المسجد من رواده تمامًا، إلا القيّم على المسجد الذي تقدّم نحوه، ظنّ أنه سيطرده من المكان كما كان يفعل معه كل ليلة، ليذهب يقضي ليلته في مكان آخر، لكن الرجل هذه المرة لم يطرده، بل قال له يهمس له كأنه يخبره سرًا:

- أن الشيخ يريدك، تعالى اتبعني.

اغتبط أيما اغتباط وكأنها بشارة طال انتظارها، سار خلف الرجل، خرجا من المسجد، واخترقا بعض الأزقة، حتى ولجا غابة محاذية للمسجد، ثم تجاوزا كثيرا من الأحراش الطويلة في طريق بدت طويلة، كان ليلاً حالكاً جدا، لا قمر فيه، ولا تسمع فيه إلا أصوات البوم والضفادع والضجيج الذي يحدثه ملاطمة الحشائش بقدميهما، حتى انتهوا بعد ساعة من السير إلى ساحة يجلس فيه سبعة أشخاص على أحجار على شكل قوس، كلهم ملثمون إلا الشيخ، يلبسون قمصانا سوداء، يحمل كل واحد منهم بندقية مع خراطيشها.

ابتدر الشيخ مستأنفا الاجتماع، مُوجّهًا كلامه إلى عثمان:

- لقد قبلنا انضمامك إلينا، وقد أحضرتك إلى هنا كي يراك ويسألك الرفاق ويتعرفوا عليك، أعطيتهم الحرية في أن ينزعوا اللثام ويظهروا وجوههم لك إن أرادوا، فبعد أن سمعوا وتأكدوا من قصّتك، يريدون الآن أن يتكلموا معك مباشرة حتى يطمأنوا.

- أنا مستعدٌ لأيّ استفسار، ومن حقّكم أن تطرحوا عليّ أي سؤال تشاؤون.

صمت الجميع انتظارا لمن يتكلّم، حتى تكلّم أحدهم لم يستطع أن يميزه عثمان من بين الحضور، فالشفاه لا ترى تحت اللثام والليل يجعل التمييز صعبًا، قائلا:

- أنت حاقد على الإنجليز ونحن نجابه الفرنسيين، فكيف يستقيم الأمر؟

-هم عدو واحد في نهاية الأمر، ولولا تحالفهما مع بعض ما تمكّن أحدهما هنا أو هناك.

هزّوا رؤوسهم إعجابًا بالرّد.

سأله أحدهم:

- هل تصلّي بانتظام؟

قاطع الشيخ الحديث، قائلاً:

- هذا سؤال ليس مناسبًا هنا، لكنّي أشهد له بالتردّد على المسجد.

تململ الرجل مُبْدَيًا حرجًا من تدخّل الشيخ للردّ على سؤاله.

عمّ الصمت بين الجالسين، حتى قام الشيخ نحو عثمان يضرب على كتفيه ومعانقا له، قائلا:

- مرحبًا بك بيننا يا عثمان.

ثم التفت إلى الرجال الذين وقفوا لوقوفه، يدعوهم لعناق العنصر الجديد الذي جاء من أقدس الأماكن، وهو يردّد لهم:

- هيّا.. عانقوا الرفيق الجديد، المغوار الفلسطيني عثمان.

الْتفّ كل الحضور حول المجاهد الجديد يعانقونه الواحد تلو الآخر، ثم افترقوا وقد أوصى القيّم على المسجد أن يعتني به، إلى أن يخبره بما سيفعله لاحقا، طار فرحًا عثمان لقبوله في صفوفهم.

في بداية عمله كلفه الشيخ بمهمة الاستكشاف والتجسّس، دون أن يمنحوه أي سلاح، وكان كلّما كلّفه بمهمة ما؛ أرسل وراءه من يتأكد من حقيقة ما أتى به من معلومات، شعر أن أحدا من رجال الشيخ يراقبه، وكان لا يُبدي انزعاجا، لعلمه أنها ضرورة حتمية، يعرف ذلك نتيجة لتكوينه العسكري، وفي يوم من الأيام صارحه الشيخ بأنه كان يراقبه ويتوجّس منه خيفة، أبان له عثمان عن نباهة وذكاء حاد، جعله يقربه إليه شيئا فشيئا.

وفي أحد الأمسيات أخبره الشيخ أن يُجهّز نفسه لعملية مهمّة هذه الليلة، دون أن يحدّد له الوقت بالضبط. غير أنه في الثانية بعد منتصف الليل، اجتمع جميع عناصر المجموعة في عمق الغابة، أخبرهم أنهم مقبلون على تنفيذ عملية هجوم على ثكنة عسكرية تقيم حفلة صاخبة، لتكون فرصة ذهبية انتهازا لوجود الحرّاس مخمورين في نوبة الحراسة الليلية على باب الثكنة، هدف العملية قتل حارسين وإنتزاع بندقتيهما، ينفذها إثنان من الجماعة فقط، مع بقاء الآخرين كفريق إسناد يتدخلون في حالة حدوث مشكل ما، يساعدهما عثمان الذي يقوم بالتمهيد لها، عندما يستكشف محيط الحارسين، ويقوم بالتصفير عندما يتأكد بأن الظروف مواتية للبدء بالعملية، دون أن يثير انتباه أحد.

اقترب المجموعة متفرقة من بعيد لكيلا تُلفت الانتباه، يسمعون الصخب يرتفع داخل الثكنة، بينما يقف الحارسان مخموران يتمايلان في ضحك متواصل، يحاولان عدم السقوط مستندين على الجدران، أحدهما

ضخم الجثة والآخر نحيف، كانت الخطة تقضي بأن يقترب اثنان إليهما كلٌ من جهته، يحملان خلف ظهورهما خنجرين كبيرين، يسيران قرب الحارسان، حتى يجهزا معًا على الحارسين، ولمّا قام عثمان بالتصفير لهما، رشق الأول سكينه في رقبة الحارس حتى انفجرت بالدماء، وفقد السيطرة على بندقيته، فالتقطها الرجل وفرّ من المكان هاربا، بينما فشل الآخر في رشق السكين في رقبة الحارس الضخم الذي رفع يديه يمنع السكين أن يصيب رقبته فيجرحه، فضرب بلكمة يده الأخرى وجه المهاجم حتى أفقده توازنه وسقط السكين من يديه، مما جعل عثمان يسرع إليهما، فحاول المهاجم الهرب بعد أن علم أنه أخفق، تمكّن الجندي خلالها من رفع بندقيته ليطلق طلقة عليه أصابت قَدَم المهاجم، فقفز عثمان يطعن الجندي طعنات عميقة في كامل أنحاء جسده، حتى سقطت البندقية من يده فالتقطها وانسحب هاربًا، لتدوي في الأنحاء صفارات الإنذار في الثكنة، ولم يتمكّن عثمان من جرّ صديقه المصاب، فطلب الصديق منه الهروب، وأخْذ السلاح قبل القبض عليه؛ يلحّ عليه ألّا يلتفت إلى الوراء.

انسحبت المجموعة وقد غنمت بندقيتان وخسرت رجلاً من رجالها، اختفت في الأحراش أياما طويلة، وهي لا تعرف، ماذا تُسمّي هذه العملية، أهي عملية ناجحة أم فاشلة؟ افترقت بعدها المجموعة دون أن تضرب موعدا للقاء، أخبرهم الشيخ أن القبض على أحد رجاله خطرٌ كبير عليهم جميعا، ولن يستطيع رفيقهم المقبوض عليه مقاومة التعذيب إلى الأبد.

لم يلتحق الشيخ بالمسجد بعدها واختفت مجموعته، لأن جنود الإحتلال الفرنسي وأعوانه يتربصون به في كل ركن من أجل القبض عليه، حتى قرّر أن يعقد اجتماعًا طارئًا قبل أن يتهاوى رجُلُهم ويعترف بكل أسرارهم، وعندها جمعهم واتفقوا على السفر قبل أن تقبض عليهم

كمّاشـات الإحـتلال، و لمّـا سـأله عثمـان متعجبـًا عـن المكـان الذي يقصدونه، أجابه الشيخ عز الدين:

- سـنذهب إلى الأرض المباركـة الـتي جئـت منهـا أنت... قِبْلتنـا هي عروس البحر..

وضع عثمان يده، يتلمّس شاهدًا لقبر أمه، كأنّما يتلمّس يد أمّه حقيقة، المرأة التي تألّمتْ لأجله أكثر من أي شخص في العالم، وكانت مستعدة للتضحية بكل العالم من أجل إحتضانه، وها هي قد ضحت بحياته من أجل أن تلتقيه، ظنّت أن الإنجليز هم الذين خطفوه وأعدموه، كما فعلوا بالكثيرين، فذهبت شاكية إلى المكان الذي لا تمنع فيه الزيارة، إلى السماء حيث رحمة الله أوسع من الدنيا، هناك لا يوجد الإنجليز ولا ظلم، يتحسّر هو لأنه لم يستطع الحضور للجنازة، كان حينها في سوريا، يتنقل متخفّيًا بين الأزقة والحدائق، لم يكن سهلا أن يخبره الشيخ عزّ الدين ذات مساء عن وفاتها، كان خبرا صادما بالنسبة له، نزل على سمعه كالصاعقة، رغم تمهيدات الشيخ عن حقيقة الموت وما وراءه، لكن كان التمهيد دون جدوى، فموت الأم لا يجدي فيه أي تمهيد، كأنما العالم كلُّه مات، لم يكن الموت طبيعيا في رأيه، الإنجليز هم الذين قتلوا أمه، والإنجليز هم الذين شرّدوا عائلته، والإنجليز هم الذين سرقوا أرضه، وأسرّوا أعمامه، وفعلوا أشياء بشعة جدا...

منذ مجيئه مع جماعة الشيخ تفرّق أصحابه في أحياء مدينة يافا، بينما هو اختفى عن الأنظار قدر الإمكان كما نصحه الشيخ، فعيون الإنجليز تلاحقه في كل مكان في فلسطين، كانوا يراقبونه في مسجد الإستقلال الذي إعتاد الصعود والخطبة على منبره، يدعو محرضًا روّاد المسجد حتى يدافعوا عن أراضيهم، يزرع في قلوبهم بغض الإحتلال مهما كانت جنسيته، كانت إحدى خطب يوم جمعة ساخنة، جهر بها بمعاداته للفرنسيين والإنجليز وكل من يدعمهم، يدعو علنًا دون خوف إلى الجهاد، حتى أنه أخرج من تحت حزامه مسدسا أمام جموع المصلين، وقد

تمكّن منه الغضب عند سماعه لأسر بعض الأهالي، فأنكر بعضهم تصرفه ذلك، واعتبروه تهورا، بينما أُعجب آخرون بشجاعته النادرة، فذاع صيته في المدينة، وأصبح المسجد لا يتسع للمصلين كل جمعة لكثرتهم، فأثار ذلك الاستقطاب الذي قام به خوف الإنجليز، فأوفدوا العيون الكثيرة هناك، كان يعلم أن المسجد مكتظ بالعيون الخائنة، فيخبرهم مباشرة علنًا دون مواربة؛ أنه يعلم أن بين الجالسين خونة، وأنهم لم يأتوا إلى الصلاة، ولا إلى التفقّه في الدين، وإنما غايتهم جلب الأخبار لأسيادهم، فيضع بعضهم رؤوسهم في الأرض، يهدّدهم بوعيد الله لهم بالعقاب الشديد في الآخرة وخزي الدنيا، وأن خيانة الوطن خطيئة كبرى، ولكن لا حياة لمن تنادي، فهو يعلم أنهم قد باعوا أنفسهم للشيطان.

لم يأذن الشيخ لعثمان أن يزور أباه، لأن لديه معلومات أنّ هناك ترصّد لجماعته السرية التي سماها العُصبة؛ ترصدٌ يتم في أنحاء يافا كلها، فمنع عنه زيارة أي شخص ما عدا صديقه المسيحي أحمد شرط أن تبقى سرًا، وهناك في القدس كلّفه بأنْ يراقب حركة الإنجليز وحركة عصابات الهاغانا والأرغون أيضا التي تغوّلت في أرجاء فلسطين، كان يمرّ أكثر من مرة على محل أبيه، يراقب يوسف فيلاحظ توافد كثير من الجنود إليه. يرى كيف أصبحت خيرات أرض جده في متناول أيادي الأغراب المحتلين، يأتون إليه كل يومين يحملون كمّا كبيرا من الفواكه والخضر، يحملونها إلى فيلا الضابط آرثر والثكنة التي تجاوره، لقد تأكد أن كوهين ويوسف ما هم سوى وسطاء وسماسرة للجيش الإنجليزي، وكلما نظر إلى تلك المشاهد أحسّ بوخز في صدره. اكتشف أن يوسف اشترى فيلا فخمة، وبدأ يمارس السمسرة مع كوهين، يقومان بترصّد السكان المتورطين في مشاكل مالية كالضرائب ليعرضوا عليهم شرائها بثمن مرتفع، ثم يقومان

بإعادة بيعها إلى وافدين جدد، لذلك فكّر أن يفْتِك بهم جميعا، لكنه يتذكر أن الشيخ نبّهه، ألاّ يقوم بأيّ عملية دون استشارته، كان دوره الأساسي هو المراقبة من بعيد لا غير في سرية تامة، وألاّ يخالط أحدا إلاّ متنكّرا وحذِرًا.

كان صديقه أحمد لا يعرف ما يخطط له عثمان، يُخفيه وجوده دون علم أبيه القسّ مارون؛ حيث كان الأب يكاد لا يغادر الكنيسة إلا نادرا. يتفق أحمد مع رفيقه في إعتبار الإنجليز عدوّ مشترك للوطن الذي يتقاسمانه، لذلك عاهده على المساعدة وفاءً للوطن، لكن عثمان إعتذر لصديقه أن يحكي له تفاصيل تحركاته والجماعة التي ينشط معها، لم يكن السبب هو عدم الثقة، ولكن السبب الخوف من أن يتأذّى أحمد لو عرف تحركاته، عندها سيتعرضان كلاهما للخطر.

في ليلة مقمرة جلسا معًا في مكان تطلّ فيه السماء المنيرة على سطح البيت، يستلقيان قربا بعضهما البعض، يضع عثمان يديه متشابكتين خلف رأسه، يتطلّع إلى الأعلى...

قال لصديقه:

- أتعلم ماذا أتمنّى؟

أجابه أحمد بعد أن نفخ صدره، كأنّما يحاول أن يستنشق هواء العالم من حوله ثم يدفعه مرة أخرى بعيدا.

- ماذا تتمنّى؟

بصوت هادئ قال:

- أن يزول هذا السّواد.

لم يردّ عليه أحمد إلا بعد تفكير قائلا:

- يحتاج هذا السّواد العظيم إلى شمس جبارة بعظمة هذه السماء.

أجاب عثمان دون تردّد، ويعلم ما قصده:

- وهو كذلك، هذا ما أقصده.

- أريد أن أكون معك، هل يقبل قائدك؟

- في ماذا؟

التفت إليه:

- أتظنّ أنّني لا أبصر، كيف تنمو الأشواك بين الورود؟ كيف تتمزّق الأرض؟ كيف يمتلأ الوعاء سمًا؟ كيف تلوّث الهواء النقي بغبار القادمين من خارج الحدود؟ لأجل هذا أريد أن أكون في صفِّكم.

ابتسم عثمان، وردّ:

- وشيرين؟

- تلك القصة التي لم أقصصها عليك، لقد رحلتْ، وبقيتُ وحيدا.

- ماذا تقول؟ لماذا؟ وإلى أين؟

تنهّد قليلاً، ثم قال:

- بعد أن دخل الإنجليز وتوافد اليهود إلى القدس انزعجت من الحياة التي أصبحت كأنها ليست حياة، وأقنعتْ والداها على الهجرة من فلسطين رغم أنّها يهودية، فباعوا البيت مُكرهين، كان المبلغ الذي قبضوه مبلغا خياليًا، أخبرتني أنه لا مكان لهم هنا بعد أن شعرت بعدم الأمان، شعرتْ أن أبناء طائفتها يتساقطون هنا من كل مكان، لكنهم ليسوا مثلها، نعم هم يتدينون بدينها، إلا أنهم مختلفو العادات والتقاليد والألوان والأجناس، طلبتْ منّي أن ألتحق بها لكنّي لم أستطع التفريط في القدس، رحلتْ وتركتني بلا قلب، تركتني فارغًا منها، لقد واجهت للتيّار، فكسرتني.

صمت قليلا، ثم أردف:

- الحقيقة أن كلامها يتحقّق، أن طعم الحياة تغيّر منذ جاء الإنجليز؛ وجاءوا بعبثهم من أطراف العالم، لذلك دعني أُثبتُ أنّي بقيتْ لأجل شيءٍ مقدّسٍ.

بقي صامتاً لا يردّ، حتى قال:

- سأخبر الشيخ؛ وأردّ عليكَ.

كانت كلماتهما تعهّدا عميقا على الوفاء للوطن الذي عَمَّهُ السواد، سواد تخلّل الجبال، والأودية، والتلال، والهواء، والماء، والزيتون، والأزقة، والديار، والقبور، والأسواق، والأحياء، والأموات، وتجرّأ على تدنيس كل شيء مقدّس...

تساءل عثمان أمام شيخه متعجّبا، ومعتذرا عن تجرئه:

- لماذا ينتظر الله قروناً مِن الزمن حتى ينهي هذه المهزلة؟

أجاب الشيخ في وقار، دون أن ينزعج من سؤاله:

- لأنّ القرون في حكم الله أيّام، مع أن وقْعها شديد على قلوبنا.

- وما الذي يجعلنا نصبر لهذا الواقع؟

- هو الإيمان يا بُني.. الإيمان هو المنفذ الوحيد من هذه المهزلة.

عندما أخبره في رغبة صديقه أحمد في الإلتحاق بهم، رحّب بذلك الشيخ، ممّا أدهش عثمان؛ فقال له:

- لكنّه مسيحي الديانة يا شيخ؟

- وإن يكن، ولو كان يهوديا.

- ماذا تقول يا شيخ؟!

- نعم، أنا أعي ما أقول، الوطن يجمعنا رغم اختلافنا.

- لكن اليهود يتعاونون مع الإنجليز.

- تلك هي الخيانة.. ولو كان المتعاون مسلماً؛ تكون كذلك خيانة... الخيانة لا دين لها ولا وطن، نحتاج إلى كل مخلصٍ فلسطيني بغض النظر عن دينه وتفكيره، والآن أكثر من أي وقت مضى، نحن نحتاج إلى القوة، العالم كله ضدنا، ويجب أن نكون كلّنا ضد العالم حتى ننتصر.

أخبر عثمان صديقه بقبول الشيخ لإنضمامه، لكنه حصر مهمته في المراقبة فقط مؤقتاً، دون أيّ عمل مسلحٍ آخر، مع الإشتراط بأن يُبقي الأمر في سرية تامة، حتى لا يتورّط في مشاكل مع الإنجليز، ويعرض الجميع للخطر.

كان عثمان يتربّص من بعيد، من على أعلى تلة مقابلة لأرض أجداده التي أُجّرت غصبا عن أصحابها، كان يرى كيف أن أقدام العساكر واليهود يطؤونها باستمرار، وقد قاموا بتسييجها لمنع الدخول إليها، ولولا أنه ألتزم بتعليمات الشيخ في ألّا يفعل شيئا متهورا لهجم عليهم بمفرده، شعر بثورة غضب تتقلّب ككرة نار في صدره، كاد أن يقذفها في وجوههم، لكنه يتدارك نفسه، فيحجم عن عزمه، لم يتبق إلا سنة واحدة حتى ينتهي عقد الإيجار، كما يتذكر بأن الشيخ عز الدين قد رهن أرضه التي في سوريا من أجل شراء السلاح لجماعته.

لم يحتمل العم أبو صلاح تأجير الأرض، الذي رأى أن الايجار هو بيع بصورة مصغّرة، أن تؤجّر يعني ألا تطأ قدمك ذلك المكان، حتى المستأجر يمكنه أن يؤجرها عن الباطن مرة أخرى لغيره، ويعبث بها بينما تنتهي جنيهاتك بسرعة، في سجنه يترصّد أي فرصة للهروب من السجن، كانوا يأخذونهم خارجه من أجل أعمال تنظيف يشارك فيها كل السجناء، كانوا يقومون بالعمل كل يومين في أمكنة مفتوحة، حيث يحاصر أفراد الجيش المكان مُشهرين أسلحتهم نحو أجساد المحبوسين، إختلق مشكلة بين

السجناء حتى حدثت الفوضى بين السجناء، وتشتت انتباه الجنود أثناء تناولهم لوجبة العشاء، ليقوم بالانسحاب مسرعًا دون أن ينتبه إليه أحد، يتسلّل في الأحراش الغابية المحاذية، يتمكن من الإختفاء، كان البحث عنه متأخرا، ليصبح بحثًا غير مُجدٍ، ولكن كانت وجهته بعيدة جدًا، مرّ على كل القرى متجها بطريقة غير مباشر نحو عسقلان، مختفيًا عن الأنظار، توجّه الجنود نحو أخيه أبو علي، يفتشون كل المكان، ثم توجهوا إلى أبي أبو عمران فأخذوه إلى السجن، ثم طردوا أهله من البيت وهدموه، ثم توجهوا إلى عبلة فأخذوها عنوة من بيتها تاركة أولادها في صراخ وبكاء شديدين، وقاموا بهدمه كذلك.

أحسّ أبو علي أنه قد فَقد كل شيء، لم يجد حوله أحد، فالإحتلال يحاصره من كل مكان، حيث اعتقل سنديه أبو عمران وعبلة، وقاموا بحجز قاربٍ له بحجة عدم ترخيصه.

كان المختار شخصا بدون ضمير، يطبّق أوامر الإنجليز، يدّعي أنه يدافع عن السكان وهو عينهم ويدهم في المدينة، حتى صار لا أحد يذهب إليه ليشتكي، بل أصبح يذهب إلى الناس فيطردونه، ويشتمونه، ويهينونه، في أحد المرّات كادوا يضربونه لولا دفاع جنود الإنجليز عنه، غير أن الأطفال كانوا يرمونه بالحجارة، يصيحون عليه:

- يا خائن، يا خائن...

حتى صار لا يزوره أحد، إلا الذي أراد أن يزوره ليمرّر رسالة إلى الإنجليز، ولمّا خشي على نفسه، صار يتفادى مقابلة الناس وحيدا.

لمّا أُعتقلت عبلة، وجدت نفسها في السجن مع بعض النساء، لم تكنّ كثيرات، كل واحدة سجنت لأنّ أحد أفراد عائلتها إلتحق بالمقاومة، ذهب أبو علي مرتكزا على عكاز إلى الضابط آرثر لكنه رفض استقباله، مُنِع

من دخول القدس، فغضب غضبا شديدا، أراد أن يفعل أي شيء من أجل إنقاذ أخته وأخيه، فخانته قدمه المبتورة.

لمّا عاد دون أن يستقبله أحد، خرج في الشوارع ينادي ويصرخ في الناس، ويقول:

- أين أنتم أيها الرجال؟ أماتت نخوتكم؟ نساءكم في سجون الإحتلال، وأنتم ساكتون خائفون... كيف ترضون بهذا الوضع؟

بدأ الناس يلتفّون حوله شيئا فشيئا، يتشاورن فيما بينهم حول أي خطوة سيتخذونها، وأجمعوا أن يتوجهوا إلى مقر العسكر ليافا ليحتجّوا هناك، فوقفوا عند مدخل المقر، وهم ينادون لإطلاق سراح النساء، تطوّرت الأمور إلى مشادات مع الجنود، بدأ الشباب يقذفون الحجارة، فردوا بإطلاق النار على المحتجين، فأصابت أحد الطلقات القدم الوحيدة التي يقف عليها أبو علي، فخرّ أرضًا كأنه شجرة أجتثت من الأرض دون حراك، فأُعتقل من اعتقل، وأجلي هو سريعا إلى المشفى لعلاجه، كانت الطلقة أعلى من سابقتها لكن في الرجل الأخرى، فأصابت الفخذ، إذ صار مُقعدًا تمامًا، لا تكفيه العصا التي يمتلكها.

بعد أن خرج من المشفى جلس يتحسرّ، لم يكن لقائه السابق مع ابنه قد شبع من رؤيته، كان قد أيّده في الطريق الذي سلكه، هذا الإحتلال يتجبّر يومًا بعد يومٍ، وأي مقاومة له ستكون مباركة لا محالة، لكنه نبهه ألاّ يأتي إليه كثيرا، لأن عيون الإحتلال تترصّده، وتبحث عن كل مقاوم لتزجّ في السجن أو تعدمه دون محاكمة.

❖

سمع الشيخ وجماعته بالأمر، فقرروا الإنتقام من غطرسة الإحتلال، حيث طلب عثمان أن يُسمح له أن يقوم بعملية لوحده، انتقاما لعائلته، فقام بالتربّص بحانة يقصدها الضباط الانجليز ليلا ليلهون فيها.

انتظر عثمان منتصف الليل، بعد أن ارتدى لباس عربيًا مموّهًا، يسير مُتمايلاً كسكّيرٍ، يحمل زجاجة خمر، وقد بلّ بعض ثيابه حتى يحسن التمويه، يتكأ مرة على الحائط، وهو يتجشأ أمام الجنود الذين يتضاحكون على حركاته، وما إن انتهى إلى مكان مظلم لا يوجد فيه أحد، جلس على الأرض متكأ على الحائط، منتظرا للضابط الذي يترصده، الذي تنتظره عربة كل ليلة لتأخذه نحو بيته. خرج الضابط يتمايل سكرانا نحو عربته، بينما السائق بقي في كرسيه، صعد فاتحًا للباب، فيجد عثمان ينتظره داخل العربة ليهجم عليه بوضع قماش على فمه، حتى لا يصرخ، ثم حزّ السكين على رقبته فشقّها نصفين، فتحول إلى جثة هامدة، سارت العربة دون أن يشعر السائق بشيء، وفي أحد المنعرجات قفز عثمان من العربة، ثم تغلغل في أزقة المدينة دون أن ينتبه له أحد.

أتمّ العملية بنجاح وقد أفتك من الضابط مسدسًا مكتمل المخزن، عندما وصل السائق إلى مقصده انتظر نزوله لكنه تأخر، ظنّ أنه كما كان يحدث له سابقا نتيجة لكثرة السُّكْر، فنزل من على العربة، تقدّم إلى بابها يناديه دون أن يسمع ردّاً، فتح الباب فإذا به يجده جثّة ملطخة بالدماء.

أعلنت الثكنة الطوارئ بعد سماعها الخبر، وأصبحت تبحث عن أي مشتبه فيه، فاعتقلوا البعض، لكن الجنود استطاعوا أن يتذكّروا ملامح المعتدي الذي تجول وهو يدعي السُكْر، وبعد أن استعانوا برسام ليرسم تلك الملامح، بدت الملامح نوعا ما، ونتيجة بحث أيامٍ طويلة عرفوا أن الجاني هو عثمان بن أحمد، فاتجهوا نحو قواربه فقاموا بحرق قاربين كانا راسيين على الشاطئ، فلم يبق لديه سوى قارب واحد صغير كان حينها بعيدا عن الشاطئ في رحلة صيد معتادة.

كانت أيام سوداء اختفى على إثرها الشيخ وجماعته بين الأدغال، جنّ جنون الإنجليز لمقتل ضابط مرموق، أثار الحادث الرعب بينهم، جعل اليهود يدعمونهم بالمعلومات، طلب أحد الضباط حضور عمة المشتبه به عبلة في مكتبه.

❖

دخلت عبلة ترتدي لحافا أسودًا على مكتب المحقق، أومأ الضابط للجنديين أن يفكا قيدها، انصرفا وهو جالس وراء مكتبه ينظر إليها باشمئزاز، قام من على كرسيه، ثم حمل عصا قصيرة يضعها دائما على سطح المكتب، كان يلبس زيه العسكري كاملاً مع قبعته سوداء، مع مسدس معلقٍ على حزامه في الجهة اليمنى، سار بعيدا عنها، مقتربا من الحائط، يتمعّن فيها من الأسفل إلى الأعلى صعودا ونزولا، وهي تنظر إلى الأرض، تلمح من بعيد حذائه الأسود الطويل، في غرفة قليلة الإضاءة، تطلّ بعض أشعة الشمس على أرضيتها، يتلاعب في قلب شعاعها غبار كثيف، لا يعني أنه ليس هناك غبار في مكان آخر ولكن غياب أشعة الشمس تحجب ما خفي من أشياء التي لا تراها الأعين المجردة، تسمع طرْق حذائه على البلاط، وأنفاسها تتسارع أيضا عندما تمتلأ رعبًا بما قد يفكر فيه هذا الإنجليزي المتذمّر.

يتوسّط الغرفة مكتب كبير عليه علم انكلترا، وبعض الأوراق والإطارات التي لا تستطيع أن تراها لأنها تقابله، ويقابل المكتب أريكتان من الجهتين بينهما طاولة عريضة، وفي الركن الذي خلفها يوجد شماعة خشبية للسترات والقبعات المعلقة.

عاد الضابط إلى أريكته المتحركة، نزع القبعة، ووضعها على سطح المكتب، بدا بوجهٍ مستطيل نحيف مع شارب رقيق، وعينين ضيقتين خضراوين وأنف منتصب، بعث ابتسامة خفية نحو عبلة، ثم قال:

- إذًا أنتِ عمّة المجرم عثمان؟

اهتزت من وصفه بالمجرم، ردّتْ في نفسها؛ أنتم المجرمون لكنها تخشى أن تثير غضبه، فكرتْ أنه يجب أن تتحلى بالحكمة من أجل تتجاوز هذه الجلسة بخير، ضلّتْ ساكتة دون أن ترفع رأسها، إلى أن أكمل قائلا بصوت حادٍ:

-...ابن أخيك ذبح صديقي العزيز، وهو أحد أفضل الضبّاط لدينا.. نعلم أنه من جماعة عز الدين المتمردة... وأعيننا أخبرتنا أنه كان يزوركم، أخبريني أين يذهب؟

تكلّمي...

لا تردّ عليه، ظلّ الضابط في مكانه، ضاغطًا بقبضة يديه على سطح المكتب، فاجأها يصرخ بصوت مرتفع جدا:

- أنا أتكلّم معكِ، أين هو؟

اهتزّت عبلة من صراخه، تتشجع فردّت بصوتٍ خافت:

- لا أدري.

يعيد عليها السؤال أكثر من مرة، وتجيبه بنفس الجواب، يشتمها ويسبّها، يستفزها، يهددها بالتعذيب، لكنها تردّ بنفس الجملة؛ لا أدري، لا أدري...

صمت قليلا، ثم حدّق فيها صاعدا من حذائها إلى لحافها الأسود الفضفاض، دون أن يكشف وجهها، ورأسها ظلّ مطأطأ إلى الأرض، كما أن شعرها لا يظهر من الشال ذو اللون الأسود هو كذلك. استفزها بقوله:

- لماذا تلبسين السواد؟

لم تجبه، ولا تريد أن تجيبه، لكنها قالت في نفسها:

- يوم دخولكم إلى بلادنا لبستُ السواد، الحياة أصبحتْ سوداء بوجودكم كل جميلٍ صار قبيحا، زاد يقينا بهذا السواد يوم استشهد زوجي بسبب ظلمكم.

ثم سألها، مع أنه لم يجد جوابا لأسئلته السابقة، قائلا:

- لماذا تكرهون اليهود؟

لم تنبس بشفة، لكنها أجابت سرا؛ قائلة:

- ومن قال أننا نكره اليهود، لقد كنا في تعايش تامٍ معهم، حتى أنّ ديننا لا يمنع التعامل معهم، لكن وجودكم زرع الفتنة بيننا، جعلهم يتمرّدون ويعادوننا، تعطونهم أرضنا التي لا تمتلكونها.

ابتسم، وقال لها:

- تبدو النساء هنا قويات، وأظنك واحدة منهنّ.

ردت في قلبها دون أن يسمع كلامها:

- أجل نحن قويات بعروبتنا وديننا.

ثم قال مبتسما:

- لم يتمكن رجالكن من حمايتكن...

شعرت أنه يشير إلى أشياء لا تستطيع أن تتخيلها، تقول في نفسها:

- سأقتلك إن اقتربت منّي، أيها الوغد؟

حمل عصاه القصيرة، واتجه نحوها، ثم سألها:

- ارفعي رأسك.

لم تستجب، غير أنه تقدم نحوها بخطوات، لكنه مازال بعيدا عنها، لم تتحرك من مكانها، وضع العصا على الطاولة القصيرة، ثم فتح حزامه الجلدي الأسود، قام بسحبه كله من سرواله، ثم وضع مسدسه على الطاولة، لفّ شيئًا من الحزام على قبضة يديه، تعرّقت عبلة رعبًا، وارتعد

كل جسمها مما يفكّر فيه هذا الضابط، تُظلِم الغرفة في وجهها، خطا خطوة في اتجاهها، تراجعت هي خطوة إلى الوراء كذلك، اقتربت من الباب ويديها وراءها، مازال يتقدّم إليها، لأول مرّة تنظر إليه بغضب، تتلمّس المقبض الحديدي للباب، تحاول فتحه لتهرب، لكنه لم ينفتح، ارتعدت أطرافها واهتز جسمها، لكنه اقترب أكثر منها، وهو يقول:

- أريد أن أرى ما وراء هذا الغطاء الأسود.

صرخت لأول مرة تنطق:

- لا لا لا...

- حسناً، لديك صوت، ولكن لماذا لا؟

عندما اقترب منها محاولاً إسناد يديه على الحائط حولها، تدفعه عبلة بكل ما أوتيت من قوة، فسقط على ظهره، قرب الطاولة القصيرة، حتى انفلت السلاح من حزامه، فأسرعت نحو المسدس فالتقطته، توجّهه نحوه، قام يتلمّس رأسه متوجّعا من الألم وهو يشتمها، وعندما التفت اليها وجدها تحمل مسدسه، فصرخ في وجهه:

- هاتي المسدس، أيّتها العنيفة.

- لا لا... لا تقف وإلاّ قتلتك.

- حسنا.. حسنا.. لنْ ينفعك المسدس، أنتِ أسيرة بيننا، إن قتلتني أنا، فهناك من سيفعل كل شيء قبل قتلك.

فكّرت في كلام هذا الوغد؛ في أنه مادامت قد حملت السلاح في وجهه فإما الفرار وإما الموت، بدأ الضابط يتوسّل إليها، ثم بدأ في الصراخ، رفعت الأمان عن المسدس، هددته بألا يقترب أكثر، لكنّه لم يفعل فقام نحوها، ارتعدت يداها، اندفع نحوها لِتُطلق عليه طلقة في بطنه، ثم تزيد أخرى ثم ثالثة، حتى سقط ميتا دون حراك، بعدها وضعت فوهة

المسدس على رأسها، مُنهية معاناتها، خوفا مما قد تتعرّض له وهي على قيد الحياة، فالموت قد يكون نوعًا من أنواع الهروب الاضطرارية، لكيلا تكون ضحيّة في يدي أحد الأوغاد.

صرختْ زوجة عثمان الخنساء صراخا قويًا من شدة الألم، لم تمنعها القابلة التي أتى بها الزوج من الصراخ على قارب أبيه الأخير في عرض البحر، حرضتها على أنها يُمكنها الصراخ دون أيّ حدود؛ صرخت عاليا حتى سمعتها السماء، والحيتان، ومخلوقات البحر كلّها؛ ربما يعطف عليها القمر؛ وربما تحنو عليها أيادي القدر اللطيفة.

أيُّ وجعٍ تعانيه الخنساء؛ لا تحتمله الجبال، روح تنسلّ من روح، وجسدٌ ينقسم إلى جسدين، طلبتْ القابلة منها أن تدفع بقوّة ما يحمله رحمها، تريد منها أن تفجّر حياة أخرى لتصرخ في وجه هذا العالم البائس، ليولد رُغما عن أنف اليهود والإحتلال، كانت تستمدّ قوتها من كلماتها التي تشّجعها على مواصلة الكفاح من أجل حياة ولدها، قائلةً لها:

- ادفعي بقوة، هيّا لا تستسلمي؛ استمرّي، الأمر لا يستدعي الكثير من الوقت، إنه قريب.

كأنها تقول لها:

- كافحي العالم بقوة، الحرية تحتاج قليلا من الصبر والوقت، بصيص الأمل قريب.

كان عثمان يتعذّب لعذاب زوجته، يسمع الصراخ والتأوّه، تنقطع أنفاسها وتشتدّ، دون أن يستطيع هو أن يفعل شيئًا. بعض الألم لا يمكن مشاركته، كان البحر يتلاطم بأمواجه، وهو يتلاطم بالحيرة، لقد أتى بزوجته مع القابلة حتى تضع الجنين في عرض البحر، كي تصرخ بعيدا عن الأسماع، متخفية عن الأنظار.

ظلّ عثمان مطاردا، يتنقل من مكان إلى آخر، بعد أن نصبتْ جماعة عز الدين كمينًا محكما للإنجليز خلف ستة قتلى منهم، وعشرة جرحى،

جعلهم ينسحبون منهزمين، مما أشعل غضبهم، ليعودوا في اليوم الموالي بقوة هائلة، مدججين بالدبابات والرشاشات، ومزيدا من القوات، رغبة في إسترداد هيبتهم المنهارة أمام عامة الشعب الذي أبان عن فرحة عارمة لهذه الضربة الموجعة ضد العدو، اختفت الجماعة بعدها بسرعة عن الأنظار، تحركت من المكان الذي كانت فيه بسرعة هائلة، كانت خطتهم أن يتحرّكوا من المكان الذي نُفذت فيه العملية سواء نجحوا في الهجوم أو لم ينجحوا، حتى أن اغتنام السلاح شيء مؤجّل، اذْ كان يعرّضهم للخطر، انتهت عمليتهم الخاطفة دون أن يخسروا شيئا ولم يغتنموا شيئا، سوى بث الخوف في قلوب الأعداء، ولمّا عادت القوات إلى مكان الهجوم ولم تجد أي مقاوم منن المقاومين، قامت بالانتقام من القرية المحاذية، فأخرجت الناس من بيوتهم بالقوة، وكان كل من يقاومهم يُعدم في المكان، أو يُضرب ضربا شديدا أمام أولاده وزوجته، بينما يعتقل الشباب للتحقيق معهم، وبعد أن أخرجوا كل السّكان من بيوتهم قاموا بإضرام النار في أمتعتهم، وسرق الجنود ما يحلو لهم من أمتعة، حتى صارت القرية كومة من رماد، صار المطرودون في العراء دون أن يسمح لهم بحمل أي مؤونة، وهجروا إلى خارج قريتهم.

كان ردا مؤذيا من الإحتلال بمعاونة عصابات يهودية، حيث اقتحموا القرية القريبة من حدوث المجزرة بأسلحتهم، لتصبح المجزرة مجزرتان.

علم عثمان أن بعض الأشخاص يعارضون مثل هذه العمليات، لأن سلبياتها أكثر من إيجابياتها، الخسائر التي تحدث أكثر من المنافع، لذلك يستغل الإحتلال تذمّر بعضهم لاستدراجهم كأعين تعمل لصالحهم داخل التجمعات السكانية، يكون ذلك إما بالتهديدا أو بالإغراء.

كان عثمان يقول لهم دائمًا:

- لكل حق نصيب من التضحية؛ وإلا فإننا نبقى هكذا طالما نفكّر بهذه الطريقة.

يجب أن تكون أغلب العمليات سرية للغاية، السريّة هي النجاح في كل شيء، سرية الأحزان، وسرية الأفراح، تزوّج عثمان دون أن يُشهر زفافه في المدينة، قبِل والد العروس به مكتفيا بشاهدين مع حضور الوالد أحمد والشيخ عز الدين، شعر والد الفتاة بالفخر بهذا الزفاف، عندما زوّج ابنته بمجاهد وهب نفسه للوطن، فلم يطلب منه مهرا كبيرا، فقد قال له أن المهر هو الاستمرار على درب الجهاد الذي يسير في نهجه، ورأى عثمان أنه يجب أن يمدّ في نسل عائلته، لا يمكن أن تتوقف مقاومة الاحتلال ومعاونيه، وقد خسر كل شيء من أجل الوطن وحريّ بالوطن أن يردّ له الجميل، ويقول عثمان أنه لابدّ أن في أرحام حرائر فلسطين مَن ينقذ الوطن يومًا ما.

خسر عثمان أغلب أملاك أبيه أحمد المشلول بعد أن طورد في كل مكان، وودّعوا عبلة بعد أن أبلغهم الإحتلال أنها انتحرتْ، تظاهرت نصف المدينة على ذلك وحدثت اشتباكات عنيفة، وبقي أبي أبو عمران أسير السجن، لم تبق إلا أرض في جبل الزيتون بالقدس، وبيت في يافا، وقارب صغير يؤجره إلى أحد معارفه.

كان على زوجة عثمان أن تلد منه رجلاً، الشرفاء وحدهم لهم الحق في الولادة المستمرة، لم يكن عاما سعيدا بل نكبة ما بعدها نكبة لأنه كان تاريخ إعلان دولة إسرائيل في أروقة الأمم المتحدة، كانت دولة غير شرعية إثْر علاقة جنسية بين الإنجليز والشيطان؛ أنجبت ولدا مشوّها لكنه تمسّك بالحياة بمساعدة السوفيات والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وغيرهم،

وتركوا هذا اللقيط يعبث في أرض ليست أرضه، أعطوه السلاح وكل المرافق الإدارية والثكنات، لينقضّ على أبناء الوطن دون رحمة، أصبح عدد الأعداء يفوق عدد الذباب في عز الخريف، أما الإخوة فقد ذابوا كقطعة ملح في عرض البحر، أو أنهم ظلوا يتخبطون في وحلهم دون توقف، كما أن الدولة العثمانية تلاشت كما تلاشى الضابط رشيد بك، وصارت كل الدول العربية تتشقق كما تتشقّق الأرض الجدباء، بحدود يرسمها وزراء ورؤساء العالم الغربي، لإشباع رغبة في السلطة لبعض العرب، كان عليه أن يستمر في المقاومة، أحد أشكال المقاومة أن تستمر النساء في ضخ فلسطين بالرجال، لعل إحداهن تنجب صلاح الدين جديدا، يقف في وجه العالم المغتصب.

تناقصت المساكن وتكاثرت المقابر كالفطريات، وفي الجهة الأخرى تتنامى مساكن أخرى، تبنى في أراضي الفلسطينيين، وقد اشتراها اليهود أو نهبوها بطريقة ما، يشعر عثمان أن الخطر يلتف أكثر حول عنقه وعنق أهله كلهم؛ أما أبيه فأصبح لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، وقد أرهقه الإحتلال بالضرائب والغرامات، نكاية في ابنه الذي يحاربهم.

❖

حين شعر أحمد بمرض الموت استدعى عثمان، كانا يتفقان على موعد اللقاء، كان مُقعدا على سريره بعد أن انصرفت ابنت أخيه أبو صلاح وقد رتّبت له البيت ولبّت له كل طلباته، كانت تعتني به منذ أن فقد القدم الثانية، ولا يتحرّك إلا للحاجة على كرسي متحرك، جلس أبو علي عند بابه حزينا، لا يستطيع أن يتحرك، كل شيء يراه يتحول إلى لون أسود، أصبح البعض يبتعد عنه حتى لا يحققون معه، ذاب ببطء، فقد القدمين اللذان يحملانه إلى وجهاته، ولا أحد يتحمل حمله إلا نادر من أولاد إخوته، يُمنع من دخول الإدارات ويعود جارّا أذيال الخيبة.

طلب أحمد من ابنه أن يقترب إليه رغم أنه كان قريبا؛ فجلس على حافة السرير.

قال له بصوتٍ متقطّع:

- بُنيّ، تعلم ما فقدناه، وقد فقدنا الكثير، لكننا لم نفقد شرفنا وحبّنا لوطننا، ما أوصيك به هو أن تبحث عن عائلة الضابط رشيد بك، لكي يساعدك في العثور على العقود الأصلية للأرض وللمحل، أما أخوك الكبير علي فهو يرعى في إخوتك الصغار.. أما أنت، فاشعر بالفخر بك، لقد اخترت طريقاً وجب أن يختاره كلنا.

رد عليه همساً:

- إنه وسام شرف أن ندافع عن أرضنا، الخسارة لا تعني دائما الهزيمة، والغنيمة لا تعني دائما الانتصار، وسأناضل حتى تنقطع الأنفاس.

- إياك أن يقبضوا عليك يا بني، قبل أن تعثر على عائلة رشيد بك، فآخر الأخبار تقول أنه كان في بيروت بلبنان.

- سأجده أكيد.. يا أبي، وسأواصل النضال مهما حدث.

لم يكن هناك كلاما كثيرا بينهما، لأن كل الكلام كان يراه عثمان بأمّ عينيه، قاوم منذ أن وعى العالم، مضى الليل وهو يراقب في حالة أبيه، رآه يتألم ينظر إلى السماء دون أن ترمش أجفانه، علِم أنه يودّع هذا العالم القاسي، وضع يديه على كفّ أبيه اليمنى، الذي حاول أن يتشكّل لكي يبرز إصبع السبابة، مُعلنا الشهادتين في صوتٍ لا تسمعه إلا الملائكة، أثناءها تساقطت دموع عثمان بكثافة على رداء السرير الأبيض.

دُفِن في اليوم الموالي، وسط حضور سريٍ لعثمان، لم يكن بمقدور الإحتلال أن يقبض عليه، لكثرة الناس من بينهم أولاده، الذين حضروا وفاته وقد غابوا عنه في حياته.

عندما فقد والده أحسّ بإنتهاء الحماية الإلهية التي كان يرسله الأب في دعواته، عندما تخطئه رصاصة ما، يعرف يقينا أنها كانت من ثمار دعوات الوالد عقب صلاة ما أو مناجاة بعد تسبيحة ما.

سمّى عثمان ابنه عمر، حمله بكلتا يديه ثم غمسه في البحر، وهو يقول له:

- أنت ابن البحر، يا عمر، ابق على العهد.. ابق على العهد.

فتح الصبي فاه صارخًا يبكي، غير مدرك لما يسمعه، يعلم الأبُ أن ابنه سيستوعبُ الأمر عندما يكبر، تنتظره تحدّيات أكبر مما كان يكابده هو، سلم الإحتلال الأرض الطاهرة إلى اليهود، بوثائق مزوّرة، سلّموا الأرض وزيّفوا التاريخ لأن أغلب العالم يؤيّدهم، بل متواطئ معهم، قدِموا من كل حدبٍ وصوب، كأنهم يأجوج ومأجوج قد خرج من قاع الأرض، يلتهمون بلا رحمة الأخضر واليابس، سيّطروا على كثير من القرى وشرّدوا أهلها، استعملوا الأسلحة والقوة التي تركها الإحتلال تدعيما لهم، متسببين في مأساة السكان الأصليين لهذه البلاد.

لم يستطع عثمان أن يتحرّك بحرية حتى ينفذ الوصية؛ من أجل أن يذهب إلى لبنان ويبحث عائلة رشيد بك، المهمة صارت صعبة يوما بعد يوم، فتح الموضوع مع الشيخ عز الدين، فقرّر أن يساعده في هذه الغاية، التي لا تقل أهمية عن حمل السلاح ضد الغاصبين، أخبره الشيخ أن القانون هو سلاح فتاكٌ أيضا، وأن ما يريد أن يقوم به رحلة جهاد.

انطلق عثمان مع الشيخ عزّ الدين وتسعة من جماعته، يخترقون أحراش الغابات والجبال محاولين تفادي الاشتباك مع مليشيات اليهود المدجّجة بالأسلحة التي تنصب كمائن بين القرى الفلسطينية، متخذين الليل غطاء لتحركاتهم، كانوا يتحرّكون ليلا ويتوقفون نهارا، حيث

يختبؤون عند بعض الأهالي الموثوق بهم، يأكلون عندهم ولا يخرجون، كان هدفهم تأمين الطريق نحو أقرب نقطة إلى حدود لبنان، صارت الأرض التي يطؤونها تنسل من تحت أرجلهم، والتراب الذين كانوا يتجوّلون فيه أحرارا مُنعوا من السير عليه، والشجر الذي كانوا يخدمونه صار مُحرمًا عليهم، بحسب قانون الوافد الجديد تغيرت كل القوانين، أصدر بموجب قوانين الطوارئ سلسلة من الأوامر تَحْرِم الغائبين من أراضيهم، ولو كان الغائبون مهجّرين قسرًا، أو تم إبادتهم بالقتل والتنكيل، إضافة إلى حرق قراهم ومزارعهم، كان الإستيلاء بشتى الطرق الملتوية، مرة بإقامة معسكرات للجيش الإسرائيلي على أراضي الفلسطينيين، ثم مصادرتها بذريعة إقامة مرافق عامة، أو بناء مستوطنات جديدة عليها، أو امتلاكها بعد طرد ملّاكها من طرف العصابات اليهودية وعلى رأسها الهاجانا، ثم اعتبارها أرض موات تتملّكها إدارة الإحتلال، و من بعد القيام بتزوير أوراقها عن طريق الدوائر الرسمية، ليحسمها القضاء تأييدا لهم.

في ليلة باردة وأثناء تحرك جماعة عزّ الدين بين الأحراش الغابية، يلمح أحد أفراد المجموعة تحركات لمدرعات تسبقهم إلى أطراف الغابة وأخرى تلتف حولها، فتأكدوا أنهم رُصِدوا من طرف العدو، فتوقفوا عن الحركة حتى يراقبوا تحركاتهم جيدا، لكن القوات الإسرائيلية بدأت في التغلغل بأفرادها تمشّط المكان، يقتربون أفواجا أفواجا يحملون رشاشاتهم، يتقدمون ببطء فعلِم الشيخ عز الدين أنهم قد حوصروا من طرف العدو من كل جانب، وقد تعاهدوا على أنه لن يسمح لهم بأن يقبضوا عليهم أحياء، تأكّد أنهم محاصرون، ولا يمكنهم الإفلات مع هذه القوة الهائلة.

اقترب الشيخ بخطى حذرة من عثمان، وهمس في أُذنيه:

- يا عثمان، أظنّ أنّها ليلة الوداع..

ردّ عثمان:

- ماذا تقول يا شيخ؟

- الشهادة أو النصر، ليس في قاموسنا الاستسلام.

تنهّد ثم أردف:

- أقصد يا عثمان، أنه يجب أن نفترق هنا، سنعترض هذه القوة ما استطعنا ونحول من تقدمهم، أما أنت فتقدّم نحو هدفك دون تردّد، سيرك وحدك يجعلك تنجح في الإفلات منهم، إن لك مهمة يجب أن تكملها.

- لن أترككم يا شيخي، أأهرب من مصيري.

- لا يا عثمان مصيرك حيث أنت متّجه، صحيح إننا في مصير مشترك، لكنه بعدّة طرق.

- لا يا إمام، لن أذهب.. لا.

رفع الشيخ صوته قليلا:

- لا تعص أمري يا عثمان، إنّه أمرٌ؛ وليس طلب.

ألحّ الشيخ على عثمان أن ينصرف قبل أن يكون في مرمى العدو، نظر إلى رفقائه، فأومأوا له بالذهاب، أحس أنه يجب أن يستجيب لأمره، ليقوم بالتحرّك نحو كل أفراد الجماعة، يحتضنهم إحتضان الوداع واحد تلو الآخر، والدموع تنسكب من عيون الجميع انسكاباً.

كان يعلم أنها لحظة وداع ليس بعدها إلتقاء مقدّس، أخبره الشيخ أنه يريد الاستشهاد دفاعا عن أرضه، وأوصاه أن يفعل المستحيل لكي يعبر الحدود دون أن يُقبض عليه.

غادرهم مسرعا مستغلا فراغًا لم يسده الجنود بعد، يتحرّك تارة ويسكن تارة أخرى من شجرة نحو شجرة أخرى، حبوا أو انبطاحًا، حتى انسل تماما من الحصار دون أن يكشفه أحد، ولمّا ابتعد مسافة كبيرة عن

رفاقه سمع من بعيد طلقات نارية كثيفة متبادلة، لم تكن القوة متكافئة ولم يكن بمقدورهم الصمود إلا ليلة واحدة كانت في صبيحتها معسكرات هائلة تتراكم حول الغابة، قتل كل أفراد الجماعة بعد أن دافعوا بشهامة ورجولة ورفضوا الاستسلام، فأصابوا عددا من المهاجمين حتى استشهدوا جميعا بما فيهم الشيخ عز الدين.

لقد نال الشيخ المصير الذي أراده، وأسرع عثمان إلى المصير الذي يريده، كان تحركه منفردًا سلسًا حتى عبر الحدود من الهضاب الخضراء التي تستعصي على الجيش مراقبتها، كان يفكّر أنّه عليه أن ينجح في مهمته ويسأل عن عائلة رشيد بك بمساعدة بعض الفلسطينيين الهاربين هناك من بطش اليهود.

❖

في صبيحة اليوم التالي كان عثمان يمرّ على مُقربة من إحدى القرى المحاصرة بعصابات الهاجاناه مدجّجة بالأسلحة، فلاحظ أنها بدأت تزحف نحو القرية الصغيرة، وفي الجهة المقابلة يحمل الرجال دفاعًا عن أراضيهم الخناجر والسواطير والعصيّ وعددٍ قليل منهم يحمل البنادق، يواجهون أفواه البنادق الرشاشة والمدافع، بدأ إطلاق النار في الصباح الباكر بينما عثمان يراقب الوضع عن قرب، تصاعدت الأدخنة من البيوت بعد دخول أفراد العصابة إليها، يقتلون الرجال المقاومين، بينما يأسرون الرجال المسنّين الذين لم يُقتلوا، ويضربون النساء والأطفال، كان المنظر شديدًا عليه، لم يستطع تحمّل مراقبة المشهد فقط، رأى في مشهد منفصل امرأة تتشابك مع مجموعة من أفراد العصابة هي وابنتها الصغيرة، تبارزهم بأيدٍ عارية وابنتها تصرخ باكية خوفًا متخفيّة وراء أمها، بعد أن أُخرجوا من بيتهما، ثم جُرّوا زوجها بالقوة بعيدا عنهم، ثم سقطت المرأة على الأرض، وسقطت معها ابنتها، حتى انكشفت أمامهم، وارتفع لحافهما

وأفراد الهاجاناه حولها يسخرون منها، فإشتد غضب عثمان من هذا المنظر، ليردّد:

- ما فائدة السلاح إذا لم يستعمل في موقف كهذا؟ لعنة الله على الجبناء.

ثم انطلق مسرعًا من التلة، يركض من بين الأحراش حاملاً بندقيته، وعندما صاروا في مرماه سدّد رمياته الواحدة تلو الأخرى في إتجاه المجموعة الملتفة حول المرأة، فسقط منهم مَن سقط بين قتيل وجريح، فردّ عليه بعضهم بطلقات رشّاشات كثيفة أصابت مختلف أنحاء جسده، الذي لم يسقط أرضا حتى اقترب من المرأة، وكأنها لا يريد الموت حتى يُخلّص المرأة من أيادي العصابة الآثمة.

وصل خبر مقتل عثمان إلى الخنساء فانقبض قبلها كمدًا عليه، وبعد أن انزلقت من عينيها دمعات حارة؛ أطلقت زغاريد الفرحة باستشهاده دفاعا عن عرض النساء.

لم يكن ابنه عمر يدرك ما يحدث حوله، كَبُر يتيما، لكن أمه زرعت فيه حب الوطن، تتذكّر اليوم الذي كان عثمان مغادرا فيه نحو لبنان، كان يشعر بخطورة المهمة، لأن العصابات في كل مكان، غير أنه أصرّ على الخروج لتنفيذ وصية أبيه، أخبرها بكل شيء لكي توصل الوصية إلى ابنه عمر، لم تستطع دمعاتها أن تحجمه عن الرحيل، أخبرها أن الدموع التي سنذرفها مستقبلا أشد حزنا من هذه العبرات؛ عبرات خسارة الأرض والوطن والعرض.

حرصت الخنساء على تعليم ابنها، بعد أن انحسرت الإشتباكات مع اليهود، تكفل به صديق أبيه مسعود، كان حريصا على تعليم عمر أسرار البحر، كان شيخا أشيب الشعر، نحيف البدن، لكن شديد يمتلك عضلات

قوية على ساعده التي تظهر لعمر عندما يرافقه في رحلات الصيد، هو صديق قديم لعائلة عثمان كلها وكان قد تكلّف بالقارب الصغير الأخير.

أصبح عمر عاشقٌ للبحر، وكلما انتهى من الدراسة هرع مسرعًا إلى الشيخ مسعود، ينتظره قبل أن يبحر كل مساء أو صباح، مخاطبا إياه دائما بابن البحر، يذكره دائمًا بأن هذا اللقب رائع حقًا، قائلا:

- يجب أن تكون يا عمر ابن البحر حقا، كما أراد أبوك تماما، إنها وصيته التي لا يجب أن تنساها.

أجابه عمر منبهرا:

- ما معنى ابن البحر يا عمّي؟

- ابن البحر، يعني أنك رجل يعشق الحرية، وأنك طائر حر وعزيز، لا يجب أن تكون في قبضة الإسرائيليين الملاعين.

- لكن لماذا لم يسمّني بابن البرية مثلا؟

ابتسم مسعود، ثم ردّ:

-كم تسألون أيها الأطفال، يا بني البرية تلوثت بالأرجاس، أما البحر فمازال يعيش السلام الداخلي، خلاله نبتعد عن الأوغاد.

- لكن نحن لا نبتعد كثيرا عن الشواطئ.

- صدقت يا عمر، حتى البحر بدأ يضيق، ويتلوث بأفعالهم المقيتة.

بعد صمت من مسعود، أردف قائلا:

- لكن يا بُني البحر، سيلفظهم يومًا ما كما يلفظ الجثث.

فكر عمر في نفسه:

- لكن متى يلفظهم؟ متى يأتي هذ اليوم؟

- سؤال كبير، يدور في أذهان الشرفاء...

أصبح في ريعان شبابه ومازال منتظما على مرافقة مسعود، صار يقوم بكل الأعمال على القارب بعد أن ظهر على مسعود مظاهر الكبر، يرمي شباك الصيد، يغطس ويسبح بكل إتقان، شعر الشيخ أن عمر صار ابن البحر فعلا، إذ كان يمكث في عرض البحر أكثر من مكوثه في البرّ، حتى صارت أمه تفتقده، وتعاتبه على الغياب، ليردّ عليها بغضب شديد:

- في البحر الحرية، هناك لا أرى القتلى الأوغاد إلا نادرا.

ومن شدة عشقه للبحر التحق بتخصص علوم البحار في الجامعة، كان متفوقا في صفه، وفاء لأمه التي طالما كانت تخبره أن العلم وسيلة من وسائل الكفاح وسلاح فتّاك للظلم، كان يسمع أخبار القتل في أنحاء فلسطين، المجازر لا تتوقف والإشتباكات تتواصل.

بدأت يافا تتحوّل يوما بعد يوم سكانيا، كأنها أمواج البحر تحاصر قاربه تحاول إغراقه في أعماق البحر، أحسّ أن بيته الذي تركه أبوه كالقارب تماما وجب عليه المحافظة عليه بكل ما أوتي من قوة، لكن بدت قوة إسرائيل تتصاعد وتضيق الخناق على السكان الباقين في يافا، بدأ من محاصرتها والتفتيش المستمر للداخلين والخارجين، إلى أن طالبت بتصاريح للدخول بناء على ورقة تثبت السكن في يافا، أجبرت عمر على استخراج تلك الورقة، له ولكل أبناء عمه، وباقي أهالي المدينة، كان لزاما عليه ذلك للتنقل إلى الجامعة وإلى البحر، كان التفتيش مهينا ومستمرا، من جنود بوجوه مختلفة، بين جندي أسمر شديد السمرة، بعينين كبيرتين وشفاه غليظة، وآخر أبيض ناصع البياض، وآخر أبيض حتى ليكاد يكون جسمه أصفر بعيون خضراء، وكأن كل الأجناس قد اجتمعت مع بعض هنا، وعندما تحدث اشتباكات بين الجنود والأهالي، يتمنع مرور كل الأشخاص دون استثناء إلا بتصريح خاص يستخرج بعد إلحاح شديد

وتدخلات من كل الأطراف، حتى المؤن كانت تدخل بتصريح خاص، وحين يمنع عمر عن البحر يشعر بالإختناق، لأنه المكان الوحيد الذي يشعر فيه بالحرية.

إلى أن أتى اليوم الذي قررت حكومة إسرائيل تهجير ما بقي من الفلسطينيين في يافا نحو وجهة غير معلومة، كان الإعلان في الأسبوع الأول من زواجه من مريم ابنت عمه أبو عمران، حينها انقبض قلب عمر؛ يفكّر، كيف يتصرّف؟ لن يترك بيته الذي ورثه عن أبيه، وأعلنوا عن مهلة لأهل القرية تمتد ليومين من أجل الخروج دون استعمال القوة ضدهم، هو يعلم أن القوة التي يستعملها الإسرائيليون تفوق كل تصوّر، قضت عائلته اليومين في هلع وترقّب.

لم يكن عمر يخاف على نفسه من الموت، وهو الشاب اليافع الذي يستطيع أن يدافع عن نفسه، لكنه كان يخشى على أمه وزوجته، يخشى أن تمتد الأيادي النجسة إليهما، حدث سابقاً في وقت قريب أن رجلا قتل ابنتيه خوفا من اغتصابهما، بعدما حاصره مجموعة من العصابات، حاصروا بيته الموجود في مكان معزول من القرية التي تحاصر بدورها من عصابات الهاجاناه، كان يعلم أن طلقاته المعدودة لن تردّ على هؤلاء المعتدين، نظر إلى ابنتيه العزيزتين، لم يبق في بندقيته إلا طلقتين، كان يسمع صراخ اليهود وهم يهدّدونه باغتصابهما أمام عينيه، نظر إليهما بحزن قاتل، نظر إلى الخارج من النافذة، فرأهم يتقدمون كذئاب من بين الأشجار، الطلقات التي سددها في إتجاههم لم ترعبهم، فهم كثيرون لن تكفي في صدّهم البنادق الرشاشة، تذكر بفداحة رأيه في وقت غير مناسب، عندما رفض إخلاء البيت والإلتحاق بوسط القرية، رافضاً ترك بيته الموجود في قلب أرضه الزراعية، إشتد عليه الخناق من طرف

المحاصرين، كان يصرخ بشدة، يصرخ إلى السماء، وهم يردّون بالتصفير والسباب والتهديد، ولمّا أراد ألاّ يظفروا بابنتيه الشابتين، اللتان تظهران له وهما ترتعشان من شدة الخوف، يتعانقان وهما يشهقان بالبكاء، التفت وقد غسلتْ الدموع كلّ وجهه، ليطلق الطلقتين المتبقتين على ابنتيه منهيا معاناتهما، أنهى بكائهما وانطلق في عويل لا حد له، حتى سمعها المهاجمون، ارتبكوا وتوقفوا عن التقدّم، ليخرج لهم الرجل في عويل متواصل لا مثيل له، يحمل بندقيته الفارغة من الطلقات يوجهه إلى كل إتجاه، يصرخ لأنه لم يجد طلقة أخرى لينهي حياته:

- أقتلوني، أيها الملاعين، سأقتلكم جميعا، أيها الأوغاد.

لكنهم تأكدوا أن السلاح أصبح بلا طلقات، ليهجم البعض عليه بالضرب بأخامص بنادقهم، يجرّونه من ثيابه، يمينا وشمالا، على تراب أرضه، وهم يرددون السباب والشتائم على مسامعه؛ ويملؤون وجهه بصاق، لم يتمكن ردّ هذ العدد الهائل من المهاجمين، ثم جرّه البعض مجتمعين نحو جثتي ابنتيه، ليحترق قلبه أكثر، و هم يطلبون منه النظر إليهما حتى طار عقله وجنّ من المنظر الذي أحدثته بندقيته.

بعدها قاموا بتهجير باقي قريتي اللُّد والرملة المجاورتين، حيث غادروا مشيًا على الأقدام في مسافة إمتدت لأميال نحو مخيمات في العراء، مات فيها من مات وعانى الكبار والأطفال مشقة السير بعضهم حفاة، تحت تهديد السلاح.

بينما فكّر عمر بما حدث لتلك القريتين ولذلك الرجل؛ حيث صار مجنونا بلباس ممزّق بعد الحادثة، يتسكّع ضاحكا بين الأزقة يصرخ في كل مكان:

- قتلت ابنتاي.. قتلت ابنتاي.

وفي غمرة تفكيره، طُرِق على باب بيته طرقات قوية، ارتعب الجميع فإذا به عمه أبو عمران، يدخل عليه لاهثا يظهر عليه تقدّمًا في السن، حاملا مجموعة من الأوراق، يقول له:

- اسمع يا بن أخي، لقد أمهلتنا الإدارة أسبوعا كاملاً، واقترحت علينا بدل الترحيل حلاً أخرى.

- ما هو؟

- حسب هذه الأوراق، يمكننا البقاء في بيوتنا والإحتفاظ بأراضينا لكن بشرط تقديم طلبات تجنس كإسرائيليين لتصبح لنا صفة المواطنة ولنا نفس الحقوق مع باقي السكان.

- لأعترف بإسرائيل وأصبح اسرائيليا، وأفقد هويتي كفلسطيني؟

- ليس لنا خيار، لقد حدث أن قدم بعضهم ذلك الطلب، خوفا من بطش اليهود، وتحصلوا عليه، أعلم حتى هذا الاقتراح هناك من يعترضه في حكومة العدو.

- لكننا بهذا، نحن نعترف بهم كحكومة شرعية.

- وماذا نفعل يا بُني؟ نحن لا نملك شيئا، لا نستطيع مقاومتهم ولا الدفاع عن أنفسنا ولا أعراضنا، قلي برأيك ما العمل؟ ألا ترى ماذا فعلوا ببقية أهلنا في أنحاء فلسطين بين قتيل ومهجّر وحرق ودمار؟

بعد صمتٍ وترقّب من أبو عمران لردّ عمر الذي انغمس في تفكير قلق، تطلّع إلى أمه وزوجته، ثم رفع عينيه إلى السقف وجال ببصره في كل أنحاء المكان.

استبطأ أبو عمران الردّ؛ فأردف:

- إنها ضرورةٌ يا بُني.. وليست غايتنا، نحن سنبقى فلسطيني الجوهر إلى الأبد، مهما زوّروا الأوراق.

فقَبِلَ عمر الأمر على مضضٍ...

كان غسّان آخر أبناء عمر الذي غالبا ما يرافقه في صباه، أكثر من كل أبنائه الكبار، كان القارب يحمل في كل رحلة خمسة صيّادين مساعدين، والآن أصبح يحمل شخصين فقط، تتوسّط القارب شبكة صيد كبيرة، وعندما يقتربون من المكان الذي يحدّده عمر الذي صار يدعى أبو خالد، يأمرهم أن يلقوا المرساة متوكّلين على الله، كان ميناء يافا ذا صيت عالمي قبل أن يحتله الإنجليز، والآن صار محطّ اهتمام كبير لإسرائيل في تنشيطه، حيث كانت موانئه مقصد للسفن التجارية التي تتوافد عليهم من باقي بقاع العالم، لا يحب أن يترك المجال للإسرائيليين أن يعبثوا في شواطئه، لذلك ورغم الحسرة الشديدة ظل صامدا لا يترك المجال لهم، تحدّيًا للذين يأتون دون استئذان، يبدو أبو خالد رجلاً كبيرا في السن، لا تفارقه قبعته البيضاء إتقاء لفحة الشمس طيلة الرحلة، وفي المكان الذي يختاره يأمر رفاقه أنّ يرموا شباكهم.

يتغنّون بصوتٍ عالٍ:

- باسم الله، باسم الله، باسم الله، والرزاق هو الله.

كان المساعدون يكنّون حبّاً وإحتراما كبيرين لابن البحر، يرافقهم شاب صغيرٍ نشطٍ جدًا، يلقبّونه بالقرد كونه ذو سُمرةٍ شديدةٍ؛ قصيرٍ جدا؛ ومفتول العضلات، يمكنه أن يصل إلى أيّ شيء عالٍ، يكلّف بالمهام التي لا يستطيع أحد فعلها، يهوى تسلّق المباني العالية، كأنه يقول لمن حوله؛ لن يوقفني رغم قصري أحد عن بلوغ المعالي، وكان يثير ضحكهم بنكته وخفّة دمه.

يزور غسّان أباه كل مرة يشعر بها بالضيق، من أجل أن يروّح عن نفسه، حينما كان صغيرًا لا يراه إلا نادرا، لأنه دائم التردد على البحر،

وعندما تجنّس أبو خالد بالجنسية الإسرائيلية شعر بشرخ في صدره وإنحرافا خطيرا في حياته، لكنه رأى الأمر اضطرارًا، وأنّه الملاذ الأخير حتى لا يفقد منزله الذي ورثه عن أبيه، ومن أجل ذلك قام بتوكيل محامٍ يدافع عن أرض جبل الزيتون في القدس من أطماع بعض اليهود الذين يأتون ليلا ونهارا، تارة يعربدون فيها، وتارة يقتلعون بعض أشجارها بواسطة الجرارات، وبعد إعداد الوثائق القانونية اللازمة استطاع بعد عناء شديد أن يبلغ بيروت في رحلة عادية، تنفيذا لوصية أبيه.

خرج أبو خالد كمواطن إسرائيلي له الحق في العبور نحو لبنان، لكن يبقى في نظر حرّاس البوّابات فلسطينيا حتى النخاع، يستشف ذلك في نظراتهم، تماما كما يرون ذلك في نظراته؛ فالأوراق لم تستطع يومًا تغيير الأرواح والقلوب والتاريخ والأرض، ولا تغيّر الهوية، الإسرائيليون يرون ذلك وسيلة نحو غايتهم، وهو يراه وسيلة لتثبيت أقدامه على أرض أجداده؛ ولو على قدمٍ أعرج.

بحث أبو خالد عن عائلة رشيد بك في بيروت، فوجد أنه تزوج من سيدة لبنانية بينما هو قد توفي منذ سنوات طويلة، تمكّن من العثور على الوثائق الملكية الأصلية لأملاك أبيه، حملها في حقائب خاصة أوصى على تقديمها لكل من يطلبها لإثبات حقه من الفلسطينيين، قدمتها له زوجته، واستطاع بها الدفاع عن بيته الذي يسكنه في يافا، إذ كان محل أطماع إدارة الإحتلال الإسرائيلي، حيث كانت كل مرة ترسل له مذكرات قضائية بضرورة إخلاء المنزل، تحت ذريعة عدم وجود عقد ملكية أصلي، لكن بواسطة تلك الوثائق دفع حجج الإدارة، كانت مصاريف المحامي والتقاضي تنزف ما تبقى لأبي خالد من أموال حتى باعت الخنساء جميع مجوهراتها قبل أن ترحل عن الدنيا.

لم يتمكن من استرجاع الأرض التي في القدس عندما استغلتها القوات الإسرائيلية استغلالاً عسكريا ثم اعتبرتها ملكية خاصة للجيش، ثم أنّ محاولات استرجاع محلهم في القدس باءت بالفشل، ولم يلقِ قضاة الإحتلال اعتبارا لوثائق الملكية مُعتبرينها غير كافية، واعتبرت أملاكا غائبين، وقد تملّكها أولاد يوسف إيلان الذين التقى بهم في قاعة التقاضي، يوجّهون إليه نظرات بغضٍ متبادلة، وقد أصبحوا من أثرياء القدس، إذ اشتروا كثيرا من الأملاك العقارية بطرق ملتويّة بالتعاون من العصابات وموظفي الإدارات مقابل رشاوي، كل محاولات أبو خالد باءت بالفشل من أجل أن يرسّم ملكيته لأرضه ولا لمحلّه، ما عدا أنه أثبت بشق النفس ملكية البيت التي يسكنها في يافا، وحافظ على القارب الأخير، حيث يستخدمه بعض أصدقاءه وأولادهم في صيد ما يمكن صيده، أو تنفّس بعض الحرية في قلب البحر.

يشبه البحر اليابسة عندما يأكل السمك الكبير السمك الصغير، لكن في البحر هي حيوانات فُطِرتْ على ذلك، أما البشر فتلك غريزة الإعتداء تملّكتهم، وسيطرت على قلوبهم، وخضعت لها عقولهم، تحاصرهم قوارب القوات الإسرائيلية كلّما حاولوا التوغل في عُرض البحر، ينتظرونه أياما حتى ترتفع أمواجه وتشتد ريحه، فيطمعون في أن تمتلأ شبكاتهم بالسمك بأنواعه. كلّ يوم ورزقه؛ كما يقول أبو خالد لابنه، الفتى الذي عشق منذ صغره صيد السمك، كان يُفرِط في الأسئلة على أبيه عن أساليب الصيد، يطير فرحًا عندما تمتلأ شباكه سمكًا بأنواعه.

علّمه أبوه أن الشرط الأساسي للنجاح في الصيد؛ هو الصبر واحترام الأسماك، رغم أننا نصطاد السمك لنأكله، لكنه يجب علينا أن نعامله باحترام، إنها نعمة من الله، ستأتي إلينا إذا شعرتْ بالإطمئنان والأمان.

قاطعه غسّان بابتسامة:

- اذًا هي الخديعة يا أبي...؟

اعترض أبو خالد لهذا الكلام الخطير، فقال:

- لا لا يا بنيّ.. الصيّاد غير مخادع، ولن يكون كذلك، سيكون طعم السمك عند تناوله مرا، لأنه اصطاده بأسلوب الخيانة من طرف صائده...

تعجّب، وتساءل في نفسه:

- كيف نصطاد السمك بدون خديعة، كلّ شيء على الأرض يصطاد بالخديعة، نظهر لهم الأمان ثم ننقضّ عليهم بعد ذلك.. أليس هذا ما يفعله كل الصيّادين؟

انتبه أبو خالد لغسّان وقد ارتفعت حواجبه، فانطلقت ابتسامة عريضة من شفتيه، قائلا:

- أعلم أنك صغير في إدراك بعض المعاني، لازلت لا تدرك ما أقول، لكن يكفيك أن تحفظه في ذاكرتك، لتعلم معناه عندما تكبر في العمر، ربما قد تكون حينها قد مارست الصيد كمصدر رزق...

اعترف غسّان أنه يحبّ الصيد لكن ليس إلى درجة أن يبقى في البحر بقيّة عمره، لقد شاهد أبيه حينما كان يتجنب القوارب الإسرائيلية العسكرية، التي ما إن تقترب منه حد الاصطدام حتى يتراجع إلى أبعد نقطة عنها، وفي حالات أخرى يطلق الحراس النار في اتجاه القارب حتى يخيفوا الجميع ولا يهمّهم إذا ما أصيب الصيادون بالطلق الناري، ويقومون أحيانا باعتقال الصيادين، فتحجز قواربهم ثم تطردهم، ليضطرّوا بعدها إلى دفع الغرامات الكثيرة من اجل إسترداد قواربهم المحجوزة من أيدي

الإدارة الإسرائيليـة، وفي كثير مـن المـرات يفشـلون رغـم إسـتيفاء كـل الإجراءات أو العقوبات، ويحرمون الرزق أسابيع طويلة.

رغم أنه يعشق البحر وهو ابن بن البحر، اعتبر الإبحار الدائم هروبا مـن الواقـع الذي يـؤلم أبيـه ولا يريـد أن يشاهـده كل يـوم، حـرص على تعليمـه، ولمّا أنهى تعليمه الجامعي في تخصص علوم البحار، أحجم عن مواصلة الدراسات لما بعد التدرج، وقرّر أن يلتحق بالشرطة الفلسطينية، كضابط في صفوفها.

كان الالتحاق بصفوف الشرطة محل معارضة أبيـه، لأنه كان يريد أن يساعده في رحلات الصيد، لكـن غسّـان كان يشعر أنـه شـاب مُفعـم بالطاقـة، لـم يكـن يـدرس في الجامعـة مـن أجـل أن يكـون صيادا، كان طموحـه يتغـير يوما بعـد يـوم، عنـدما سـلّم ملفـه إلى مكتـب طلبـات التسجيل للإنضمام للشرطة المستحدثة بعد إبرام إتفاقية أوسلو، نظر إليه الضابط متأسفاً، بعدما عاين ملفه الطبّي وأخبره أنه قصير عن المطلوب في أحد شروط القبول، غير أن غسّان رد عليه؛ أنه أقل فقط بسنتيم واحد من الشرط، وأضاف معترضًا:

- القضية ليست في الطول، وإنما فيما نحقّقه في الميدان.

تجاوز الضـابط المكلـف بالتسـجيل تعليـق غسّـان، لكنـه بعـد أن تم قبول الكثير من الشباب الذين دفعوا ملفاتهم، كان غسّان ممّن الذين لم تقبل ملفاتهم، فتعجب لهذا الرفض، مما جعله يعود إلى مكتب التسجيل معترضا على عدم قبوله في سلك الشرطة، أحسّ أنهم يحاولون منع حلمه في الالتحـاق بشرطـة بلـده، عنـدما ولج إلى مـدير مكتـب التسـجيل، كان ضابطا بدينا بشوارب عريضة لا يفوقه طولا، طلب منه الجلوس، وبعد أن قدم اعتراضه، قال له المدير:

- وجدنا في ملفك أمر قد أُعترِض عليه.

قاطعه:

- ما هو؟

- أبوك يحمل الجنسية الإسرائيلية، وهذا أمر رفضته الوزارة.

- لكن أبي لم يختر هذه الجنسية.

- نعلم ذلك، لكن القانون لا يسمح.

- لكن نحن فلسطينيون أبا عن جد، ألا تسمع بجدي عثمان آل سامي وتضحياته في سبيل الوطن؟ ألا تسمع بجدي أحمد آل سامي ومعاناته؟ عائلتي فقدت أغلب أملاكها في سبيل البقاء في بلدها، والآن ترفضون قبولي بحجة أن أوراق أبي إسرائيلية، ولكني لم أستخرج جنسيتي ولست بحاجة إليها، أنا استعمل وثيقة هوية إسرائيلية لأتجنب إهانة الإسرائيليين فقط، كما يفعل كثيرٌ منّا، بدون أية حقوق أخرى..

- نحن نقدّر ذلك، لكن القانون قانون.

- إذن حسب كلامك، يمكنني تقديم طلب إلى الشرطة الإسرائيلية، فسيقبلوني دون شك أيضا، لكني لن أفعل ذلك، أفضل أن أكون بدون هوية، على أن اكون منهم، هكذا أنتم تطردوني، وإسرائيل لا تعتبرني إسرائيليا مهما غلفتنا بالأوراق.

تصاعد صراخه غاضبًا، حتى ردّ عليه الضابط بقوله:

- اسمع.. يمكنك تقديم اعتراضك كتابيا، من دون داعٍ للصراخ.

ملأ استمارة الاعتراض، وككلمة أخيرة منه، طلب من الضابط أن يوصل كلامه للمسؤولين في الوزارة، ما لا يستطع أن يكتبه في الاستمارة.

اشتدّ غضب غسان، انصرف يكيل بالشتائم على من حوله، غادر المكان وقد يأس من قبول طلبه، لكن الغريب أنه بعد شهر من ذلك الحادث اتصلت به الشرطة مؤكدة قبوله الالتحاق بها.

تعجّب من تراجعهم عن الرفض، إحتار في الاحتمالات لقبولهم الطعن، ربما يكون كلامه قد وصل إلى المسؤولين في الوزارة حتى قبلوا اعتراضه، وسمحوا له بالالتحاق بسلك الشرطة، وربما قدروا تضحيات أجداده، وربما أشياء يجهلها.

لم يكن الأب راضٍ عن رغبة ولده في الالتحاق بالشرطة. لقد سمّاه بهذا الاسم حبّا في الكاتب الصحفي غسّان كنفاني ابن مدينة يافا، الذي طُرِد كما طرد الآلاف من يافا بعد نكبة 1948، وانتقل إلى لبنان مجبرا، ثم سوريا، حتى أغتيل من طرف الأيادي الآثمة، كان مناضلا وفيًا بقلمه، قاسٍ على الإحتلال من أجل قضيته.

ظهرت على سلوكاته تصرفات جديدة تتنامى يوما بعد يوم، أنهى تدريباته في الشرطة، وأصبحت تظهر عليه علامات الطيش التي لم تعجب أبيه، سمع عنه بأنه صار كثيرِ العلاقات مع البنات، يتنقل يوميًا نحو مدينة تل أبيب، يسهر مع بعض أصدقائه من اليهود والعرب هناك.

۞

أصبحت الشرطة الفلسطينية تنظم وفق إتفاقات دولية مسبقة على رأسها اتفاقية أوسلو دوريات ليلية بين المدن وتقيم الحواجز بمشاركة الشرطة الإسرائيلية، تكون الدورية متساوية العدة والعتاد، لكن كانت قيادة الدورية دائما تكون للإسرائيليين نظرا لمعدّاتها المتقدّمة في الإتصال والتواصل بين مختلف الدوريات والكمائن المتوزعة في عدة نقاط.

وفي ليلة من ليالي الشتاء الباردة، وبينما تتوغّل الدورية المشتركة بين الأحياء، لاحظ عناصر الدورية شخصا ينزل من على حائط منزل، بينما

أشخاص آخرون من داخله يصرخون طلبا للنجدة؛ يصرخون بأن هناك سارق، بينما بدأ البعض في إطلاق الرصاص ليهبَّ أفراد الدورية للقبض عليه، انطلقت السيارات الإسرائيلية مسرعة من أجل الظفر بالشخص الهارب، حتى تمكّنت السيارات من حصارها ولم يتمكّن من الإفلات من قبضتهم، وكان يرتدي كوفية على شكل لثامٍ يغطّي وجهه، توقف في مكانه وكل السيارات تحاصره وتوجّه نحوه فوّهات بنادقها إتجاهه مع أضواء سياراتهم، حتى تجمد في مكانه، طُلب منه أن يجثو على ركبته، فجثا عليها، ثم أُمره الضابط الإسرائيلي أن ينزع لثامه، وما إن حرك يديه نحو الأعلى حتى أطلق عليه رصاصة أسقطته أرضا، جعلته يتخبّط في جراحه، عندها تعالت الصيحات في كل مكان، وهي تردّد:

- لقد قتل الإرهابي، لقد قُتِل...

بعد لحظات تقدمت سيارة الإسعاف تحاول أن تصل إلى مكان الجريح إلا أن الضابط المسؤول عن الدورية منع وصولها رغم تدخّلات ضابط الشرطة الفلسطيني رمزي، كان يتوسّل إليه أن يسمح لها بالمرور، لكن الضابط الإسرائيلي يؤكد أنه لم يتلق التعليمات لمرور أي سيارة إتجاهه، بدأ الصراخ بينهما يتصاعد، هدّد الضابط أنه سيرفع تقريرا عنه إلى مسؤوليه عن عدم إمتثاله للأوامر، وعن سلوكه غير المنضبط، استمرّ الشجار طويلا أمام مرأى غسّان حتى تدخل في الشجار، لكن دون جدوى، فجأة يخبره أحد الجنود الإسرائيليين الذي كان يتحسّس في دقات قلب الجريح، بأنه قلبه قد توقّف، حينها سمح الضابط بسيارة الإسعاف أن تنتشله، لكن كجثة هامدة نحو المستشفى.

تأثّر رمزي وغسّان وكلّ أفراد الدوريّة ليس لمقتله، ولكن كون مواطن فلسطيني ينزف أمامهم ولا أحد يستطيع أن يسعفه، بكى وكأنه لم يبكِ

على أحد من قبل، لم يستطع أن يفعل شيئا لذلك الملثم الفلسطيني رغم اتهامه بالسرقة، يفكّر؛ أن هناك تلاعب بالمصطلحات، تبادلت الأدوار في أرض الأجداد، إذ صار اللص شريفا وصار الشريف لصًا.

لم يستوعب رمزي ما فعله الضابط في تلك الليلة المشؤومة، وجد صعوبة في أن يلتقيه مجددا في عمل مشترك، التقرير الذي رفعه إلى مسؤوليه جعل رؤساء الضابط رمزي يبلغونه انتقاله إلى مهام أخرى، لم يستسغ الأمر ولم يلتفت إلى إعتراضه، أبلغ أنه سينقل في المرة القادمة إلى تلك المهام وكانت تلك آخر مهامه؛ أن يقوم بآخر دورية مشتركة مع الجيش الإسرائيلي، وأن يكون مسؤول الدورية هو الضابط الإسرائيلي نفسه.

اكتشف غسّان أن رمزي ينظر إلى الضابط الإسرائيلي من بعيد نظرات حقد، كان صامتا أكثر من أي وقت مضى، كأنه يتربص بالضابط حتى يقترب منه، تباطأت سيارة الجيب الإسرائيلية من أجل نصب حاجز في مفترق الطرق، يترجل الضابط رمزي، يؤدي يمين الإخلاص الذي حفظه عن ظهر قلب، يقول فيه؛ وكأنه يتلوه لأول مرة في سرّه: ((أقسم بالله العظيم بأن أكون مخلصا للوطن والشعب، وأن أدافع عنهما وأبذل دمي في سبيلهما، وأحافظ على سلاحي وشرفي العسكري، وأحافظ على القوانين والأنظمة وأعمل بها، وأن أقوم بجميع واجباتي الوظيفية والوطنية بشرف وأمانة وإخلاص، وأن أنفذ كل ما يصدر إلي من أوامر، والله على ما أقول شهيد)).

فجأة يصرخ معترضًا على مكان الكمين الذي عينه الضابط، وما إن اقترب منه رمزي وفي حركة خاطفة انتزع المسدس من غمده وفي لمح البصر ودون أن ينتبه أحدُ لحركته السريعة، وضع المسدس على جبهته

وأطلق رصاصة الموت في جبهة الضابط فأراده جثة خامدة ثم رمى المسدس من يديه، ليوجه كل أفراد الدورية بنادقهم إتجاه بعضهم البعض، ثم إتجاه الضابط رمزي الذي جثى على ركبته وشبّك يديه فوق رأسه، وكأنه يعلن أنه قد انتقم لذلك الملثم.

اشتبك أفراد الدورية فيما بينهم حول من يأسره، حتى احتكم الجميع إلى الإتصال بقيادتهم وإبلاغهم بالحادث، ليقرروا ما العمل، فتوافد كثيرٌ من القيادات نحو المكان ليأخذوا العيّنات والقياسات، كما تم استجواب كل الأفراد الواحد تلو الآخر، وأقتيد الضابط رمزي من طرف أفراد الشرطة الفلسطينية إلى السجن الإحتياطي حتى يتم التحقيق، ثم حكم عليه لاحقًا بالمؤبد في المحكمة العسكرية بتهمة إرتكاب جريمة قتل.

تأثّر غسّان كثيرا من مشهد إقتياد الضابط رمزي؛ صديقه المقرّب الذي إحترق قلبه من مشهد قتل ملثم فلسطيني أعزل، لم يستسغه، رغم أن قتل الفلسطينيين يتكرّر كل يوم، فكّر وكأنه لأول مرة يفكّر، بعدما أن قبض على زميله الخلوق رمزي لأن ضميره حيٌّ ولأنّ نخوته تحرّكت إتجاه قتلة يلبسون زي الشرطة يجوبون الشوارع ويقتلون الناس كما تقتل القطط، قرّر أنه سيكون مثل رمزي في شجاعته لكن دون أن يجذب الانتباه، دون أن يسلّم نفسه ويداه متشابكتين على رأسه، يجب أن يفعل ذلك دون أن يراه أحد، يقتل الذي يستحق القتل، يدافع عن العُزّل كما فعل أجداده.

بدأ يتدرّب على القنّص أكثر من أي وقت مضى، وليس هناك مكان أفضل من ميدان الشرطة للتدريب، رفقة رمزي، كان يدرّبه بطريقة جدّية ومكثّفة، كأنه يريد أن يعطيه سرّاً قبل أن يفترقا، لقد عرفا أسرار بعضهما؛

صار حب الوطن والعدو المشترك من أعظم الأسرار، إلا أن الكلام بما يختلج في الصدر قد يؤدي إلى السجن.

كان يتذكّر نصائح أبيه عن الصيد، الصيد هو قنص بوسائل أخرى يحتاج لنفس المهارات أهمها الصبر والتركيز، يجب أن تختفي عن عيون الضحية، كلما كنت مختفٍ كان نجاحك مضمون، قبل أن توضع البندقية داخل الكتف يجب أن نلتصق بالأرض، الثبات مهم في أي مبارزة، المسافة يجب أن تكون مدروسة لكي تكون الإصابة مميتة، الجرح لم يكن غايته، الموت هو الهدف الأمثل لأولئك الذين يستهدفون العزّل لقتلهم، القتل بالقتل والبادئ أظلم، قطع التنفس هو تخفيف لارتداد الطلقات، وإدراك إلى أي اتجاه تهب الرياح، صار يطالع ويقرأ ويبحث في شبكات الانترنت عن كل ما يتعلق بالبنادق القناصة، وعن أساليب القنص، شاهد أشهر القناصين، جمع معلوماتهم، رافق أبيه أبو خالد، طلب منه أن يحدثه عن الصيد، ماذا يتطلب، وكأنه أول مرة يتعلم الصيد، استغرب الأب أسئلة ابنه، شكّ أنه يقصد البنات وصيدهم، جاراه في ظنه حتى لا يعرف ما يخطّط له، كانت الكلمة التي استفاد منها، هي أن الصيد يتطلب أن تكون في المكان الصحيح للبحر أثناء هدوئه حتى تقترب من السمك جيدا، حتى تشعره بالأمان، الأمان هو الذي يصيد السمك، قال في نفسه:

- الأمان؛ هو الذي يجعل القنص ناجحًا.

فكّر في حيرة، أين يجد الأمان في أرض تحترق كل يوم في يدي العدو الصهيوني، بين كل حيٍّ وحيٍّ حاجزُ تفتيشٍ، كل الأماكن محصّنة، التحرك بالسلاح بحُرية شبه مستحيل، أفراد الجيش يتربصون في كل مكان، وأعينهم تزودهم بكل مشتبه به، لا يجب السقوط في أيدي الموساد ولا

الشاباك ولا الخونة ولا حتى الأصدقاء، هذا هو الأمان، أن لا يعرفك حتى أبيك وأخيك، كلما ضاق السرّ كان بمأمن عن الاكتشاف.

البقاء في الشرطة ليس شيء مأمون، ففي الشرطة تقيّد الأسماء والمعلومات الخاصة، العمل الجماعي المنضبط يُصعّب أمر القنص، فكيف يتم الإفلات من الحركة الجماعية، الهدف الذي يرديه يجب أن يكون بعيدا، غافلا، واقفا، ينتظر أن يقتُل فيُقْتل.

وهذا لا يتوفر في الشرطة إضافة إلى جملة من التحقيقات التي لا تنتهي أبدا كما حدث مع صديقه الضابط رمزي.

صديقه رمزي نصحه أن يترك المكان قبل أن يحدث له ما حدث، وقبل أن تتلوّث يده بدم ابن وطنه، أو يشارك في قتله أو حبسه، وعندما تأكد من إخلاصه واكتشف حبّه للوطن، حتى أسرّ له سرا خطيرا، حرص على ألا يخرج صدر من غسّان مهما كانت الظروف، أخبره أن هناك شحنة من الأسلحة قادمة إلى فلسطين عبر البحر الأحمر، محمّلة في سفينة تجارية كبيرة، لكنه لا يعرف التفاصيل الأخرى، وسيرسله إلى أحد البحارة في ميناء حيفا إلى شخصٍ اسمه أبو شامة، مع كلمة السر المتعارف عليها، ليحدثه عن الباقي؛ من المواعيد والخطة، ليشارك في عملية استلام الشحنة والتزوّد منها بطريقة ما، وهو بذلك يخلفه في مهمته، خصوصا أنه علم أنه سباح ماهر عاشق للبحر كما هو عاشق لفلسطين.

سرٌ كهذا لا يمكن أن يخرج بهذه السهولة لولا أن رمزي وثق في غسّان، وخروج السر منه قد يؤدي إلى كارثة كبرى، ويجعل إسرائيل قد أحبطت أكبر محاولة للتهريب التي إن تمت ستهددها وتهدد وجودها، لقد أسرّ له أن دخوله إلى السجن يجعله يكلّفه أن يكون مكانه في هذا العمل الخطير ولا أحد آخر يمكنه أن يخلفه سواه.

بعد تفكيرٍ دام أيامًا، حاول غسّان أن يعثر على المكان أكثر أمنا، حدّق إلى سيارة إسعاف تمر بجانبه، إنها المكان الأكثر أمانًا هنا على هذه الأرض، السيارة التي تحترم باحترام أكثر من أي سيارة أخرى، يمكنه أن يكون مسعفا فيها، وفيها يتدبّر أمره.

لذا عليه أن يبتدع حادثًا ما، أو فكرة ما تجعلهم يستغنون عن خدماته، ثم يحاول بالعلاقات التي كوّنها أن يشتغل مسعفا في سيارات الإسعاف، ومنها يخطّط كيف يُدير عملياته.

وكأول خطوة ادّعى يوما خلال حصة تدريب أنه أُصيب في عينه من شظايا بارود عندما اقترب من زميله في الرمي، احمرت عيناه وقد رمى فيهم بعض الأغبرة حتى يجعل الطبيب يصدّق زعمه، ويوصف له أدوية للعين، انسحب من تلك الحصة بعطلة مرضية طويلة جعلته بعد ذلك يزور طبيبا للعيون، ليصنع له نظارات طبية، بعد أن أثبت للطبيب أنّه لا ينظر جيدا إلى الأمكنة البعيدة، وقد دونها الطبيب في تقريره، ليقدّمها إلى طبيب الشرطة، أجبره الطبيب على تقديم اختبار نظر، فتمكن من خداعه، حيث أوهمه أنه لا يرى كثيرا من الأحرف التي يشير إليها، مما جعله يقدّم تقريرا فوريا عن عدم كفاءته لحمل السلاح، وإلاّ فإنّه سيتسبب في مقتل أحد زملاءه، أبدى أمام رؤساءه انزعاجًا لهذا التقرير الذي قد يدفعهم نحو تسريحه متى طلب هو ذلك، وبالفعل تأسّف الرؤساء لهذا الحادث العارض، خُيّر بين البقاء في قسم الخدمات أو الإدارة أو التسريح من الخدمة ككلّ، أظهر حزنًا شديدًا من فراقهم، لكنّه طلب منهم خدمة أخيرة أن يساعدوه في التوظيف كمسعفٍ طبي في المستشفى كخدمة منهم له، يقوم هو بها كخدمة لوطنه، وقد كان له ما أراد.

بعد أن سرّح من الشرطة، وظّف في المستشفى بعد أن تلقى تكوينا مُكثفاً في الإسعاف، أبدى فيه كفاءة عالية، التحق بوظيفته وهو يرتدي نظارة طبية.

وهنا بدأ التفكير في الخطوة التالية...

الجزء الثالث

ندوب على جدران الذاكرة.

اقتحمت الشرطة الإسرائيلية بيت أبو خالد دون أن يطرق عناصرها الباب، كانوا يرتدون زيا أزرقا، ويضعون لُثمًا على وجههم، مدجّجين بالأسلحة، حاصر بعض قواتها البيت من الخارج، يصيحون باستعمال مكبّرات الصوت، قائلين بأن المكان مُحاصر ويجب ألاّ يغادره أحد، ويحذّرون من أن يقوم أيّ شخصٍ بمحاولة الفرار، دخلوا الغرفة تلو الأخرى، يفتشون في كل ركن من أركانها، يقلّبون الكراسي والآرئك، ويتحسّسون الجدران، يفتحون الخزائن ويُسقطون ما فيها، ويبعجون الوسائد والأسِرّة، أمضوا وقتًا طويلاً وهم يُحدثون الفوضى في كل شبرٍ من البيت، حتى وصل غسّان إلى البيت متعجّبًا من اقتحام الشرطة لبيته في وقتٍ متأخر من الليل، ولحسن الحظ فقد كان الأب في عرض البحر، التفّ حوله شرطيان في غفلة منه، ووضعا القيد على يديه، وهو يصرخ في وجوههم مُستفهِمًا:

- ماذا فعلتُ؟ ماذا تريدون منّي؟ لماذا تعتقلونني؟

ردّ عليه أحدهم:

- أصمت، لا تتكلّم كثيرا، عندما تذهب إلى المركز ستعرف كلّ شيء، أنت مُستدعى لدينا، سنؤدّبك هناك.

حاول التخلّص منهم، لكن أفراد الشرطة لم يتركوا له المجال، ولم يعبئوا بمناشداته، قاموا باقتياده غصبًا عنه وزجّه في سيارات الشرطة نحو مركز التحقيق.

فكّر في طريقه، عن سبب إعتقاله، أيكون قد عرفوا شيئا عن عمليات القنص التي قام بها؟ أم أن الأمر يتعلّق باعتقال تعسّفي نتيجة

عمله كمسعف للمتظاهرين الفلسطينيين؟ أم أن المصابة التي عالجها قد أصابها مكروه ما؟

لا يدري؛ كيف اكتشفوا أنه فعل شيئا رغم كل التمويه الذي قام به أثناء تنفيذ عمليات القنص؟ ففي خلال عملياته كان ينسل من جموع الناس دون أن ينتبه له أحد، أيكون أحدهم قد رآه يتسلل بين الأحراش أعلى التلة المقابلة لتجمّع الجنود؟ أو لاحظه أحدهم عندما دسّ البندقية في سيارة الإسعاف.

كانت عمليته الأولى ناجحة بامتياز، شعر بالخوف الشديد أثناءها، تسارعتْ دقاتُ قلبه أكثر من أي وقت في حياته، كما تسارعت حركاته نحو مكان عالٍ يتمركز فيه، حيث يمكنه أن يرى كل الجموع المتظاهرة ولا يراه أحد، انطلق من سيارة اسعاف كانت متوقفة خلف خطوط المتظاهرين، وقد توقفت وسط الفوضى تستعد لكل طارئ، ودون أن يتحدّث مع أحد، ولا يثير انتباه أحد، مع أن المكان والظروف لا تجعل أحدا يعبأ بالآخر، إلا إذا أصيب أحدٌ فيلتفّ حوله الناس دون أن يعرفوه، يحملونه نحو أقرب سيارة إسعاف، لتنطلق به نحو أقرب مستشفى، دون أن تكشف هويته. خرج غسّان من إحدى سيارات الإسعاف ملثما يخرج أغلب المتواجدين، يحمل شيئا طويلاً عمودي الشكل يبدو كعلم فلسطين بحجم كبير، هي في الحقيقة بندقية ملفوفة في قماش أبيض عليه علم فلسطين، تفادى الأطفال الذين يحملون الحجارة والعجلات المطاطية، الذين يقتربون بلا خوفٍ من نقطة إلتماس مع الجنود الإسرائيليين والمستعربين الملقبين بحرباء الجيش أو وحدة دوفدوفان 217، وهم الخطر الأصعب الذي يصعب تجنبهم لتنكّرهم الجيّد في وسط المتظاهرين الفلسطينيين، ولهجتهم المتطابقة معهم، كانت الفوضى العارمة أحد

أسباب نجاح عمليته، فاستغلها استغلالا تامًا، يركض ذاهبًا إلى أعلى مكان، كل الإتجاهات مسموحة في حالة الفوضى، حتى الرصاص المطاطي ليس له اتجاه، والأدخنة تغطي كثيرا من الصور، تقدّم على أن يقوم بأول عملية قنص في مسيرة كفاحه؛ قنصٌ ليس كأيّ قنصٍ، ليست سمكة تتحرك بسرعة في قلب البحر، بل إنسان يتحرك على سطح الأرض، يبدو الأمر أسهل، النصف الأول من النجاح في العملية هو أن تكون الإصابة إصابة مميتة، والنصف الثاني هو الفرار من المكان دون اكتشافه، إنها عملية صيد بالمعنى العام، كما يسميها ابن بن البحر، عثر على مكان هادئ، يُشاهد من بعيد الطرفين معا، الشباب الثائر والجنود الواقفين قرب سيارات الجيب، يختفي هو وراء شجرة زيتون كثيفة الأوراق، يتذكّر أن يجب أن يكون ثابتا في مكانه مثلها، تنبعث رائحة الزيتون منها، كان الجو ملائمًا هادئًا، لا ريح يحرّف الرصاصة عن وجهتها، كلّ مليمترٍ مهمٌّ، كلما كانت المسافة بعيدة يصعّب التدقيق، ويزيد معدل الخطأ، في السماء تنتشر بعض الأدخنة، والشمس تميل إلى الغروب، الليل كان قريبا لكي يختبئ تحت جناحيه، سيكون ملاذا للانسحاب بعيدًا عن الفوضى، أما حاليا فحركته متواصلة، جعلت جسده يتعرّق، دقات نبضه لا تكاد تهدأ، ينظر إلى كل الجهات والزوايا، يفكّر فيما بعد الطلقة، يجب أن تكون طلقة واحدة قاتلة، ليس هناك مجالٍ لأكثر من طلقة، هكذا يمكن أن يرعبهم، طلقةٌ في الرقبة من أضعف النقاط في جسم الانسان؛ المكان الذي تمرّ منه كل الشرايين والأوردة، إصابتها بكتلة من نحاس صلب من أي عيار تحدث الموت في ثواني، هو توقيعه الذي عزم على توقيعه، والذي سيتكرّر إذا حافظ على سرية ما يفعل، مواصلة لكفاح الأب الذي كان صيادًا ماهرًا، وجدّه القناصُ المتمكّنُ. انتظر حتى يهدأ صدره، ارتدى قفازه لكيلا

تظهر بصماته في أي مكان، نزع القماش عن البندقية، انبطح جيدا حتى شعر أنه انغرس في الأرض، تمامًا كما شجرة الزيتون التي كان يحدثه فيها جدّ أبيه، انتزع جانبا نظارته الطبية من على عينيه، ثبّت الأخمص في كتفه اليمنى، أغلق عينه اليمنى، نظر من خلال عدستها نحو باقي الجنود، حيث يقفون حول بعضهم البعض مثل السمك، لكن السمك أسرع وأجمل منهم، لا يعلمون أنهم في مرمى قناص متمرّس، سيفتكّ بأحدهم، تمنّى غسّان لو كانت الرصاصة شبكة قاتلة، تنقّل بمنظارها من رأس إلى رأس آخر، غير أن أغلب الرؤوس كانت مغطاة بالخوذ، كانوا واضحين تماما أمامه، يتحرك بعضهم سريعًا يهاجمون المتظاهرين، يقف الآخرون قرب سيارة الجيب، وآخرون يحتمون وراءها، يترصّدهم كلهم، لحسن حظهم لا يمكن التقاطهم بالشبكة، لو كان كذلك لكان الأمر أفضل، ولكان سيكون صيدا ثمينًا، ظل ينتقل بمنظاره من جندي إلى آخر، حتى عثر على أحدهم لا يتحرك، ينتظر الطلقة القاتلة من اعلى التلة، يركّز عليه، إنها ضحيته الأولى المفترضة، تحرّك لكي يتكأ على سيارة الجيب أخيرا، ترفع الضحية رأسها عاليا نحو السماء، وكأنه يفتح رقبته لغسّان حتى يرسل إليها طلقة واحدة ترسله إلى ما كان ينظر إليه، إلى السماء، قطع أنفَاسه؛ فقطع الأنفاسُ لحظة تعاطفٌ لا معنى لها، يبعث بها القاتل نحو الضحية، غير أن الضحيّة سينقطع نفَسها إلى الأبد، بينما يستمر القاتل في درب الحياة، اجتاز إصبعه الحركة الفارغة الميّتة من ضغطة الزناد، ثبُت الرامي والمرمي عليه، أطلق القنّاص رصاصته نحو رقبة الجندي، فأصابته الرصاصة مباشرة، سقط في مكانه، تلاشى إلى الأرض وقد تخلى عن كل شيء، خرّ جثة هامدة دون حركة واحدة، انتبه له زملاءه المنتشرين، فتراجعوا كلهم إلى الوراء يختبئون وراء سيّاراتهم، يُطلقون الرصاص بكثافة في كل اتجاه،

أثناء ذلك وبسرعةٍ فائقة كان القنّاص قد لفّ بندقيته في القماش، ومن ثمّة في علم فلسطين، أسرع عائدا كالبرق مُندسًا بين الجموع، التحق بسيارة الإسعاف، وضع البندقية في مخبئها؛ في مكان على شكل جيوب صنعها تحت قماش سرير الإجلاء، لم ينتظر كثيرا حتى أجلى أحد المصابين عائدا إلى المشفى.

بعد العملية ثارت ثائرة الإسرائيليين، تزايد أعداد الجنود بعد مصرع الجندي، واعتقلوا كل من استطاعوا اعتقاله من الشباب، وكان عددهم كثيرٌ جدا، في محاولة لاكتشاف الفاعل، لقد تفاجئوا بنوعية العملية، اغتيال جندي بهذه الكيفية يبعث على القلق، صحيح أنه كان يقتل جنود خلال الاشتباكات بطريقة أو بأخرى، لكن هذه العملية النوعية أمر مثير للاهتمام والخوف معًا، في أسلوبها الفريد.

ها هو الآن غسّان يكبّل من يديه، يُجر نحو التحقيق غاضبا متأسّفا، كونها قد تكون العملية الأولى والأخيرة التي ينفذها، كان يريد أن ينفذ أكثر من عملية واحدة، لكن يبدو أن الأمر ليس بهذه السهولة، إعتقد أن العملية كانت ناجحة، لا شيء أثار خوفه بعد الحادث، لا يمكن اكتشافه داخل الفوضى العارمة، لكن كل شيء ممكن، ولا شيء مضمون.

وُضِع في زنزانة ضيقة في قسم الشرطة؛ وهي عبارة عن سجن إداري مؤقت إنفرادي، دون أن يتكلّم معه أحد، ظل الليل كلّه، دون أكل وشرب، يفكر؛ كيف اكتشفوا أمره؟ يعلم أنّ نهايته ستكون هكذا، أو أشدّ من هذه، التفكير في العواقب يعطّل النجاحات أحيانًا، لا يمكن أن تكتشف عمليته بهذه السهولة، ولا كيف وصلت له البندقية؟ لو كان الأمر كذلك، لمَا انتظروا ليلة كاملة في السجن دون استجوابه، ربما يكون أمر آخر سبب لإعتقاله، أصابته الحيرة، منعت عنه النوم، بل أدخلته في

متاهات لا نهاية لها، في كل الأحوال الإحتلال ليس مجبرا لتقديم أسباب لإعتقال أحد.

بعد الظهر أُخرج غسّان من الزنزانة نحو مكتب التحقيق، حيث وجد الضابط خليل في مكتبه، ذلك الشاب الأسمر، وهو ينتظر قدومه، وبعد أن تأكّد من اسمه الكامل، وضع المحقق أوراقًا كان يقرأها.

خاطبه بعبرية طلقة:

- أتعلم ما هي تهمتك؟

- لا أعلم، من المفترض أنتم الذين تخبرونني بتهمتي، فأنتم من اعتقلتموني، وأنا لم أفعل شيئا.

ابتسم الضابط بسخرية، ثم قال له:

- أنت، لم تفعل شيئا، بل كلّكم لم تفعلوا شيئا.

صمت قليلا ثم أردف:

حسنًا، أنت متهمٌ بسرقة قلادة ذهبية.

تنفّس غسّان الصعداء من هذه التهمة الجديدة، يفكّر في نفسه:

-كل هذا التهريج من أجل قلادة ذهبية.

استعاد تركيزه، ثم قال:

- أيّة قلادة؟ أنا لا أفهم ما تقوله.

فصرخ خليل:

- القلادة التي اقتلعتها من رقبة المجنّدة التي قمت بعلاجها.

- آه.. أنا لا أعرف عمّا تتكلم، كيف أسرق وأنا بين جنودكم، لو كنتُ سرقتها لرأوني، ضف إلى ذلك أنا أتيت بعد إصابتها وليس قبل ذلك، كان من المفترض أن تكرّموني على علاج تلك المجنّدة، لا أن تتهموني.

ضحك الضابط:

- ههه.. نكرّمكَ؟ أنتَ بالفعل مُضحك.

اقتحمت أوليندة مكتب التحقيق، كانت بزي مدني جميل، سروال دجينز برتقالي مع قميص أحمر، وشعرٍ منسدل على أكتافها، لم يعرفها غسّان مباشرة، بدت له أجمل من المرة الفائتة، وأكثر مما كانت عليه في لباسها العسكري، يجعل اللباسُ العسكري الأنثى تبدو ذكرا، آنذاك لم يعرف سوى أن شعرها مسدول على أكتافها، وجسمها الممتلئ، الزي العسكري يجبر الأنثى أن تُبدو غاضبة لكل شخصٍ، ويخشوشن صوتها ترهيبًا لغيرها، وتسلك سلوكا عدوانيا طيلة فترة مناوبتها، تُخفي ابتسامتها لظروف العمل، تصبح في زمن الحرب؛ إما قاتلة أو مقتولة، متنمّرة على أحد أو ضحيّة تنمّر، تتحوّل إلى جنس آخر غير كونها أنثى؛ تحمل بندقية، وسكينا، وقنبلة، مستعدة للقتل وللجرح، تمامًا كما تعلّمت طويلاً أثناء التدريب، تنسلخ من أنوثتها التي تأبى مثل هذه الأشياء الذكورية، يُفترض أن تكون الأنثى صانعة سلام، ومانحة حياة، نادرا ما كانت الأنثى صانعة موت، إلا إذا تأذّت ستصبح قاتلة شرسة دفاعا عن نفسها أو عن ولدها، أنْ تصبح وظيفتها الدائمة القتل، كما هي أوليندة؛ فهذا شيء مقزّز، لكن الأنثى عندما تُصاب أو تجرح سرعان ما تتذكّر رقّتها وضعفها الشديد، وأن هذا المجال الوظيفي لا يليق بها.

وهناك من يقول أن الانثى لا تتحول مهما حاولت، ربما تحولت أثناء التدريب العسكري الصارم.. لذلك، يفكّر؛ هل شعرت أوليندة بذلك التحوّل؟ سؤال يريد أن يطرحه عليها، لكن في الوقت المناسب أو في المكان المناسب.

طلبت أوليندة من خليل أن يسمح لها بالكلام مع غسّان، بدت له أكثر جمالا وأنوثة من المرة السابقة، كأنّها فتاة أخرى، دليل قاطعٌ على أن

اللباس الخارجي يغيّر شيئا من شخصيتنا؛ ولو سطحيًا، أو على الأقل يُعطي انطباعًا على ذلك التغيّر المنافق.

جلستُ أوليندة على كرسي مقابلٍ له، نظرتْ إلى عينيه، كأنها تحاول منعه من الكذب، أو تدعوه للصدق، ثم قالت:

- أتدري ما قيمة القلادة التي أخذتَها أيها الّلصّ؟

بادل نظراتها بنظرات تحدٍ مماثلة، ثم ردّ:

- أولاً، أنا لستُ لصًا، وللمرّة الألف أقول لك أنا لم أسرق قلادتك، ولا يهمّني قيمتها، ولا ماذا تعني لك.

لمح ندبا رقيقا على شكل خط رفيع يظهر في مكان الذي أخاطه لها، فتأكد أنها فعلا الضابطة التي أصيبت ثم عالجها، فقال لها:

- بدل أن تشكريني نظيرة خدمتي ومعالجتي لك؛ تجلبوني من بيتي كالمجرم، وتتّهموني ظلمًا بالسرقة.

أشارت إلى ندبة الجرح، قائلة بغضب:

- ما فعلته حينها كنتَ مجبرا عليه، لا حلّ لك أمام فوّهات البنادق التي أحاطت بك من كل جانب، لو كنتُ وحدي؛ لنحرتني كما تنحرون الشاة في أعيادكم.

- لم أكن مجبرا، لا يمكن أن تجبري أحدا على إخاطة جرح أحدهم، وإنقاذ حياته، كان يمكنني أن لا اعقم مواد العلاج، فيصيبك مكروب يؤدّي إلى موتك، دون أن يكتشف أحد ذلك، ما فعلته سأفعله في أي مكان.. يا عزيزتي، نحن نبلاء حتى مع أعدائنا.

ابتسمت ابتسامة استخفاف، لا تُصدّق ما يقول، حتى قالت له:

- والله؟ قد صدّقتُك... حسنًا، أين هي قلادتي؟

- أؤكد لك أنّي لستُ من سرقها منك، ابحثي عن المقرّبين منك.

- ماذا تقصد؟

- الذهب عشقُ النّساء بالدرجة الأولى.

- دعك من المراوغة، دلّني أين أجدها؟ وسنُفرِج عنك.. ونعيدك إلى عملك، وننهي التعليق عن العمل الذي حدث لك.. نعِدك.

نظر إليها بتمعّن، تأكد أنهم يتابعونه، ويستقصون أخباره، أما هي فاعتقدتْ أنه سيعترف أخيرا بالسرقة، لكنه قال لها كلمات انطلقت من حنجرته كرصاصات رشاشٍ متتالية:

- أأزعجك ضياع قلادة ذهبية التي تُشترى وتباع ببضع دولارات في الأسواق، ولم يزعجك أرض شعبٍ تسرقونها من تحت أقدامه بدون وجه حقٍ، وبلا حياءٍ؟

انفجرت غضبًا من كلماته المستفزة، كأنه يتحدّاها؛ بأنه لن يُعطيها القلادة، مهما حاولتْ معه، لم تفكّر في كلامه عن سرقة الأرض، طالما أخبرتها أمّها أن الأرض المقدسة لهم، وعاصمتها أورشاليم، وأن العرب مجرد رحّل ينتقلون من صحراء إلى صحراء، لا حق لهم في شيء.

انتهى حوارهما بصراخٍ شديدٍ متبادل، جعل الضابط المحقق يقف غاضبًا، ويأمر جنوده بإيداعه السجن الإداري حتى محاكمته، لكن أوليندة طلبت منه خفية عدم تسليمه إلى المحكمة، لأنه قد يظفر بالبراءة، فليس هناك دليل واحد ضده، وما التهم الموجّهة إليه إلا مجرّد ظنون.

مرّت ثلاثة أيام، وهو محتجز في السجن، دون محاكمة أو سماحٍ لزيارة من أهله، بدعوى أنه سيتفق معهم على إخفاء أدلة إدانته.

***

منذ أن غادرت أوليندة وهي تفكّر في نظرات غسّان الحادة، وكلماته القوية، في ثقته في نفسه، لا يبدو سارقا أو أنه سارق متمرّس، بدا لها شاب مفعم بالقوة والثبات، لم تجد إجابة من زملائها الذين رافقوها أثناء

ضياع القلادة، ولم تخبر أمها عن ذلك، كانت القلادة غالية بالنسبة لها، قد تصاب أمها بارتفاع ضغط الدم إذا أخبرتها بضياعها، تتصرف معها بسلوك عادي أمامها، ولم تكتشف آليس شيئًا، كانت أولينده ترتدي كل مرة طاقم من طواقم الذهب التي تملكها، غير أنها أصبحت تتفادى أن ترتديها أثناء عملها، ولا تتزين بها إلا إذا كانت هناك حفلة ما مع الشلة من الأصدقاء والصديقات، كانت من بينهن صديقتها المقربة إيمي، التي أقنعتها بأن تستبعد كل شكوكها عن زملائها، كانت تخبرها أن السارق هو المسعف ولا أحد غيره، لكنها لا تجد ما يُثبت ذلك، القلادة لا تقدر بثمن؛ قديمة قدم عائلتها، تمتد إلى الجدة آنّـــا.

كان الاستفسار دون جدوى، لكنّها فكرتْ في البحث بطريقتها الخاصة، اتفقتْ مع الضابط على تفقد كل كاميرات المكان الذي كانوا يصدُّون فيه الشباب المتظاهر، ومن خلالها يمكنها أن تجد شيئًا ما، جابت مع خليل المحلات المجاورة وأعمدة الكاميرا المنتشرة في الطرقات، لعلّهما يجدان دليلا واضحا وصريحا يُدين غسّان ويجعله يستسلم للفيلم ويُعيد لها القلادة، لم تستغ أولينده مقترح خليل بتعذيب غسّان لكي يعترف، استبعدت أن يعترف بسهولة، شخصيته لا تدلّ على أنه شخصٌ ينهار بل سيتعنّت ولا يعترف. وانتقالاً من كاميرا إلى أخرى؛ دام البحث أياما متتالية حتى آخر كاميرا كانت مُثبتة باتجاه المكان الذي كانت تتموقع فيه مع زملائها أثناء الحادث، شغّلا الفيلم وانتظرا اللقطة التي تحسم الأمر، حتى رأيا لحظة سقوطها على الأرض وانفلات شيءٍ منها، بدا أنّه كحزامٍ سقط على الأرض وهي قلادتها بلا شك، المفاجأة أن إحدى رفيقاتها قامت بالتقاطها، ووضعها في جيبها بحركة خاطفة، ثم لاحظتْ بعد ذلك توقف سيارة الإسعاف التي أسعفتها، عندها عرفت مَن سرق

القلادة؛ وهي صديقتها المقرّبة جدًا إيمي التي طالما رافقتها في العمل والحفلات والملاهي.

استدعى الضابط خليل إيمي بحضور أولينده، حتى يضعها أمام الأمر الواقع، لمّا دخلت وجدتهما ينتظرانها في مكتب التحقيق، ينظران إليها بحدّة وغضب شديدين.

بادرت أولينده بالكلام:

- ها قد كُشِف أمرك، لا المُسعف، ولا أحد آخر سرق القلادة، إنما الفاعل زميلتي، وصديقتي الحميمة الحبيبة إيمي.

لتردّ بصوت مرتفع تُنكرُ إتهامها بالسرقة:

- لا لست أنا، أنا لَا أسرق زميلتي، ما بكِ يا أوليندە؟

ابتسمت باستخفافٍ:

- لقد اكتشفت أنكِ حقيرة كاذبة وسارقة.

ارتجفت خوفا وردّت:

- لا تقولي هذا الكلام يا أوليندە.

صرخت أوليندە بشدّة، بينما ظلّ الضابط يتفرّج دون أن ينْبس بكلمةٍ واحدة:

- كفاك انكارا، لقد وجدنا دليل تورّطك في إحدى كاميرات المراقبة.

بُهتتّ إيمي عندما أخبرتها بذلك، لا يمكن انكار صورة تتحرك، انكشف أمرها أمام صديقتها، فانهارت معترفة، تتذكّر عن تلك القلادة التي طالما أعجبتها وأبدت انبهارها بها، وأخبرتها بأنها قلادة مميزة، رغم أنّها بحثتْ عن شبيهتها في كل محلّات المجوهرات لكنها لم تجد مثلها؛ لا من حيث نوعية الذهب، ولا في كيفية زخرفتها التي تبهر الناظر، ولا ثقلها الذي يجعلها تثبت على الصدر، تجعل مَن تلبسها مِلكةٌ متوّجة، تزيدها

جمالا ورونقاً، فقد طلبت منها أن تعيرها إياه أكثر من مرة، لكنها ترفض ذلك مهما كانت الأسباب، فهي أغلى من أن تتداولها الأيدي، حتى أنها منعتها أن تلمسها في سهرة من السهرات، حيث كانت محطّ أنظار الجميع، لا تسقط من صدرها حتى لو رقصت بصخب، حتى لو قفزت على الأرض رقصا مع أحد أصدقائها، يمكنه خلال الرقصة أن يلمس أي شيء من جسدها أثناء مراقصتها، بل يغازلها كيف يشاء، ما عدا أن يلمس حتى ولو برؤوس أصابعه قلادتها، مبدياً اعجابه الكبير بها، هي أغلى حتى من عذريتها، أهدتها أمّها إياها عندما تخرجت من الجامعة ذات مساء أمام جمع من الضيوف، وأخبرتها أن قصّتها أطول من حياتها، وأن هذه القلادة غالية لدرجة أنه ليس لها ثمن، لذلك أوصتها على الحفاظ عليها، كما تحافظ على حياتها، وأوليندة حرصت على ذلك، دون أن تتمكن من الوفاء بذلك الوعد.

تتذكّر أوليندة أن إيمي هي التي كان تشجّعها على ارتداءها حتى في مناوبات العمل، كم تشعر بالغباء حينما أنّها كانت تحرّضها على ذلك، حتى تستغل أيّ هفوة لكي تسلبها إياه في غفلة منها، حتى حدث ما حدث عند أصابتها في ذلك اليوم المشؤوم.

❖

أصبح غسان في نظرها بريئا، لكن ليس براءة تامة، إذا لم يسرقها لا يعني أنه غير سارق، ربما لو أُتيحت لها الفرصة لفعل أكثر مما فعلت زميلتها، إنه بريء من تلك الحالة، لكنه ربما مجرم في أماكن أخرى، للإجرام وجوه أخرى...

وكأنها تقول: كل الفلسطينيين مجرمون إلى أن تثبت براءتهم، وهم لا يستطيعون إثبات ذلك.

أطلق الضابط سراح غسّان دون كلمة اعتذار، وسجنت إيمي بعد ما تم تفتيش منزلها فجأة، فعثرت الشرطة إضافة إلى القلادة سلسلة من المسروقات من المعدن النفيس، لم تنفع توسّلاتها كي يغفر لها، زُجّت في السجن، بعد أن تمّ محاكمتها عسكريًا.

في نفس اليوم الذي خرج فيه من السجن الإداري، اتصل به مدير المستشفى ليستأنف العمل ويدعم الطاقم الطبي الذي يعاني من الضغط، لم يكن يتوقّع أن يستدعى بهذه السرعة دون إجراء مجلس تأديبي له، كما أخبره آخر مرة، استغرب من صوت المدير الذي بدا أكثر هدوءٍ من ذي قبل، حاول غسّان أن يربط الأحداث فيما بينها، أيكون صدفة ما حدث؟ أم أن هناك جهة ما تدخّلت من أجل عودته؟ أم أنه فعلا ضغط العمل والمناوشات التي تتصاعد يوما بعد يوم، جعلت المدير يستدعي كل الطاقم الطبي كما أخبره؟

على كلٍ، فقد أراد هذا الاستدعاء حتى يخطّط لعملية أخرى، فلا يُثنيه أحد عن عزمه في صيد آخر، ما حدث له مع المجندة استراحة مُحارب، أو تنبيه له لأمر أهمّ، مرة أخرى لن يجازف بعملية أخرى حتى يتأكد أنها ستنجح مئة بالمئة، لا يريد أن يعتقل في أول الطريق، عمِل تلك الأيام دون أن يقدم على فعل شيء.

❖

في فترة راحته قرّر أن يزور القدس ليصلي صلاة الجمعة، كما كان يفعل مرّات عديدة، فالقدس روحُ فلسطين، الصلاة في القدس عهدٌ لا ينساه الفلسطيني، إنها ليست مجرد صلاة، بل صلة مع الأصل والحياة، لكنه في الطريق عَلِم أن الإسرائيليين أقاموا حواجز إضافية على مداخله ككل جمعة، يمنعون الشباب من دخول الأقصى دون السّن الخمسين، لكنه صمّم على الذهاب والدخول، اقترب من الحاجز الأمنّي في باب

العمود والذي يعجّ بالجنود، قدّم بطاقته ليسمحوا له بالمرور، لكن الجندي أعاد له بطاقته ورفض تركه يمرّ، أصرّ غسّان على المرور، بدأ بالصراخ على الجندي، أضاف له بطاقة مُسعف طبي، لكن الجندي رفض مرة أخرى، تجمّع الباقي حول غسّان، أرادوا دفعه إلى الوراء حتى يعود، لكن علا صوته أكثر، رفع أحدهم عصاه إلى الأعلى محاولا إخافته، لكن غسّان يمسك العصا، ويطلب من الجندي ألا يستعمل القوة، يحتجّ على المنع من الدخول، تجمعوا حوله، أخبرهم أن له الحق في أن يزورها كثيرا، وأنه سيخرج بعد الصلاة مباشرة، لكنهم تعنّتوا في عدم السّماح له بالعبور، كان يكلمهم بالعبرية وكانوا يردّون عليه بلغات مختلفة، وكان يسمع من الجميع كلمة " لا " تتردّد دون تقديم تفسير.

وإذا برئيستهم أولينده تلاحظ المناوشات بالأيادي لتنادي من بعيد، وقد كانت تجلس داخل مركز صغير، و عندما تطلّعت لاكتشاف سبب الفوضى والصراخ، لمحت وجود غسان هناك وهو يحاول أن يدخل بالقوة، فطلبت منهم أن يأتوا به عندها، ولمّا سمع ندائها من بعيد عرفها، وكانت لا ترتدي خوذة كما يرتدي الباقون، انصاع للذهاب إليها مع جنديان سارا معه نحوها، دخل معهما المركز، نظرت إليه وهي تجلس على المكتب الصغير، تضع عليه سجل كبير وقلمٍ أسود، طلبت من الجنديان الإنصراف، تردّدا في الإنصراف حتى صرخت عليهما بأنها تعرف ما تفعل، وأنها تأمرهما بذلك، ثم خاطبت غسّان:

- مرة أخرى يا غسّان، أينما تكون تحدث المشاكل.

ابتسم لها معترضا، قائلا:

- ولماذا لا تقولين؟ أينما تكونين أنتِ تحدُث المشاكل.

هناك أمكنة ضيّقة عن قبول التناقض؛ تناقض الأفكار والقناعات، وتضاد المسارات، واختلاف الآراء، لا يمكن لإيماننا أن يقبل كفر الآخر، المسار لا يقبل التقاطع دون وقوع احتكاك أو احتراق، تستحيل الحياة التي نشأت بصعوبة، تحاول أن تتكوّن في هذا الحيز الضيق أشياء عظيمة.

هذا الفضاء الفوضوي، هل يقبل أن تترتب نوتات موسيقية؟ هل تتكوّن في حالات الغبار نسمات باردة؟ هل مع رائحة البارود نستنشق شيئا من العطر؟ هل في دوّامة القتل تتشكل الأرواح؟ وهل في خضم أمواج البغض يتفتق الحبّ؟ وهل الحبّ يقتنع بوجوده في عالم الظلام؟

يبدو أن الحب يسترق النظر للظهور باستحياء، يخاف أن يكون أكذوبة، أن يكون خيانة للوطن، لكن كيف يكون الحبّ خيانة للوطن؟ الوطن يعيش بالحب، ويموت بغيابه، ليكون في الأخير الإختيار صعب، بل هو أمرٌ فارق بين شيئين اثنين لا ثالث لهما؛ حبٌّ أو وطن...

في تحدٍ وحيد في هذا العالم الفسيح، يمكن أن تعثر على كل التحديات مجتمعة في وجه الحبّ، ما عدا ما يحدث في فلسطين غسّان؛ وإسرائيل أولينده..

فقط التخلّي عن الوطن يسمح بمرور تيار الحبّ، وإذا مرّ هذا التيار انفجر شيء اسمه الوطن، يا لهول هذا الإنفجار.

ردّت بعد نظرة جديدة لم يرها غسّان من قبل:

- حسناً، إلى أين أنت ذاهب؟

- لا يعنيك الأمر...

أجابت دون أن تعترض بهدوء، مقدمةً له بطاقته:

- إذًا تفضّل.

همّ بالخروج من المركز، وقبل أن يخرج منه التفت إليها، ثم قال:

- أوجدتِ قلادتك؟

ردّت بصوتٍ خافت:

- نعم...

ابتسم ابتسامة المنتصر:

- الحمد لله، إذًا عليكم أن تتأكّدوا قبل أن تتهموا الأبرياء.

أومأت برأسها تؤكّد كلامه، ولما خرج من المركز قامت من كرسيها تتبعه، نادته قبل أن يبتعد عنها كثيرا، قائلة:

- هيه...

التفت إليها ينتظر ما تريد أن تقوله له، حتى تطابقت العيون مع بعض، فقالت له مُكملة جملتها، واضعة إصبعها على ندبة الجرح الذي في رقبتها:

- أشكرك على علاج هذه.

لم يجبها..

ثم ابتسم، و غادر الحاجز..

أكمل سيره...

إلى المسجد الأقصى.

لم تتبنّ أي جهة عملية القنص، العالم كله يترقب أيّ تصريح إعلامي من أيّ متبنٍ للعملية النوعية الاستثنائية، بالرغم من أن الفصائل الفلسطينية أيّدتها وباركتها، أعلنت حالة الطوارئ القصوى في عموم البلاد إلى أعلى مستوياتها، كان التحقيق مُكثفا جدا، لا أحد أتى بنتائج تحدّد الفاعل؛ لا الشاباك، ولا الموساد، ولا مختلف أجهزة الأمن السرية، ولا حتى الشرطة الفلسطينية، ولا المستعربين، ولا الخونة استطاعوا معرفة المنقّذ الجديد، حتى الفصائل المختلفة تبحث من جهتها، وبطريقتها الخاصة، ربما رغبة في تجنيده في صفوفها.

لكن الأهمّ بالنسبة لغسّان؛ أنه في صفّ الوطن الذي لا لون له ولا انتماء لأي فصيل، بالنسبة له هذا هو الأهمّ، فضّل أن يعمل كذئب منفرد، بدل أن يكون تحت إمْرة أحد، وحده الوطن من يجب طاعته، والاستجابة لأوامره.

أخفق المحققون في الإجابة عن الأسئلة الصعبة حيث لا يجد لها أحد إجابة تامة، والذي صعّب الأمر أن توقيت العملية جاء في خضم فوضى عارمة في الشارع، الأدخنة الكثيفة تحجب نتائج كثيرا من الكاميرات، أغلب المتواجدون ملثمون، الكل يرمي الحجارة أو أي شيء قابل للقذف، لذلك فالكاميرات المنتشرة لم تفد في شيء، حتى المعتقلون من الأطفال والشباب لا يعرفون شيئا، إنها عملية مفاجئة للجميع، عاينوا الطلقة التي اخترقت رقبة الجندي ومزّقتها، قاموا بكل القياسات ليعرفوا مصدر الرمي، لكنهم تفاجئوا أن مكان الرمي مساحة مفتوحة لا يمكن تحديد المكان بالضبط، أما عن الطلقة فاكتشفوا أنها من البندقية من نوع دراغانوف عيار 6.67مم، روسية الصنع، معروفٌ عنها الدّقة في الإصابة،

لـم يعـثروا سـوى عـلى طلقـة واحـدة، وهي الـتي أصـابت هـدفها، يبـدو أن القناص ماهرٌ جدا، وهذا يُثبت بأن القناص كان هادئا، و ان مركّزا جدا في هدفه رغم الفوضى الموجودة آنذاك...

لكن السؤال الكبير الذي يطرح في كل مكان؛ ما هو مصدر البندقية؟ من أين أتت؟ كـمٌ كبيرٌ من التحقيقات تنتظر المحقّقين، والوصول إلى الفاعل حُلم الجميع، الاحتمـال الأكـبر الذي علـق بأذهـان المحققـين مـا حدث عند اكتشاف محاولة ضخمة لتهريب الأسلحة عن طريق البحر، في القضية التي سميت إلإمبا؛ سفينة كارين إيه.

تحركات التحقيقات المكثّفة في كل اتجاه جعلت غسّان ينتظر كثيرا، وسيفكّر أكثر في أي عملية أخرى، يجب أن ينتظر حتى تهدأ التحركات الأمنيـة الكثيفـة، العمليّـة القادمـة ستكون في موعد مناسب. في انتظـار ذلـك، قـرّر أن يلهـو قليـلا في فـترات راحتـه، بـين مرافقـة والده في عـرض البحر، وبين المسامرة مع أصدقاءه.

المهم أن يضمن أن لا يكتشف أحد مكان البندقية، لأنّها أداة العمل، ففقدانها يُصعّب عليه تدبير أخرى، خصوصا أنها غالية بالنسبة له، كغلاء القلادة التي تملكها أولينده، وكما للقلادة الذهبية قصتها للبندقيـة قصة أيضا، حتى صارت بين يدي غسّان، إخفاؤها عن الأنظار مهمّة صعبة، أداة القتـل تحيّر سـلطة الإحتلال الإسرائيـلي الـتي تبحـث عـن كل شيء يصلح للمقاومة، والبندقية تعتبر سببا للسجن المؤبد أو الإعدام حتى ولو لم يثبت استعمالها، وقد يزجّ بسلسلة من الأشخاص بسببها، أولهم البحّار أبو شامة.

غُيّر غسّان مكان البندقية بذكاء كل مرة، حتى لا تسقط في يد جنود الإحـتلال، بعـد أن يفكّكهـا، فمـرة يخبئهـا في قـارب أبيـه، ومـرة في مـآرب

المستشفى، ومرة تحت شجرة زيتون...مع حذر شديد، لقد تعلّم أن السرية سرّ نجاحه، رغم صعوبة أن يفعل كل شيء وحده، لأنها آمن طريقة بالنسبة له، عندما ينقلها يلفّها في شيء ما، كعلم فلسطين أثناء المظاهرات، كأدوات صيد يستعملها في تنقلاته، يتحاشى الحواجز ما استطاع، أو يراوغهم بطريقته الخاصة، يحرص على أن لا يكون تغيير مكان البندقية متكررا بشكل مُلفت حتى لا يثير الشكوك، أو يقع في كمين مفاجئ، وهذا هو ما يسمى الصبر الذي أوصاه به الوالد عندما يكون في عملية الصيد، أو كما تسميه الدول بالصبر الإستراتيجي.

تذكّر أنّه هو وأبوه تسامرا في ليلة باردة على نار هادئة قرب الشاطئ الهادئ، أوصاه بأن لن عليه ألّا يتخلى عن بندقيته ولو تخلى عن جنسيته، البندقية التي يجب أن يخفيها عن جيش الإحتلال بكل الطرق الممكنة، وسيساعده في ذلك ما استطاع.

قال له:

- لا تهم الجنسية مادامت البندقية في يديك، بندقيتك هي جنسيتك.

فهِم الابن فلسفة أبيه، وأنها فلسفة تُربِك العدو، لكن بشرط أن يكون السلاح غير مرئي، لكي يسمح بالاقتراب من العدو حدًا يجعل الطلقة تكون قاتلة بدون أدنى شك، من التمويه أن تقتل من تحمل جنسيته.

شعر الوالد أن غسّان أصبح شابا يافعا مسؤولا، وأصبح هو ضعيفا لا يستطيع الحركة كما كان سابقا، حتى في رحلات الصيد صار يعتمد على مرافقيه، لكنه يعلم أن ابنه يخطط لأنْ يجعل بندقيته مفيدة.

فكّر غسّان أن استعمال البندقية استعمالا غير مدروس يؤدي إلى ضياعها وضياع صاحبها، وهو ما لا يريده، لذلك فالانتظار سيكون مفتوحا حتى الفرصة المناسبة للقنص، عندما تُنسى العملية الأولى، ستأتي بكل تأكيد العملية الثانية، العملية التي تفجر غضب الإحتلال، خاصة إذا كانت بنفس التوقيع، رصاصة في منتصف الرقبة، حيث توضع القلادة توضع رصاصة، المكان المرهف الذي يتغنى به شعراء الرومانسية يصبح القناص قاسيا جدا عندما يجعل ذلك المكان هدفًا لرصاصاته، المكان الذي لا يمكن تغطيته بأي شكل من الأشكال، في العملية الثانية سيعرفون أن المكان المفضل للقناص هي الرقبة، حيث يستحيل العلاج ويُصعب تفاديها، سيضطر حينها الجنود لطأطأة رؤوسهم في الأرض خوفا من طلقة القنّاص، أو احتراما للقنّاص المجهول.

❖

وإلى أن تأتي تلك اللحظة التي يغفل عنه كل الناس، يتجول غسّان في تل أبيب، أصبحت مدينة حضرية بمعنى الكلمة، العاصمة التي تنتشر فيها كل المرافق الفخمة، والملاهي الليلية، والمطار الدولي، والسكان المنتشرون في ساحاتها وطرقاتها، يتسكّعون في شوارعها، إضافة إلى النسبة الأكبر هم اليهود، يوجد بعضًا من عرب 48 والمسيحيين والبهائيين والدروز وغيرهم...

تختفي المظاهر المسلّحة في شوارعها خلافا للمدن الأخرى، لكن الشرطة السرية والمخابرات تنتشر انتشارا كثيفا في كل زاوية، تُعرف من خلال تحركاتها ونظراتها، كان غسّان يتجوّل ككلّ الناس، ولن يعرف إذا كان عربيا فلسطينيا، إذ التجوّل هنا في وسط تل أبيب، يجعلك تظن أنك تتجول في مكان يوجد فيه كل أجناس وجنسيات العالم، الشتات الموجود في العالم تجمع في هذه البقعة من الأرض، حيث يصادف غسّان

السود والبيض والهنود والعرب وجميع الألوان، بمختلف اللغات والألسن، بينما اللغة العبرية تسيطر على لوحات الإشهار مع اللغة الإنجليزية، ينتشر كذلك رجال الدين في أحياء خاصة الذين يرتدون الزي الديني المتشدّد، زيٌّ أسود وعلى أكتاف بعضهم شال أبيض طويل، ونساء أخريات يرتدين برقعًا يغطي كل الجسم، لا يُرى من المرأة إلا العينين.

يعلم أن أوليندة تعيش هنا في أحد الاحياء الراقية في تل أبيب، عندما سمع الضابط يبادلها أطراف الحديث عند جلسة التحقيق، يخاف أنه لن يعرفها إذا ما صادفها، أيعرفها؟ فعندما ينزع العسكري لباسه يشعر بالحرية؛ وأن اللباس كان يقيده عن قول ما يريد، وعن السير كما يريد، وعن فعل ما يريد، وعن الانفلات من الالتزامات، وعن التقيّد باللوائح المملة، وعن النوم إلى بعد الظهيرة، وعن النوم متأخرا جدا بعد سهرة مجنونة، الانضباط هو هاجس الشباب خاصة، فهم يريدون التحرّر من كل شيء، بأتم معنى الكلمة.

قد تمرّ عليه ولن يعرفها، لكن بكل تأكيد هي ستعرفه، عندها لا يعلم كيف ستعامله؟ أبعقلية العسكري الذي لا يثق في أحد؟ أتحدثه مثل فوّهة البندقية برصاصات وبارود؟ أم تحدّثه كما تتحدث الأنثى برقة متناهية؟ لتنسى فجأة بكل بساطة أنها كانت مجنّدة في جيش محتلّ.

توقف فجأة منتبهًا، ليقول في نفسه:

- لماذا أفكر فيها الآن؟ وهي التي قد تكون واحدة من أهدافي المحتملة مستقبلا.

وأضاف:

- وهل تفكّر هي كذلك فيّ؟ ربما تفكر فيّ كمشروع سجين أو كمشرّد فلسطيني يجب أن يُطرد، ولكن ماذا عن الكلام الأخير الذي لا يشبه غيره،

الذي لا يشبه أي كلام آخر، أيمكن أن تتنازل عن تعجرفها؟ حين قامت من مكانها وهي ترتدي الزي العسكري، وقدمت الشكر بصوت مرتفع. أيمكنُ للمتعجرف أن يشكر غيره؟ إذاً قد تنازلتَ نوعا ما، لكن لا شيء مؤكّد، فقد تنقلب عليّ في أي لحظة!

فكّر كذلك، أنّ عليه أن يقترب من أولينده، لِمَ لا؟ إتخاذها صديقة لا يضرّه بشيء بالعكس، سيجعل تحركه آمن، اللثام وهو زيه العسكري يجب أن يكون شخصيته الأخرى، أما الآن يجب أن يرتدي الزي المدني والقلب المدني، يجب أن يفكر بذكاء أكثر، لا يهم إن كانت بزي عسكري، لكنها تبقى أنثى، ستتعرى من زيها العسكري وتتزين بأقمصة السهرات وترتاد الملاهي وتفتش عن الحبّ في مكان ما عند شخص ما في لحظة تمرّد.

لكنه لا يدري أن يجدها، متى تكون بزي مدني جميل؟ كلماتها الأخيرة محفّزة له ليسترسل في مزيد من الثرثرة، لكن ليس في حاجز أمني، ستتورط مع الشاباك أو مع رؤسائها، لكنه في لحظة المرور يمكن أن يضرب لها موعدا في أحد مقاهي تل أبيب، حيث لا تخشى. شيئا ولا يخشى. هو تضييقا أو نظرات قاسية تعايره بالخيانة لوطنه، لا يمكن أن يكون الصداقة خيانة بهذه البساطة، نعم هي مجندة قد تقتل وتضرب وتتنمر على فلسطينيين، لكن قد تكتشف أشياء جديدة تختفي عن إدراكنا، قد نكتشف ما يجعلنا نتعاطف معها، قد نجد فيها شيئا يستحق الصداقة، أو نجدها وقاية له لاستمرار القنص دون أن تحوم حوله الشكوك، بل إتهام الخيانة قد يكون مفيدا له، يجعله بعيدا عن الظنون حتى يكتفي من القتل، أو يموت في سبيل بلوغ المجد شهيدًا، لتصبح الخيانة هنا وطنية تامة، وتكون الوطنية عند البعض خيانة تامة...

أكثر من التجوال قصدا بحثا عن أوليندە، يفتّش في الحواجز عما يوصله بها، كان يذهب إلى الأماكن التي يظنها قد تعمل فيها، دام ذلك أياما طويلة دون أن يعثر عليها، كأنها اختفت أو تتجنب أن تظهر نفسها له كلما رأته.

فكّر، أتكون عملية لعبة قنص جديدة قد بدأت؟!

❖

بينما أوليندە، في الجانب الآخر تفكّر هي كيف أنها تريد أن تراه مجددا؟ وهو كآلاف من الشباب الذي يمرون من الحواجز، أيمكن أن يكون البحث عليه مجرد فضول عن هذا الشاب البارع في إخاطة جرحها العميق والذي أشاد به الأطباء؟ أيكون قد فعل ذلك خوفا من بطش زملائها؟ أم أنه فعل ذلك لأنه نبيل كما يقول؟ لا تدري، بماذا أصبحت تشعر بشيء ناحيته؟ فقط تريد النظر إليه، مجرد النظر الخالي من المشاعر، وهي التي كانت تكفر بالمشاعر، بل الأدهى أنها كانت لديها مشاعر مضادة؛ مشاعر عداء مطلق لكل ما هو فلسطيني، ربما يكون غسّان مختلف عنهم كلّهم، وربما يكون ممثل بارع أجاد استدراج فضولها فقط، هو فضول فقط لم يصل حتى رتبة الاعجاب، لكن لا ضير من جسّ نبضه في كل الحالات، ربما تجد شيئا مختلفا فيه، ربما... وربما لا شيء من كل ما فكرت فيه، لا شيء مطلقا، مجرد تخيّلات وأوهام... لكن ليست أوهام، فالأوهام لا تصنع ندبة على الرقبة، تتذكّرها كلما نظرت إلى المرآة، تشعر بالانزعاج من كثرة الأسئلة عن سببها، صحيح أنها تستعمل جميع المراهم والندبة التي تجعلها تتلاشى شيئا فشيئا، لكنها مازالت بادية للعيان، على رقبة شديدة البياض، لقد ذهب غسّان وترك عليها ندبة، ستتذكره طالما لم تمح تلك الندبة السوداء.

سُمِح له بالمرور من كمين تنصبه مجموعة من الجنود، حتى سمع صوت رقيق ينادي باسمه، فيلتفت عمّن يناديه، فإذا بها أولينده تتقدم إليه، مبدية صرامة الجندي الحازم، لكن ابتسامته لها أربكتها، جعلتها ترد الابتسامة بطلاقة نادرة في الوجه، دون ابتسامة واضحة، ليس من أجله ولكن لكيلا تلفت انتباه زملاها، كيلا يحشروا أنوفهم فيما تريد أن تقوله، وبحكم أنها رئيستهم فهم لا يحشرون أنوفهم إلا إذا طلبت منهم ذلك.

توقفَ ينتظر وصولها إليه، لم يكن الوضع الطبيعي هكذا في الكمائن، فمن المفترض أن يأتي هو نحوها استجابة لندائها، لكن شيئا ما جعلها تسرع إليه، دون تفكير أنها صاحبة الزي العسكري وهو صاحب الزي المدني.

توقفتْ وجهًا لوجه مع غسّان، ثم قالت:

- تمرّ دون أن تلقي السلام؟

ابتسم، تأكّد أن السمكة أكلتِ بعض الطُعم، أيمكن أن تأكل أولينده كلّ الطُعم؟ أمن العدل استغلال الأمر؟ أمن العدل استغلال سيارة الإسعاف للقتل؟ لكن من جهة أخرى، أمن العدل قتل الأطفال وأسرهم؟ أم أنه من العدل قصف الأبرياء؟ هنا العدل يكون جسم مشبوه، فكرة مشوشة، في حالة الضعف والوقوع تحت الإحتلال يتغيّر لون العدل ومفهومه، ليس من العدل تطبيق العدل هنا، يجوز الكذب في الحروب، العدل أن يخرج المحتل من الأرض، أمّا عن الحبّ.. فهل يخون الحبّ الوطن؟ أم أن الوطن يخون الحبّ؟

قال لها:

- أهلا بالضابطة أولينده، الحقيقة أنّي أخاف الزي العسكري، ولو كنتِ بزي مدني كان يمكن أن تكون تحيّتي مُضاعفة.

شعرت بأنه يغازلها:

- شكرا لك، لكنك تبدو شجاعا.

- أنتِ من تسمحين لي بشجاعتي، حتى الشجاع يخاف منظر السلاح، وإنما أقصد أن الزيّ العسكري ينتقص من أنوثة الفتاة.

- لا أظن، لكن هل أعتبر هذا غزلا؟

- كما تشائين، أنتِ الأنثى كما يجب أن تكون، لكن بدون زيٍ عسكريٍ.

ابتسمت ابتسامة عريضة، ثم قالت:

- أتريد أن أسجنك هنا؟ اذهب سريعا، وإلا قيّدتُك هنا، وسجنتك إلى الأبد.

افترقا وقد تواعدا على لقاء في المقهى الجميل، أحد مقاهي تل أبيب، حيث تكون بزي مدني أنيق، ويكون حرا في قول ما يشاء دون أن يخشى نظرات الجنود الفضوليين، ولا استغراب العابرين الفلسطينيين.

❖

تعب من التجوال في مدينة تل أبيب، فجلس غسّان في وسط المقهى المتفق للإلتقاء به، يفتّشُ في الوجوه عن وجه أوليندە، يفكّر بعد أنه طال انتظارها، ربما لأنها وقفت أمام المرآة تتزين له، رغم ذلك فهو يعرف أن الأنثى تستعجل كل شيء، فهي تستعجل الحبّ، وتستعجل الكره، لكنه لا يعرف، لماذا اتفقا معًا، يستعجلان هذا اللقاء؟

نظر أمامه، فإذا بحافلة تمرّ في الجهة المقابلة من الطريق الذي يعجّ بالراجلين، وفي لحظة ما، شعر بانفجار مدويّ هزّ كلّ المكان، أفقده الوعي في مكانه من شدة الانفجار، فسقط جريحا بسبب شظايا الزجاج والمعادن التي تطايرت نحوه، وتوزّعت في كل المكان، وخلف فوضى عارمة وقتلى كثيرون وجرحى أكثر عددا.

وجد غسّان نفسه على سرير في المستشفى الكبير داخل تل أبيب، يداه مخضبتان بالدم، وعلى جبهته بعض الجراح، وآلام حادّة في ذراعه الأيمن، ينظر حوله، وإذا بالمكان مكتظ بالجرحى الذين يتأوّهون، وصياح متواصل يملأ القاعة، بينما الأطباء ينتشرون هنا وهناك، ينتقلون من مصاب إلى آخر، سمع من أحد المتحدّثين أن انفجار أصاب حافلة للمسافرين للنقل الحضري، خلّف سبع قتلى في إحصاء مؤقت، وثلاثين جريح بينهم جرحى في حالة خطرة.

شعر بالخيبة مما حدث، في اليوم الذي كان من المفترض أن يلتقي به أوليندە، يحدث هذا، كان في الزمن الخطأ، يخشى أن تكون من بين ركّاب تلك الحافلة، يشعر بالقلق الكبير، يريد أن يقوم لكنه لا يستطيع، صحيح أنها بالنسبة له كأي عسكري يستحق الموت لأن المدني متواجدٌ على أرضه كعسكري معادي، أحيانا لا يستطيع أن يتخيّل منظرها الجميل كيف يتحوّل إلى كومة من اللحم المترامي، بأعضاء مقطعة متفرقة، وقد يكون رأسها قد انخلع من جذعها، الدم لونه مؤذي يؤدي إلى الإغماء، فالدماء لا تختلف، هي في آخر المطاف ذات لون واحد، غير أنها تعادي بعضها البعض في أنحاء كثيرة من العالم.

هو لا يريدها أن تكون مشوّهة أمامه، يريد أن تبقى على هيئتها مكتملة الجمال، لا يريد شيئا قبل أن يسبر أغوارها، قبل أن يسمع شغفها وخوفها وحلمها وألمها، بينما يفكّر فيها، قام أفراد الشرطة بالتجول حول الجرحى من أجل تسجيلهم، سجله أحدهم عندما سلم له بطاقته، ثم قام إليه الطبيب يكشف عنه، قاس درجة الضغط، ثم سأل غسّان عن أماكن الألم، ليعطي الطبيب تعليماته للممرضة حتى تقوم بتطبيبه كما يجب، بينما تقوم الممرضة بذلك حتى اقتحمت أوليندە مسرعة القاعة الكبيرة،

تفتش عن غسّان بين الأسِرة حتى عثرت عليه، متمدّدا على سريره، فنظرت إليه، وفي عينيها طمأنينة على سلامته، وغضب من هول ما حدث.

ظلت تنظر إليه من بعيد، توقفت على بُعد خطوتين من باب المدخل، كانت تقف كأنما هي في نوبة حراسة، إلا رأسها يدور اتجاه كل المتواجدين في الغرفة، تنتقل من جريح إلى آخر، حتى استقرت عيناها حيث يستلقي غسّان، كانت نظراتها متناقضة بين فرح بنجاته، وبين حزن وغضب على القتلى الذين قضوا في الانفجار، والجرحى الذين يشتكون الآلام، ظل ينظران إلى بعضهما البعض، لم تستطع التقدم إليه، ولم يستطع النداء عليها، تردّدت في الذهاب إليه، كأنها ندمت على المجيء، تشعر أنها تسرعت كما تتسرع كل أنثى في زيارة الحبيب عطفا وشغفا باللقاء، فكّرت أنها جاءت للتأكد بأنه قد نجى من الموت، لكن الآخرين جاءت من أجل الدفاع عليهم، وهو فَهِم أنها لا تريد أن تأتي إليه.

كان يريدها أن تتقدم نحوه، كأنْ تقول له، وهي ترتجف من هول منظر القاعة المزدحمة بالجرحى:

- ما هذه الفوضى؟

فلا يجيبها، حتى تضيف:

- خفتُ أنه أصابك مكروه.

- وأنا كذلك.

صمت قليلا ثم تضيف:

- ولماذا تخافين؟

السؤال الذي سيربكها، وكأنها يقول لها:

- ولماذا تخافين، وأنتِ طالما كنتِ تريدين أن يكون الفلسطينيون على أسِرّة الموت؟

- أنت لا؟

- وغيري نعم، أليس كذلك؟

سكتت ورمقته بحزن، لا تريد مناقشة موضوع قد يفسد الودّ.

لكنها تجيب متهرّبة:

- كنا على أُهْبة اللقاء الأول، غير أن التفجير الإرهابي أفسد كل شيء.

فهم تهربها، ليس الوقت مناسبًا لمثل هذا الجدال:

- ربما أراد الانفجار إفساد اللقاء عمدا، لا يريد الانفجار أن يحدث اللقاء.

ردت بحسم:

- الشرطة ستجري التحقيق، وتكشف من المسؤول عن الذي لا يريد أن نلتقي.

صمت قليلا، ثم يقول:

- ولكن، ألمْ تسألي نفسك؟ لماذا نلتقي؟

يريد جسّ نبضها، يريد أن يطفو ما في جوفها، لكنها تشعر أنه يصدها بهذا السؤال، فتردّ:

- هو لقاء صداقة فقط، أندِمتَ على موعد اللقاء؟

- لا لا لم أندم.. لكني لا أريد أن أزعجك، أو أكون محل شكوك، أعلم أنّي سأتورّط في متاهات لا تنتهي إذا صادقتك، من بينها هذه.

- لن يحدث شيء.

- لكن بمناسبة ماذا تقولين ذلك؟ ألم أكن محل شكّ في كثير من المرات؟

أشارت إلى الندبة، ثم قالت:

- سأعتني بك حتّى تختفي هذه الندبة.

بقي صامتا وبقيت تنتظر ردّه.

في لقائه معها، تذكر لقاء كنفاني مع حبيبته، لو أصبحت أولينده حبيبته حقاً، في حوار هادئ دار بينهما...

قال كنفاني لحبيبته:

- هل تتزوّجيني؟

- أنا فقير لا مال لي ولا هوية، وأعمل فى السياسة وأعشق الأدب ولا أمان لي... وأنا مصاب بالسكري.

تخيّل عرض الزواج الغريب هذا ألقاه غسان كنفانى على مسامع الدنماركية آنـّـا هوفمن، وبعد أسبوعين من لقائهما فى بيروت بدأت بعدها حياتهما معا التي استمرت منذ العام 1961 وحتى رحيله عام 1972 وأثمرت طفلين.

بينما هو سيقول لها:

- هل تتزوجيني؟ أنا قنّاص أقتل الجنود الإسرائيليين ليس حبّاً في القتل، ولكن دفاعا عن وطني، فهل تخونين وطنك من أجل الحبّ الذي تدّعينه؟

فكّر بأنها سترفض، كمُّ الحبّ المشحون فيها لا يكفي لأنْ تمسح الوطن من أجله...

كتب غسان كنفاني إلى زوجته آنـّا:

- كنت أكبر منك بالعمر وكنت أكبر مني بالحب، فالنساء حين تحب، تصبحن أُمهات.. ونحن الرجال نصغر.. نصغر.. حتى نصبح أطفالهن

كانت مجرد تخيّلات من غسّان وهو يحدق في ملامحها الجميلة، لم تتحرّك من مكانها، تركته ينظر إلى مكان وقوفها، وغادرت المستشفى ولا تدري أتعود لتزوره مجدّد أم لا؟ عادت غاضبة مضطربة مترددة، بين أن تجعله كبقية الفلسطينيين، وبين أن تعتبره كائن آخر يدق باب قلبها دون مقاومة منها، كان دخوله غريبًا واستثنائيًا، ليس شابًا متفلتًا، يريد التسلية، عيونه جبّارة.

فكّرت أنه لا يمكن أن يكون طرفا في الإعتداء، ومؤكد أنه لا يعلم به، لو كان يعلم لما أتى وتركها عرضة للتفجير، أحسّت أنها آلمت فوق الألم الذي يشعر به، هي من اختارت الزمان والمكان، أسرعت في اليوم الموالي لتعود إلى زيارته، وتقدم اعتذارها، وتطلب منه أن يعذرها فالصدمة قوية عليها، لكنها عندما وصلت لم تجده في السرير...

سألت عنه مصالح المستشفى، أصابها الذعر عن مصيره، وبعد سؤال مدير المستشفى، أخبرها أنّ افراد من جهاز الشاباك قد أخذوه إلى مكان مجهول.

لم تتمكّن أوليندة من إقناع معارفها لإطلاق سراح غسّان، اتصلت بكل القادة دون فائدة، نبّهها أحد الضباط أن تدخلاتها ستضر بها، الشخص الذي كانت تريد سجنه، أصبحت تكافح من أجل إطلاق سراحه، لقد أوضحت لهم أن غسّان كان في ذلك المكان لأنها هي من تواعدت معه فيه، وهي من حدّدت المكان والتوقيت، لو كان هو من خطّط لذلك أو يعلم بما سيحدث، فلن يبقى في ذلك المكان، كل حججها ضربت عرض الحائط، أخبرها أحد كبار ضباط الموساد، أن الإشتباه يطال الجميع، ولا يمكن تبرئته دون التأكد من ذلك، وقد إشتد الصراخ بينهما حتى هدّدها بالسجن للاشتباه فيها، ولولا أمّها التي قدمت لإسرائيل الكثير ولولا سمعة عمّها أديسون، أحد ركائز الموساد الأولى لكانت محط تحقيق كبير.

قررت أن تفتح الموضوع مع أمّها رغم خوفها من ذلك، غضبت آليس عليها غضبا شديدا، صرخت في وجهها مبدية إعتراضها على التدخل من أجل شاب فلسطيني، ولو كان بريئا، لم تؤثر فيها كلماتها في أنه قد عالجها بعد إصابتها، وامتنعت عن التدخل لإنقاذه من التعذيب والتحقيق، لكنها في الأخير، قالت لها:

- إذا كان بريئا ستكشِف التحقيقات ذلك، فلماذا أنتِ قلقة؟

انهارت أوليندة كمدًا عليه، لما تأكّدت أن أمها ترفض التدخل، لا تريد أن يمارس التعذيب ضد غسّان، اعترفت لأمها أنها تهتم له فقط، لم تفصح لها أنها تحبه، ولكنها تريد ردّ الجميل فقط، غير أن الأم لا تصدقها، بل تأكدت أنها وقعت في حبه، ولو لم تعترف بذلك، الشيء الذي لم تتخيّله آليس التي كافحت في سبيل غير هذا السبيل تنتكس فيه ابنتها المجنّدة،

كل الكلمات المحرضة التي تلتها على مسامعها ضد الفلسطينيين لم تنفع، بل تغيّرت إلى مسار لا ترضاه لها، كان هذا لم يكن ليحدث ذلك لولا التقائها بذلك الشاب الملعون.

فكّرت آليس؛ أنه ولو كان بريئا فإنه لا يناسب ابنتها، الفلسطيني في أي مكان ليس بريئا في كل الأحوال.

احتجاجا على رفض أمها التدخل، دخلت أوليندة غرفتها غاضبة، وأغلقت على نفسها الباب، امتنعت عن الأكل والشرب أياما طويلة، تريد الموت لأجل شخص من أولئك الذين رفعت السلاح لقتلهم، تحدث أشياء لم تكن تتوقعها، إنه ليس مجرد إعجاب، بل هو حب جارف مجهول المصدر، هي خيانة بالنسبة لآليس، التي لم تستطع إقناع البنت بصرف النظر عنه، دقّت عليها الباب مرات عديدة دون أن تردّ عليها، وعندما أصرّت عليها، أخبرتها أنها ستنتحر إذا لم يخرج غسّان من السجن، احتارت؛ كيف وصلت الأمور أن تريد ابنتها الانتحار من أجل من تريد أن تقتله؟ تتساءل في نفسها؛ كيف تحوّلت ابنتها أكبر الماقتين إلى عاشقة دون سبب وجيه؟ بينما تردّ البنت أن الشاب الذي أحبّته ليس كالآخرين، تكلّمت بأن معشوقها من عالم آخر؛ ليس فيه عيوب، ليس فيه أخطاء، عشق لشخص خارج القبيلة، بل من قبيلة عدو، وها هو يحدث، يحدث ما ليس في الحسبان، حدثا عجيباً.

تخيّلت أوليندة حالة غسّان، كيف يعامله ضباط الموساد والشاباك؟ سيضربونه أكثر مما يجب، كل ذلك بسببها، في الوقت الذي يريد أن يلتقيها يجد نفسه في شبكة الشاباك دون ذنب، الذنب الذي لا يبرئه الشاباك حتى يكتشف دلائل تثبت عكس فرضياتهم.

❖

كان غسّان يجلس بين أربع جدران قريبة إلى بعضها، في أعلاها نافذة صغيرة لا ضوء فيها، تدل على أن هذه الغرفة في وسط مبنى كبير، بالرغم من جراحه التي لم تشف جيدا بعد، إلا أنه كان يحقق معه يوميا، أخبرهم بكل شيء، وعندما تعثر وصولهم إلى نتائج في اكتشاف المنفذين، جعله محط شبهة قوية رغم أن لا دليل ضده، تعرّض للتعذيب رغم اصاباته، وكان يتلقى إهانة كبيرة من الضباط المحققون، كان يقدم له صحن صغير من حساء خفيف من الحمص الذي لا يحتوي إلا حبتين أو ثلاث مع قطعة خبز يابسة، وضع له في الغرفة سطلين من حديد، واحد لقضاء حاجته فيه والثاني للشرب منه.

غضب غسّان من الإهانة والتعذيب التي يتعرض لها، شعر أنه اقترب أكثر مما يجب من الإسرائيليين عندما اقترب من المجندة أوليندة، أراد أن يسهّل عملية الوثوق فيه إذا ما صادق مجندة إسرائيلية، لكن النتائج جاءت عكسية، هو الآن في السجن يحقّق معه ويعذب دون رحمة، وكاد أن يموت في انفجار لا يعلم مرتكبه، التحقيق معه يجعله اسمه ضمن ملفات الموساد والشاباك، والعمل الذي صنعه من أجل إحدى المجنّدات لم يشفع له قيد أنملة.

تذكر أن صديقه ضابط الشرطة الفلسطيني رمزي، كان لا يثق في غيره فقد لاحظ شجاعته وحبّه الكبير لوطنه، لذلك عندما تورط رمزي في قتل ذلك الضابط الإسرائيلي نتيجة ثورة الغضب التي انتابته، فقد حكم على نفسه بالسجن المؤبد، ولا بديل له في المهمات السرية التي عزم عليها سوى شخص غسّان، فهو يمتلك كل مقوّمات الرجل المناسب؛ ذكي، وشجاع، ووفي، وكذلك سبّاح ماهر وابن صياد يعرف البحر وأسراره، وهذا هو الأهم، فبعد أن تأكد بأنه لا يمكن أن يتحرك، فقد أسرّ

إلى غسان قبل أن يودّعه، حيث دلّه على رجل يسمى أبو شامة، بحّار معروف يعمل في ميناء بشاطئ بحيفا، وأعطاه كلمة السر لكي يحدثه بالتفاصيل، ويخبره بحالة رمزي، وأنه هو خلفٌ له في المهمة المفترضة، وفي الزمن الذي يحدّده.

اتجه غسان إلى حيفا بعد أن ودّع رمزي لآخر مرة، وبعد أن سأل عن البحار المعروف بابي شامة، حتى لمحه من بعيد، اكتشف أنه رجل في الخمسينات من أبو عمره، له شارب كبير، ذو بُنية قوية وعضلات ضخمة، يهابه الناظر مع عيونٍ حادة جدا، يبدو غاضبا دون سبب، يجلس تحت قارب صغير، يخيط في لباسه، يتقدّم إليه مُلقيا عليه التحية، فلا يجيبه أبو شامة، ليعيد السلام دون رد، مما جعل غسان يفصح عن كلمة السر، ليثير انتباهه:

- ابن الخالة يسلّم عليك.

التفت اليه أبو شامة، متوقّفا عن العبث بالإبرة والخيط، فيرد عليه:

- انا لا اعرف ابن الخالة هذا...

كرر عليه السؤال وتلقى نفس الإجابة، حتى قام أبو شامة من مكانه يحتضنه، وهو يرحّب به، طلق الوجه، يسأله عمّا يعرفه، فقص عليه ما وقع لرمزي، فتأسّف أبو شامة لما سمعه، ثم طلب منه أن يرافقه إلى كوخه المجاور لشاطئ البحر، حتى أسرّ له عن بعض أجزاء من العملية التي ينتظر تحديد معادها، فأبلغه أنها مهمة سرّية وخطيرة جدا، وأنه لا يعرف كثيرا من تفاصيلها، ولا يريد أن يوضح بعض ما يعرف، لأن السرّية تقتضي ذلك، وأن هناك أطراف كثيرة موجودة في المهمة لا تعرف بعضها البعض حفاظا على نجاح المهمة، وأن كل الاشخاص المشاركون أهل ثقة وأهل بحر، لأن المهمة ستكون في البحر بعيدا عن شواطئه، وقد تنجح وقد

تفشل، والموت يحوم حولها وحول من يشارك فيها، ليكون شهيدا محتملاً في سبيل الوطن.

لم يدم الأمر طويلا حتى أبلغه بموعد العملية، لتكون ساعة واحدة بعد منتصف الليل، وحينما إلتحق غسّان بالموقع المحدّد وجد خمسة أشخاص ملثمين كما جاء ملثمًا بأمرٍ من أبي شامة، حتى لا يعرف كل واحد مرافقه، هي خطة مُحكمة من مخططي العملية، بينما أبو شامة يعرف كل من حوله، حيث سلّمهم معدّات السّباحة والغوص، ركبوا قاربًا كبيرًا تتوّسطه شبكة صيد كبيرة، اقتحموا البحر دون أي كلمة متبادلة، وبعد ساعة من الإبحار في بحر هادئ كهدوء الليل الدامس؛ وفي نقطة يعرفها أبو شامة وحده؛ أطفأ محرك القارب لمّا لمح إشارة ضوئية بعيدة تلمح ثلاثة مرات متتالية ثم تتوقف، ليرد عليها بالمصباح الكبير الذي يحمله بنفس الإشارة لكن بتلميح لمرتين فقط، ثم توقف عن ذلك.

ثم تكلّم الجميع:

- هذه سفينة نوح التي ننتظرها.

التفت الجميع لمصدر الإشارة، ودون أن يسأله أحد عمّا فيها وهم يعلمون ما فيها، أضاف مفسرا بمراحل العملية:

- هذه السفينة فيها المؤن التي ننتظرها، يجب علينا إفراغ الحمولة التي تقدم لنا في هذا القارب في أسرع وقت ممكن، وهناك قوارب أخرى من جهات أخرى تُشارك في مهمة الإفراغ لكن لها اتجاهات غير اتجاهنا، وما علينا إلا العودة بعد ذلك من حيث أتينا، حيث سنجد أشخاص آخرين على الشاطئ يأخذون منا المؤن، ولكن ليس في نفس النقطة التي خرجنا منها.

فهِم الجميع أن المؤن هي أسلحة وذخيرة. بأمرٍ من أبي شامة قام شخصان باستعمال المجداف للاقتراب نحو الإشارة الضوئية، ورويدا رويدا بدأت تتضح الصورة، وهي أن الإشارة صادرة عن سفينة شحن كبيرة، وقد توقفت محركاتها، بينما يسود الهدوء البحر، يقترب القارب من السفينة حتى تقلصت المسافة بينهما إلى أن توقفت الإشارات، وفجأة انتشرت الإشارات في كل أنحاء البحر ومن كل الإتجاهات، وعلت الصفارات من كل مكان، وظهرت في السماء العديد من طائرات هليكوبتر، لم يستطع أحد عدّها لكثرتها، ليكتشف الجميع أن عملية تهريب الأسلحة قد كُشفت، فارتبك الجميع لكن أبو شامة أصر على الاستمرار في الاقتراب من السفينة رغم انكشافهم، محرضا على مواصلة التجديف نحو الهدف، وهو يقول:

- خيانة... لقد انكشفنا يا رجال... لا تتوقفوا... تقدموا...

رغم انطفاء الأضواء كلها، سفن كثيرة حاصرت محيط السفينة الكبيرة والقوارب التي اتجهت نحوها، ليقوم بعض البحّارة من على السفينة الكبيرة برمي أكياس بلاستيكية سوداء وبعض الصناديق مستطيلة الشكل نحو البحر، ليطلب أبو شامة بالجميع الغوص في العمق من أجل التقاط ما يستطيع أن يلتقطه كل شخص ثم الفرار، فغطس الجميع بمن فيهم غسّان، ليبدأ إطلاق نار كثيف في كل اتجاه من طرف قوات البحرية الإسرائيلية في محيط السفينة حتى أصابت كل القوارب المحيطة إصابات بالغة جعلتها غير مؤهلة للإبحار، بل جعلتها تغرق في البحر الواحدة تلو الأخرى، اتجه غسان وهو يغوص لا يكاد لا يرى شيئا حوله من الغواصين الآخرين سوى أضواء تتحرك في كل مكان، وطلقات كسهام تخترق ماء البحر في كل جوانبه، حاول أن يقترب إلى أقرب مكان للسفينة رغم

خطورة الاقتراب، هو يعلم أنه قريب من الموت كما أنه قريب من الحياة إذا التقط كيسا من الأكياس التي ألقيت، فالسلاح كما يصنع الموت فهو يصنع الحياة، يسبح بكل ما أوتي من قوة ويحبس أنفاسه، إنها فرصة لا يمكن إهدارها، التقاط سلاح والفرار به عمل لابد منه له شخصيا، فكيف إذا حصل كل مقاومٍ على سلاحٍ؟ ماذا لو وصلت هذه السفينة لأصحابها؟ ستكون نقلة نوعية، ستربك الكيان الإسرائيلي، وتتغير المعادلة، لكن العملية لم تتم كما أرادها أبو شامة وأرادها من وراءه، وقيل أن ياسر عرفات هو من طلب هذه الحمولة، اتفاقيات السلام ستكون بدون معنى إذا لم ترفع مع اليد التي تمسك القلم يدٌ أخرى تمسك بندقية رادعة، لكن الخيانة طعنة الظهر هي أكبر تحدي لكل ثورة، تحدي لكي شريف، الخيانة قد تحدث من الأقربين، لحسن حظه تلمّس شيئا صلبا طويلا، تلمّسه كله، فتأكّد أنها بندقية رغم أنها محفوظة في كيس، لا يعلم إذا كانت قد خرجت من أحد الصناديق الملقاة، أو أنها رميت من طرف البحارة نحو البحر لغرض ما، لقد أتت السفينة لإفراغ الحمولة في القوارب، لكنهم رموا ما استطاعوا في البحر اضطرارا، وحاولوا الفرار لكن العملية أصبحت في حكم العملية الفاشلة، ما عدا أن غسّان قد اقتنص بندقية من المكان، وانسحب سباحة عائدًا، لكنه لم ير أحدا غيره يسبح نحو الاتجاه الذي جاءوا منه، حتى إنه لا يريد أن يلتقي بأيّ أحد، لا يمكن أن يثق في أحد، ولا حتى في أبي شامة رغم إعجابه به، الخيانة صارت تهمة تلتصق بكل الوجوه، قد يكون الخائن أحد الغواصين، أو قد يكون رمزي قد إنهار في لحظة تعذيب أو... أي احتمال آخر.

لمّا وصل غسان الشاطئ منهكًا في نقطة أخرى ليتلافى أضواء دوريات حرس الشواطئ التي كثفت من تحركاتها، كان يغوص أحيانا

ويسبح أحيانا أخرى ويرتاح حين يسعر بالإنهاك، حتى تمكن من الإفلات بجلده من المكان دون أن يعرف مصير الآخرين، لقد كانت غنيمته البسيطة هي بندقية داغانوف روسية الصنع مع مخزن ممتلئ، لتكون أداة لبداية انتفاضته الخاصة، ما حدث له جعله لا يثق في أحد مهما كان، وعليه أن يكمل مسيرة أجداده دفاعا عن الوطن منفردا لكن يحمل همّ الجميع.

مضت أسابيع وهو محتجزٌ، وفي صباح أحد الايام دخل عليه ضابط اسرائيلي وطلب منه الخروج، ثم نُقِل في سيارة إسعاف إلى المستشفى، اندهش غسّان عندما نقلوه إلى المشفى، فهو لم يشتكِ لهم من مرضٍ ما، فهِم أنه قد أطلق سراحه، لكن لا أحد أخبره بذلك، لا أحد قدّم له الاعتذار اللازم؛ الاعتذار على السجن والإهانة والتعذيب، الكلمة ثقيلة على الضباط الذين صرخوا في وجهه وملؤه كدمات واتهموه بالكذب، للمرة الثانية يفعلون به ذلك، هذه المرة لم يعتذروا، أرسلوه إلى المستشفى لمعالجة جراحه الجسدية، الشيء الأكيد الذي عرفه أنهم وصلوا إلى المتسببين في الانفجار، ولم يجدوا أي ارتباطا له من قريب أو بعيد بالحادث.

كانت معاملة الجنود عادية حتى أوصلوه إلى المستشفى، غادروا دون أن يتركوا مَن يحرسه، تأكّد أنه قد أطلق سراحه دون التصريح له بذلك، تفقّده الطبيب مع ممرضه في محاولة لتطبيبه، قدّمت له وجبة دسمة لا يحلم به طريح الفراش، ولا أسير أطلق سراحه بعد تعذيب جسدي، رغم كل هذه المعاملة يشعر أنه بريء في مكان؛ ومتهم في مكان آخر.

في المساء فُتِح عليه باب غرفته، أطلت عليه أولينده تحمل في يديها باقة ورد مختلفة الألوان والأنواع، وبعد تحيّة خجولة، تبدو متردّدة في

الدخول، بينما يرنو إليها بحذر، نظراتهما المتبادلة وكأنها أمواج تتلاطم، تتدافع بالعتاب والندم والحيرة والأسف، وعندما ولجت تبعها الضابط خليل، الذي كان قد شاهده أول مرة في حادثة ضياع القلادة، وضعت الورد على الطاولة بهدوء وكأنها تضعها على قلبه، تخاف من أن يدفعها بغضب بيديه نحو الأرض، لكنه لم يفعل ذلك، مما سرّها قليلا، شجعها أن تطلق ابتسامة عريضة تُبدي سعادتها بسلامته، وكذلك فعل الضابط المرافق، ردّ على تحيّتها ردا باردًا، ثم حدّق فيها مُبديا شكره بصوت خافت، وابتسامة قصيرة، فهمت أولينده أنه غاضب من الداخل، من كل ما حدث له من أول يوم التقى بها، للمرة الثانية يُهان، ولا تستطيع الدفاع عنه، غادر الضابط خليل المكان معتذرا بكثرة أعماله، وقبل أن ينصرف قال في جملة واحدة من كلمة واحدة:

- أعتذر سيّد غسّان.

ظلت واقفة بعيدا عن الكرسي المقابل له، استمرّ صمتهما حتى طلبت منه الإذن بالجلوس، فأومأ لها يسمح لها بذلك، جلست، وقالت:

- أعلم أنك غاضب منّي.

ردّ سريعا:

- ولماذا أغضب؟

- لما حدث لك بسببي.

- هذه الأحداث تحدث دائمًا؛ بكِ أو بدونكِ.

- لقد فعلت المستحيل من أجل اطلاق سراحك، لكن دون جدوى.

أطلق ابتسامة ساخرة، فهمتها على أنها تكذيب لها، لكنها لم تغضب لهذه السخرية، لقد كانت تتوقع طرد منه، هي تقبل كل شيء يكون أقل من فعل الطرد.

كسر تفكيرها بقوله:

-والدليل على كلامك، أنك غادرتني أول يوم، ولم تسألي عني بعدها.

قصّت له ما حدث لها خلال سجنه، انهمرت دموعها أمامه، تبكي بكل حرقة، لم تفكر لحظتها، بماذا سيفكر غسّان فيها حينما تبكي دون توقف أمامه؟ فهم أنها في اليوم الأول تضاربت مشاعرها بين الضحايا الإسرائيليين وبينه، وحين يكون هو موضع شك من قبل الجميع، كان يعلم تماما ما كانت تفكر فيه، رغم ذلك يتساءل في نفسه:

- لماذا كل هذا البكاء؟ أهي دموع التماسيح؟

حاولت أوليندا أن تمسح دموعها وخديها، لقد ذرفت كأنها تخبره أنها صادقة فيما تقول، وأنها معذورة في عدم زيارتها في أول يوم، لأن الصدمة كانت قوية عليها، لكن غسّان يجيبها، ليجس نبضها في ثقتها به:

- أنتم تضعوننا في سلّة واحدة مهما كان وضعنا.

كررت كلمات الاعتذار بكثرة... حتى غادرت..

أثناء خلوته وحيرته، قال في سريرته:

- أحقًا لها قلبٌ؟ أتكون سقطت في شباكه أم أنه هو مَن سقط في شباكهم؟ أم أنّها ممثلة بارعة؟ لكن لماذا قد تمثّل عليه؟ العواطف قد تجعل الانسان قوي في جانب ما، وهش في جانب آخر..

العقل يتراجع في حضرة العواطف، وهل يفعل الوطن ذلك أيضًا؟

يفعل الوطن ذلك إذا لم يكن راسخا في تلابيب القلب، الوطن ولد قبل أن يولد القلب، وقبل أن ينجب القلب حبّاً...

❖

في اليوم التالي زاره والده أبو خالد، وهو يتّكأ على فارس بحركة عرجاء يتقدّما نحوه، اغتبط لقدوم مع اشفاق عليه من مشقّة الزيارة، أخبره الأب أنه حاول أكثر من مرة أن يزوره دون أن يتمكّن من ذلك، لم تنفعه

جنسيته الإسرائيلية في التمتّع بكل حقوقه، ذلك ما استوعبه، وأكّدتها له أحداث العمر والظروف القاسية التي عاشها، إن تلك الورقة لا قيمة لها، الهوية روح ولن تكون أبدا في يوم من الأيام ورقة قابلة للطيّ.

سمع من فارس كلمات مواساة كثيرة...

يتذكر غسّان أنه تعرف على فارس في أول يوم بدأ فيه العمل، كان شخصا ثرثارا، يكثر الأسئلة والاستفسارات واللعنات على كل شخص يشك فيه، غالبا ما كان يعمل معه إلا في حالات عدم وجود أحدهما لعذر ما أو يضاف مُسعف آخر معهم.

كان فارس يغيب أكثر من مرة من أجل ابنته التي عانت من سرطان الدم طويلا وعانى معها، لقد فقد أمه بسبب نفس المرض، كان يتمنّى أنه لو كان هو المصاب بالمرض؛ لا أمه، ولا ابنته، عانى من أجل أن يعالجهما بكل ما أوتي من قوة، لكنه فقد الأم رغم محاولات علاجه لها، أحيانا كان لا يسمح له الإحتلال الإسرائيلي مروره عبر الحواجز نحو مستشفى تل أبيب من أجل جلسات العلاج الكيميائي التي بدأتها، كان السماح له بالمرور يتعطّل بكثير من الحجج، كانوا يسمحون له بالمرور حين يريدون ذلك ويمنعونه حين لا يريدون ذلك، حتى أصبحها علاجا غير منتظمٍ، كانت أمّه امرأة مسنّة، وقد أرهقها التنقل والانتظار أمام أبواب الحواجز طوال النهار، ضف إلى ذلك الإهانة المتكررة لها من خلال التفتيش الدقيق من طرف المجنّدات رغم الكشوفات والمواعيد الطبية التي تظهرها لهن، غير أنهن لا يعبأن بكل ذلك، مؤكدات أن المرور يجب أن يكون كما كل المارين والمارات، وعندما تحدث اشتباكات بين الجنود والمتظاهرين في عموم فلسطين، أو في مكانٍ آخر منها، ليمنع عنها العبور لأيّام طويلة، حتى قررت الأم في يوم إشتد المرض عليها؛ أنها لن تذهب إلى

المستشفى مهما حدث لها؛ قالت له بأن الموت واحد، ولا يمكن أن تقبل بأن تموت في اليوم أكثر من مرة، وأن السرطان قد يكون سبب وجيه لرحيلها بشرفٍ من هذا العالم الظالم، وأنها لا تريد ترهق ابنها دون جدوى كل موعد من مواعيدها، ففي كثير من المرات يعودان دون أن يتمكنا من العبور.

أخفى فارس عن أمه أنه كان عندما يحاول العبور من الحواجز، يُستدعى إلى مكتب رئيس الحاجز الأمني، يقومون بإهانته بشتى الطرق، وأحيانا كانوا يعرضون عليه تيسير عبوره ومساعدته بمساعدات لا يتخيلها؛ مقابل أن يتعاون معهم في أمور اعتبروها بسيطة، لكنه كان يرفض ذلك مرارا، لذلك يهينه الضابط ثم يطرده من الحاجز، غير أنه يحاول العبور مرة أخرى منتظرا أن يتغير الضابط، وكان يفلح مرة ويخفق مرات عديدة.

توفيت أمّه بشرف متأثرة بمرضها الشديد، بكى كثيرا لفراقها، فكر أنه لو استجاب للضابط الإسرائيلي، لأمكن له انقاذ أمه، دفنها في يوم حزين، لكن المرض أبى أن يدفن معها، حيث اكتشف أن ابنته مها التي تبلغ من العمر ستّ سنوات مُصابة بذات المرض، لقد أخبره الطبيب بذلك، خبرا كالصاعقة، فأصابه اليأس والرعب من هذا القاتل المتربّص بعائلته، لكن الشيء الوحيد الذي زرع فيه الأمل أنّ تشخيص المرض أثبت أنه في بداية مراحله الأولى وعليه أن يسرع في معالجتها حتى لا يستشري المرض في جسدها الصغير، حينها أصابه الجنون، لا يريد أن يخسر ابنته كما خسر أمه، وكالعادة المستشفى الوحيد الذي يتوفر على المختصّين الذين يأتون إليه من كل الأنحاء، وله الإمكانات الطبية اللازمة هو مستشفى تل أبيب، كان الفحص الأولي الذي أخبره به الطبيب أنه ابنته يمكن أن تنجو إذا

انتظم في تلقي العلاج في كل مراحله، أحسّ أنه مجبرا على التعامل مع الضابط الذي طلب تعاونه مع الشاباك من أجل تزويدهم بمعلومات، كان منهكا ومرهقا ومجبرا على الإستجابة لهم، لكي يسهلوا عليه المرور، حتى أنهم وعدوه بالإعانة المالية حتى يعالج ابنته، صنعوا له رخصة مرور خاصة تسمح له التنقل دون ازعاج.

اغتبط الضابط إيّاد الذي استقبله لاستجابته للتعاون معهم، لم يكن الضابط اسمه إياد، وقد أخبره بذلك، وهو أول درس يتعلمه، أن الاسم الحقيقي لا يذكر، إنما هناك اسم حركي نتحرك بنفسه من أجل تأمين أنفسنا من الملاحقة، وهناك رقم لكل متعاون يُعرف به، وربما رمز فقط، شعر فارس أن العار قد التصق به فعلاً، لكنه فكر أن هذا التعاون البسيط سينتهي حالما تشفى ابنته، قال في نفسه مستدرجا إيّاه لاقتحام عالمه الجديد:

- إنها مجرد مرحلة مؤقتة وتمرّ، وسأعود إلى وطنيتي، لم أجد حلاً غير هذا، كل المنافذ أغلقت في وجهي، فقدت أمّي، ولا يمكنني أن أفقد ابنتي كذلك، لم ينفعني احد، لا المدير جميل ولا الحكومة الفلسطينية ولا أحد في العالم...

كان قلقاً من منظر زوجته التي تبكي ليلا ونهارا عندما اكتشفت مرض ابنتها، وهو لم يخبرها بتعاونه مع الشاباك لكي ينقذ ابنته بدل البكاء، لا يمكن أن يفضح نفسه إليها، ولا إلى أي شخص في العالم، يعلم أنها لن تقبل ذلك، ولن يقبل أحد بالخيانة مهما كانت تبريراتها، سيقولون له؛ متُّ ولا تخون، الأوامر التي تلقاها أن لا يذكر تعاونه لأحد، لأنها قضية حياة وموت.

مرت أشهر وهو يعالج في ابنته في تل أبيب دون أن يطلب منه إياد أيّ عمل ولا أية معلومة، بل أبدى الضابط تعاطفه معه وسؤاله المتكرّر عن حالة ابنته، وقد كان في نفس الوقت يأخذ المال في كل عبور من الحاجز دون أن تنتبه له زوجته، متخفياً في شكل إتمام الإجراءات، لكنه مع ذلك فقد باع سيارته التي عانى من أجل شراءها، للتغطية على المال الذي ينفقه في علاج مها أمام زملاءه وأمام عائلته.

وبعد أن تقدم في علاجها؛ وشعروا أنه غرق في أوحالهم، بدأوا يطلبون منه أسماء الجرحى من المتظاهرين الذين يُسعفون في المستشفى، كان يسجّلهم ويسلّمهم إلى أياد كلما تنقل إلى المستشفى التي يعالج فيها ابنته.

طلب منه الضابط إياد ألا يظهر بمظاهر الثراء حتى لا يثير الشكوك ممن حوله، فتحوا له حساباً في بنك في تل أبيب يتصرف فيه كلما أراد، أجرت ابنته عملية جراحية ناجحة، اغتبطت أمّها وشعر أنه أنقذها من الموت المحقق، لكنه من جهة أخرى لم يتملّص من المهمات التي كان يُكلّف بها، توقفت مها عن التنقل إلى المستشفى، لكنه ظل هو يتنقل بدعوى الإتصال بالأطباء، وكان من خلال ذلك يتلقى التعليمات ويقدم المعلومات، ويقضي السهرات مع بنات الليل في أفخم الفنادق كمقابل من الشاباك لخدماته، وتوريطه أكثر، لم يرد أن يخرج من العالم الجديد الذي اشتهى مذاقه.

كان إذا أراد أن يتصل بإيّاد كانا يتفقا على نقطة ميتة يضع فيها رسالته التي لا يذكر فيها لا المرسل ولا المرسل إليه، ليأتي شخص لا يعرفه فارس إلى نفس المكان الذي وضع فيه الرسالة ليأخذها في سلسلة من الأشخاص لا يعرف أحدهم الآخر، غير أن اياد يعرف الجميع.

غسّان لا يعلم قصة فارس، والمرحلة المؤقتة التي كان يظنها فارس ستنقضي، صارت اعتيادا تغلغل في حياته، لم يستطع أن يتخلى عنه، بل لم يفكّر في ذلك.

كان فارس كثيرا ما يذكر مديره بسوء وأنه لم يكن يساعده في شيء عندما كانت أمه مريضة، ولم يساعده عندما مرضت ابنته، يبتلع أدخنة سيجارته، ثم ينفث ما في صدره وهو يصف جميل بالجبان، أخبره أنه تشاجر معه لجبنه في مواجهة ضباط الإحتلال حينما اقتحموا في عمل استثنائي بحثا عن جريح كان مطلوبا في إسرائيل، حيث أخبرهم عن الغرفة التي يوجد فيها دون أدنى مقاومة، لكن غسّان فاجئه بالسؤال الذي لم يتوقعه، حين قال له:

- لكن من أخبرهم من أن المطلوب جريح في المستشفى؟

ارتبك فارس من هذا السؤال، ثم أجاب:

- الإحتلال له القدرة على كل معرفة كل شيء، له أعين في كل زاوية.

قاطعه غسّان:

- له عملاء في كل مكان.

- صحيح... صحيح... له عملاء في كل مكان.

أخبروا غسان بأن المدير لم يكن كما هو الآن، فقد ولدين في قصف إسرائيلي على منزله، ومن ذلك اليوم أصابه الرعب، فقدَ شجاعته التي كان يتحلّى به من منظر تقطّع ولديه إلى أشلاء مختلطة مع أحجار البيت المتهدّم، وقد نجت بقية عائلته التي كانت متفرقة بين المدرسة والبيت، بينما أصيبت زوجته فاقِدَة رجلها اليمنى.

عندما انتهت الكارثة أعلن الجيش الإسرائيلي أن هناك خطأ في الاستهداف، وأنه يعتذر وبشدة عن الخطأ الذي تسبب في قتل ولديه

وأعاقة زوجته، وأن من حقه المطالبة بالتعويض لدى محكمة العسكرية، كان ذلك ضحك على الذقون، استمرت المحاكمة سنوات عديدة دون أن يبت في القضية، حتى عندما اكتشف أن هذه المحاكمة مجرد مسرحية أمام الرأي العام الدولي من أجل إظهار أن هناك عدالة ما، فلم يعوض ببيت جديد ولا بالدمار الذي لحق بممتلكاته التي كانت تحتويه.

كان المدير من أشد الساخطين على الجيش، يصب جام غضبه يمينا وشمالا، لكنه يصمت في حضرة أحد أفراد الجيش، يرى فارس أن ذلك عين الجبن الذي يستحقه لأنه لم يعنه لا هو ولا غيره عندما كان يحتاج مساعدة الآخرين.

كان فارس يقتني كثير من الأعلام الفلسطينية عندما يلتحق بساحة المظاهرات، وقبل أن يوزعها على المشاركين في الاحتجاجات يخلع سترة الإسعاف التي يرتديها، ينادي ويشجع الشباب على الصمود والمواجهة، اشتكى منه كثير من مرافقيه عند المدير الذي نبهه بأن هذه التصرفات قد توقفه عن العمل إذا قبض عليه متلبّسا أثناء أداء عمله، لم يمنعه بفعل ذلك في فترة راحته، لكن أثناء العمل فهو خطرٌ كبير عليه.

كان يقف منصتا لمديره مطأطأ رأسه وهو ينهره كالعادة، وعندما يخرج من مكتبه، يكيل له الاتهامات بالجبن والعمالة أمام مرأى ومسمع باقي الموظفين.

❖

في أحد الصباحات من فترة علاج غسّان، دخلت عليه أولينده مرة أخرى تحمل باقة من الورد، في أبهى صورة رآها فيها، يرافقها الطبيب الذي أخبره أنه يمكنه الانصراف، مع ضرورة تناول الدواء والتعليمات بالراحة لمدة شهر كامل حتى التعافي التام، نهض من سريره متكأً على كتفها يمشي بتأنٍ نحو الخارج، وقد أقنعته أولينده أن يمكث عندها حتى يتعافى

تمام، كانت فرصة لا تعوض أن يبقى معها كل هذه الليالي والأيام بساعاتها ودقائقها، دون أن تكون أمها موجودة التي انتقلت إلى ألمانيا لظرفٍ طارئ، لم يستطع غسّان أن يرفض استضافتها في بيتها، كان يريد أن يرتاح جدا، بعد كل هذه الآلام، وبعد أن أخبره المدير أنه في عطلة مفتوحة حتى يتعافى جيدا من المرض.

وصلا إلى فيلا آليس، التي تبدو جميلة جدا وواسعة جدا، وما إن وضع قدمه داخلها، قالت له:

- هذه أول مرة يدخل فيها شخصٌ فلسطينيٌ إلى بيتنا.

جملة جعلته ينتبه لها أشد انتباه، على أرضه ويُعامل كأجنبي، كما في كل المرافق والحواجز والمستشفيات، وها هي مجندة إسرائيلية تتفضل عليه بدخوله إلى بيتها، وهي التي دخلت أرضه بدون وجه حق، كان يمكن أن يكون حبّا عفيفا لو كان في غير هذه التفاصيل، صار حبّاً كجنين وُلد ميتًا، أو كلقيطٍ لا أحد يعترف به.

كانت أوليندە مغتبطة جدا بقدومه، نست أنه عدو، لا يمكنها أن تدخل عدوا إلى بيتها، لذلك فهي تعتبره صديق حميم، أو شخص أكثر حضورا في القلب، أو حبيب إمتلك القلب، ربما قد دخل قلبها قبل أن يدخل بيتها...

وهي قد وقعت في شباكه عندما نال ثقتها...

دخل غسّان الفيلا الكبيرة مكتملة الفخامة من حيث المساحة الشاسعة والمحتويات الثمينة التي تحتويها، فهِم من ذلك أن عائلتها ثرية جدا، لا يمكن لعائلة متواضعة أن تمتلك فيلا بهذه الفخامة، كان يجلس على الأرائك البيضاء وسط جدران زاهية الألوان، تزيّنها لوحات فنية مختلفة، كانت أوليندَه قد إستأذنتْ منه حتى تغيّر ملابسها وتعود إليه، طلبت منه أن يتصرّف كأنه في بيته، فلم يتصرف كما قالت، لأنه يريد أن يتصرّف كأرضه فعلا وليس وهما، أصبح غريبا في بيته، ذُهِل وهو جالس بجمال الفيلا من الداخل حتى نسي نفسه، إلى أن فاجأته أوليندَه بكأس نبيذ أصفر، غير أنه رفض ذلك بلباقة، ليس لأنه لا يشرب ولكن أوصاه طبيبه أن يبتعد عن المشروبات الكحولية مدة أسبوعين على الأقل، وهو يريد أن يمتثل سريعا للشفاء، لكي يكمل مهمته، حتى اعتذرت عن ذلك لأنها نسيت أوامر للطبيب، يفكّر وهو جالس معها؛ أنه تأخّر كثيرا عن مهمته التالية، رأى أن أوليندَه هدفٌ لا يستحق الاهتمام، لا يمكن أن يقابل الضيافة بالقتل، النبل من شيم الأجداد، والغدر ليست من صفاته، وحتى خروجه سالما من هنا محفوف بالمخاطر، ربما تحجّج مكشوف، يُخفي شعورا ما لا يريد الإفصاح عنه.

جلستْ قربه وقد لبست قميصًا خفيفاً، تقابله مبتسمة، مبتهجة لقبوله القدوم، وكأنّها تريد أن تنغمس معه في كلام طويل، أخفته في قلبها أياما طويلة، لم تكن تتوقّع أن تقع في شِراك فلسطيني وسيم كهذا، ولم يتوقّع هو أن يدخل بيت مجندة إسرائيلية تقف في مواجهة أهلها من أجله، ما أغرب هذه التناقضات، يتأمل في ندبتها، ويتساءل هو في نفسه؛ كيف يمكنها أن تعشق شخصًا قد تكون قاتله له يوما ما؟ سؤال لا

تعرف هي كذلك الإجابة عليه، سوى أن الناس ليسوا سواء رغم أنها جعلتهم سواء في كثير من أعمالها.

سابقًا تدرّبت تدريبا صارمًا؛ على أن الفلسطيني لا يستحق الثقة مهما بدى صالحًا، ويجب أن يتعامل معه بكل قسوة في كل الظروف، وفي حصص الرمي يكون المستهدف في إشارة الرمي، صورة لرجل فلسطيني يرتدي كوفية أو لباسا عربيا، ويجب أن تكون الطلقة في مكان لا ينفع معه اسعاف، وحبذا لو كان في القلب أو في الرأس، كانت الطلقات ترافقها اللعنات، والتعليمات تقتضي أن يكون القتل مؤكدا برصاصة أخرى على مستوى الرأس، لا أن تتحسّس نبضه. في موقفها هذا تشعر أنها هي من أُصيبتْ وليس غيرها، لم تنفع دروس الرمي في تعليمها، لترمي بكل تعليمات التدريب عرض الحائط وتُدخِل من كان عدوا بالأمس إلى عشّها وقلبها، تريد أن تقتطف قلبه، لكنه يبدو مستعصيًا عن الترويض حتى الآن، وهذا ما يبدو الذي جعلها أشد إصرارا على التمسّك به.

نظر إليها مخاطبًا:

- لِمَ كلّ هذا؟

ردت متلعثمة:

-ربما عرفانٌ بالجميل.

- يبدو أكثر من العرفان.

يريدها أن تعترف، لكنها تتهرّب من اللفظة التي لا تريد أن تنطقها ببرودة:

- صحيح، يبدو أن عرفاني مُبالغٌ فيه، لكن ما المشكلة أن أستضيفك عندي ما دامت أمي ليست هنا، وأنا أعاني في الحقيقة من الوِحدة، وأريد أحدهم أن يؤانسني، وأنت تستحق.

- اذاً، أنا محظوظ جدا.

- ههه.. في الحقيقة كلانا محظوظان.

أرادت باستضافته أن تقترب منه أكثر مما يجب، في أقصر وقت ممكن، إذ الجلسات القصيرة على موائد المقاهي لا تتسع لما تحمله في جعبتها من كلام، وكان هو لا يمانع في ذلك، إذ الكلام هو ما ينقص العالم رغم كثرته، يفقد الكلام ملامسته للحقيقة ومواجهته لأغوارنا، لم تخبره أنه في بيت خطير، وبأن أمها آليس كانت ضابطة موساد، تحظى بشأن عظيم رغم تقاعدها، الاقتراب المفرط بالنسبة له كذلك طريقة جنونية للتخفّي أو للموت، يفكر أنه عندما يقترب منهم سيكون مغيّباً عن محيط أنظارهم، لكن في حالة خطأ طفيف سيكون أسهل ضحيّة يحصلون عليها.

كانت أوليندة تريد التكلم عن شيء لا يشبه ما إعتادت التكلم عليه طيلة حياتها في إسرائيل، وكان غسّان حذر أكثر مما يجب، وما يحدث الآن فاق تصوراته، كما فاق تصورات أوليندة العاشقة التي تكاد أن تعلن حبّاً، هي لا تدري؛ كيف تغلغل فيها؟ وهي التي استسلمت كما يستسلم العسكري لأوامر سيده حينما يأمره بالقتل، ارتداءها للزي العسكري الإسرائيلي لا يكون دفاعا عن الحياة إلا بالقدرة على القتل، قتل أي شيء يعترض حلما مجنونا، سواء كان شابا أو شيخا أو امرأةأاو حتى طفلا، لا يمكن للعسكري أن يستخدم قلبه، لأنه قد تحوّل فعلا إلى آلة قتل لا تفكّر، منزوعة العواطف والتفكير...

لكن الأحاسيس تتحرك الآن، حرّكها غسّان بإصبعي قلبه، أيمكن أن يحوّلها من آلة إلى إنسان؟

ربّما تريد أوليندها أن تصبح انسانا كما كل العالم، بعدما كانت في وسطٍ تلتقي فيه كل الشباب، تلهو كما تشاء، وتحظى بكل ما تريد، لكن ماذا لو رفض غسان حبّها؟ عندها ربّما ستتحوّل إلى وحش كاسر، خلال اللقاء كان يقرأ في عينيها اللهفة، وكان يتمهّل أكثر مما تتحمّل نبضات قلبها السريعة لأجله، غير أنها لا تتحمل مراوغاته، ولا يستطيع ردّ مشاكساتها، تبحث عن الأشياء التي يحبّها، ويثرثر هو في مكان آخر، تغلق الأبواب والنوافذ لكيلا يخرج تفكيره عنها، بينما يتسلل تفكيره فيما يحدث حول القدس وأرضها، لم ترد أن تخبره عن اقتراح ضابط الشاباك أن يتعاون معهم، حتى لا تنفره وتشتت تفكيره، تؤجل كل ذلك حتى تستدرج قلبه، فالقلب العاشق يستدرج كل شيء في الإنسان؛ عقله وروحه وجسده، حينما ينقاد القلب يتبعه كل شيء، كما انقادت هي نحو شاب نَبَتَ في هذه الأرض، لا تريد أن تحدّثه في السياسة ولا أن تعكّر مزاجه، تريد أن يصفو لها هذه الليالي، خالٍ من كل شيء إلا منها.

كانت تحرص على أن يأخذ أدويته في وقتها، وتستقبل الممرضة التي تأتي مساءً لتحقنه بالدواء، ولمّا بدأ يتحسّن رويدا رويدا، عرضت عليه التجوّل في عرض البحر في أحد زوارقها، وكان لها ذلك لعشقه البحر وأشياء أخرى، لقد أخبرها أنه ابن صياد ماهر، يحب إصطياد الأسماك بأنواعها، حتى شعرت أنها سمكة في قبضته وهو يتكلم، تتخبّط في حبٍّ لم تنطق به لكنه يعشش في أعماقه، أيكون الحب عقابًا؟ تحاول أن تعبر عنه بكل الأشكال دون أن تعترف، يمنعه الكبرياء، وتريده أن يخرج من فم غسّان، لكن دون جدوى، كان يُطري عليها، يقترب من كلمة؛ أحبك، ثم ينسحب منها، لم يكن هو مستعد لأن يجعل الكلمة سلعة رخيصة في

يـديها، يريـد أن يجعـل لهـا اعتبـارا وقداسـة، ربمـا ليجعـل للكلمـة معـنى ومصداقية...

قصّت عليه ما تريد من قصصها، وقص هو عليها ما يريد، لم يصلا إلى الصراحة التي تمتد إلى الأعماق، وتغرف منها الإحساس الصادق، هي مجنّدة تفكر كعسكري حذِر، وهـو لا يفضـل الإنـدفاع حـتى لا يفقـد إحترامها، كانت تنظر إليه بإحترام وكان ينظر إليه كسمكة قابلة للصيد، أو كطعم لصيد أكبر، يجب أن يسحب خيط الصنارة بهدوء نحو حتفه، بين الكلمات العامة.

يجس نبضها كقناص متربّص، يقول لها:

- لماذا انخرطت في الجيش؟

- إنها أسباب كثيرة، أهمّها أنها رغبة أمّي...

صمت قليلا، ثم سألها:

- ورغبتك؟

- في الحقيقة إنها رغبة ممتدّة في التاريخ والدين.

فضل عدم إثارة الجدال التاريخي والسياسي لأنها ستعكّر صفو الجلسة الرومانسية التي بدأت تنسج وسط أمواج البحر الهادئة تحت ضوء القمر المكتمل، سيجعل البحر هائجا. كانا جالسان متقابلان، وكانت تشعر أنها تغرق فيه، وكأنه قد نوّمها مغناطيسيا، ويمكنه في هذه اللحظة الشاعرية أن يرى ما في داخلها من أسرار، وكانت مستعدة أن تهبه ما يشاء، تفكّر وهي تدقّق في عينيه، قائلة:

- كيف استطعت ذلك أم هي لعنة ما...؟

تقصد كيف استطاع أن يجعلها سمكة في بحره؟ سمكة في يد صيّاد مـاهر، مصيرٌ لـم تكـن تتوقّعـه، لأنهـا جـاءت مقـاتلة لا عاشـقة؛ عاشـقة

لشخص لم تلمس أحاسيسه بعد، حتى وإن غابت تلك الردود تبقى هي في تلك المرتبة، ما بينهما أصعب من أن يحدث، كان يفكّر هو أنّها بين يديه ضحية سهلة المنال، لا تتطلب تدقيق ولا تحقيق ولا تمويه، وليست المخاطرة كبيرة إذا قام بقتلها لكنه يتراجع كونه رجل نبيل، لا يمكن أن يقتل من يعبر له عن حبّه ويُكرمه، ستكون ضحية من نوع آخر، قتل بطيء بين الحياة والموت، اقتربت منه أكثر مما يجب نحوه، تريد أن يتحسّس أنفاسها أو نبضها، تريد أن تكسر الحاجز الهلامي، والبدء في العزف على قلبها، فقالت له:

- لماذا؟

كان سؤالا قصيرا جدا لكن الإجابة عليه طويلة أكثر من ساعات هذه الجلسة.

فَهِم معاني السؤال، فأجابها بنفس السؤال:

- لماذا؟

كانت تعلم أن الإجابة مستحيلة في هذه الظروف، مسافة لا تختزل أبدا، وكان بسؤاله لها يتهمها بالمقابل، بأنها هي من بدأت الحرب بدخوله في عالم ظنته شريرا فانبهرت بجماله، أو أنها اكتشفت بعض شرها، ولمّا أراد أن يطلب توضيحا، قال:

- لماذا ماذا؟

قالت، ومازالت شفاهها تتحرك قرب شفاهه:

-...لماذا اصطدتني؟

أطلق ابتسامة عريضة ثم ردّ عليها:

- ولماذا التقطتِ دودة الصنّارة؟

انهمرت في ضحكة، وهي تتقزّز:

- ياع ياع... ههه.. أنا لم آكل الدودة...
ثم أردفت قائلة:
- أنا اكلتُ عينيك...
فأطلق هو ضحكة طويلة، وأجاب متقززا هو الآخر:
-كلاهما من شحم لزجٍ؛ العينين والدودة.
- يا لك من مُقرف يا غسّان.
رد ومازال يضحك:
- أعرف أنكم أنتم أيها العسكريون لا تقرفون أبدا، هذه من ميزاتكم، لا تقرفون من أي شيء.
- ممم... ممكن، لكن الإناث لا... هناك حدودٌ ما في ذلك.
أصابته بقُبلة هادئة، لم يتمالكا نفسيهما حتى غرقا في قبلات ساخنة طويلة، انتهت بكلمات إعتراف نثرتها أمامها دون مواربة، وهي تردّد:
- أحبك... أحبك... أحبك.
تساءل، أن هذه المجندة تعترف بالحبّ لمن كانت تكره، هو لم يبذل جهدا لتحبّه، ولم يطلبها للحب، كيف تحول الكره إلى حبّ؟ وهل إذا بقيت معه ستحبّه أكثر؟ أم أنها نزوات عابرة؟ أم أنه إعتراف صادق؟ربما يكون الأصدق في حياتها...!
وإذا عرفت أنه قاتل زملاءها، فهل ستقتله بيديها؟ أم أنها سيمنعها الحبّ الجارف الذي وقعت فيه من ذلك؟ ربّما ستُجنّ أو تنتحر في تلك الأثناء.

كانت أوليندە في قمة السعادة، حينما ظفرت به، وتريد ألّا تشفى منه، ألاّ تأتي أمُّها، ألا يتحرّك الزمان فيختفي غسّان عنها، ألّا ترتدي زيها العسكري وتخوض حربا غير هذه التي تخوضها.

لكن الأيام مرّت واختفى غسان بالرغم من تشبثها به، غادر نحو منزله ونحو أبيه، ليتركها هي كذلك في منزلها مع أمّها.

عادت آليس واكتشفت أن غريبا دخل منزلها بل هو عدوٌّ، تشاجرت مع أمها شجارا عنيفا، دافعت أوليندە عن غسّان لأنه حسبها ليس كباقي الشباب الفلسطيني، غير أن أمها تصرخ يمينا أن الفلسطينيين يتشابهون بالرغم من إعجابها به، لم تستوعب تبريراتها، وفي آخر الجدال طرحت آليس سؤالا لم تطرحها هي على نفسها، قائلة لها باستهزاء:

- وعندما تتبادلان هذا الحب الجميل، ما هي نهايته؟ أتتزوجان في غزة أم في تل أبيب؟ أيكون عرسكم بمراسم يهودية أو إسلامية؟ أم أنكم ستفرغون نزواتكم فقط؟

ردّت على أمها بأنها تحبّه، حبّاً هي مستعدة أن تفعل المستحيل من أجل الدفاع عنه، لكن الأمّ تردُّ عليها:

- أيحارب العالم هو من أجلك؟ أظنه سيحاربك أنتِ لا يحارب من أجلك...

❖

تركت أوليندە أمّها تكيل لها اللعنات جرّاء علاقتها بغسّان، وتوجّهت لإحدى صديقاتها ثم عادت بعد فترة راحتها إلى زيها العسكري تتشابك مع الشباب المتظاهر، وعاد غسان إلى سيارة الإسعاف يسعف ما أمكنه إسعافه، ويتربّص الفرصة المواتية حتى ينفذ عملية أخرى تتوفر فيها نسبة النجاح مائة بالمائة، ومن شروط النجاح الفوضى العارمة والأدخنة الكثيفة والملثمون الكُثر، والمنطقة المفتوحة التي يصعب إغلاقها من

طرف الجيش، فالعملية التالية هي من تصيب الجميع بالهلع، إذا كانت بنفس كفاءة التي سبقتها، لا يمكن أن يُخطئ إذا تموقع حيث لا يُرصد من بعيد، حيث يكون لباسه بنفس لون الأشجار التي يتمركز بينها، حيث يجب ألّا ينتظر كثيرا فالوقت كما هو حليف قد يكون عدوا في نفس اللحظة، يبحث عن مجنّدٍ منهكٍ متجمّدٍ، فجأة يجد مجنّدة متوقفة في وضع لن يخطئه، غير أنه أزاحها عن الاختيار، لا يريد أن يستهدف أنثى رغم أنها مشاركة في جريمة الإحتلال، هي أيضا تحمل بندقية قاتلة، قد تقتله هو بالتحديد، قد تقتل إمرأة أو طفل...يطيل البحث ليجد أحدهم منهك، يريد أن يساعده في نهاية لإنهاكه، يدرس كل المعطيات؛ الريح والدخان المتصاعد، الناس مع الجنود في كرّ وفرّ، يرتكز جيدا، يثبت منظاره على رقبة الجندي، يضغط على الزناد، يسقط الجندي صريعًا في مكانه، يُسرع غسان لينزع لثامه، يلفّ بندقيته على قماش العلم، يتغلغل بين الجماهير، يحتدم الصراع والاشتباك، يضع بندقيته في مكانها السرّي دون أن ينتبه له أحد، ولا السائق فارس الذي هو غائب عن السيارة أيضا، وهو المنخرط بين الشباب يراقب عن كثب عن إصابة ما أو مساعدة لأحدهم، لينادي غسّان من أجل إجلاء طفل مصاب بطلق ناري على مستوى الذراع، ينطلق حاملاً سرير الإجلاء من أجل نقله إلى المستشفى بعد معاينة أولية يعاينها قبل نقله، يصعدونه إلى السيارة، يمزق كُمّ الطفل الذي لا يتجاوز الثالثة عشر سنة، يشد أعلى ذراعه ليقلل النزيف ويضغط على الجرح بحرص شديد، كان الجرح واسع وعميقا ومتهتكا لا يمكن إخاطته في الميدان إذ يحتاج إلى معدات لا توجد في المكان، فتنطلق السيارة نحو المستشفى لعله يتمكّن من إنقاذه.

وما إن غادرت سيارة الإسعاف حتى انتشر أفراد الجيش سريعًا وكثيفًا في المنطقة، حوصر المكان بالطوافات والمدرعات، وانتشر الخبر في الجيش عن القناص الذي يستهدف مرة أخرى رقاب ضحاياه بدقة لا متناهية لا تترك مجالا للإنقاذ، اعتقل الكثير من الشباب واقتحم الجيش منازل المشتبهين، دون أن يجدوا دليلا واحدا على القناص، ولا يعلمون أهو بين المعتقلين؟ أو أنه مازال طليقا؟ وذلك ما يشكل خطرا كبيرا إن نفذ عملية أخرى فإنه سيكون تحدي غير سهل، ليس لمسؤولي الجيش والمخابرات، بل لحكومة شارون في حد ذاتها.

أعلِنتْ حالة الطوارئ، استدعيت كل القوات الاحتياطية، وأُقيمتْ الاجتماعات على أعلى مستوى، فمراكز متقدمة في قيادة الجيش مهددة بالإقالة.

هذا الحدث جعل أوليندة تعمل بكثافة ككلّ أفراد الجيش، ولم تستطع أن تتصل بغسان المشغول هو كذلك في خضم عمل مكثف، أبعدهما عن بعض، لتتذكّر كلام أمها على أن هذا الحب لن يكتب له النجاح أبدا، تصاب بالخيبة عندما تتذكر ذلك، وتشتاق لرؤيته لكي يمرّ بسلام أمامها ليرمقها بنظرات حالمة تذوب لها.

استنفر كل العملاء في كل مكان، بحثا عن معلومات تقرّب إلى معرفة القناص، لكن دون جدوى، بالنسبة لهم أن هناك احتمال كبير بأن القناص ذئب منفرد، يعمل دون مجموعة في سرية تامة، مما يصعب البحث عنه، لم يتمكّن فارس من إمدادهم بشيء ذا فائدة، كانت معلوماته شحيحة وغير مهمة، كل الذين يصابون في المستشفى كانوا أطفالا، لم يجدوا شيئا عند استنطاقهم، ولا حتى المنظمات الفلسطينية تشجّعت في تبني عملياته لكنهم استنفروا كل عناصرهم للإستفادة من

هذا العنصر الجديد، مما جعل غسّان أكثر حذرا مع الجميع، إدعى المرض لكي يأخذ عطلة مرضية يستريح فيها، لكن المدير رفض ذلك بحجة العمل الكثير والحاجة لكل عمال المستشفى.

أطال الشاباك البحث عن هذا المجهول، أزاحوا عدة فرضيات واحتمالات، ومن أهمها أن هذا القناص لا ينتمي إلى أي مجموعة من المجموعات، وأنه يعمل منفردا، وحذر جدا، لكنهم تأكدوا أنه يقوم بعملياته عندما تعم الفوضى، ويصبح الجميع في حالة ارتباك واشتباك، ليقتنص بمهارة عالية أحد الجنود، الذين أصبحوا يخافون من رصاصة منه تدقّ أعناقهم فجأة، بحثوا في جميع الكاميرات التي كانت تعمل خلال عملياته، وطلبوا مساعدات من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربية من أجل مساعدتهم في التحقيق على أمل ألّا تحدث عمليات أخرى تربك الجميع، لا يمكن لرئيس الشاباك الإخفاق في تحديد هوية الجاني، وإلّا فإن منصبه على المحكّ.

الشيء الذي تأكّدوا منه أن العمليتان حدثتا في المكان الذي يتواجد فيه عميلهم فارس وعملاء آخرين دون أن يعرفوا الفاعل لكثرة الشباب، مما جعل الشاباك يأمرهم بالانتباه كثيرا في المرتفعات القريبة والمباني المرتفعة لتصوير القنّاص عندما يهمّ بعمليته التالية.

- أتعلم يا صديقي، ماذا أتمنّى الآن؟ قالها بحماسة مفرطة.

رد غسّان على فارس في استغراب:

- ماذا تتمنّى؟

- أتمنى أن أعرف من هو القنّاص؟

- على كل حالٍ، الكلّ يريد أن يعرفه، ليس أنت فقط، حتى أنا والمدير والموساد.. لكن ماذا تفعل إذا عرفته؟

رفع يديه كأنه يشير إلى رأس ما قائلا:

- أتعرف ما سأفعله، سأقبّله بين العينين، وعلى رأسه، إنّه يستحق الاحترام والتقدير، لقد أرعب المحتلّين.

رد عليه ببرودة:

- نعم، هذا صحيح، إنّه يستحق.

تعجّب فارس من ردّ غسّان البارد، فرمقه بتذمّر، كأنه يتهمُه باللاّوطنية، بينما غسّان لا يريد أن يسترسل معه في الكلام، فمنذ تضميده لجراح المجندة الإسرائيلية صار منبوذا من الجميع، حتى أصدقاؤه صاروا يتجنبونه، أصبحوا يثيرون موضوع القنّاص أمامه ليزعجوه، لكنه يتجاهل الجميع، هو متأكد أن الوطن هو الوحيد الذي يعرف الشريف من الخائن، الأحداث علمته أن المظاهر ليست بالحاسمة في تحديد حقيقة الأشخاص، وأن اللسان لا يقول الحقيقة في كثير من الأحيان، المواقف على الأرض تحدد كل شيء.

بالنسبة لغسان، كل من حوله هم عملاء، أو مشاريع عملاء، هكذا يمكن أن يكون في أمان من الشاباك وأجهزته، كل خطوة منه يجب أن تدرس قبل أن يخطوها، مع الإبتعاد عن الشبهات، والتكلم بحذر، صار

الإتصال بأوليندە مطلبا جديدا في لائحة يومياته، يريد أن يعرف عما يدور في خلدها عن القنّاص، وما تملكه من معلومات تساعده في تحركاته القادمة.

فكّر بأنها إنْ عرفت حقيقته؛ ستتشوق لقتله وتعذيبه بكل تأكيد، كما كل الجنود، ستخبره أنه إرهابي خطير يريد سلبها الحياة، يثير الفوضى في دولة إسرائيل، لكنه لم يستطع الإلتقاء بها، إلا بعد أن تمكن من إجلاء مريض من المستشفى الفلسطيني نحو مشفى تل أبيب، حيث تواعدا معها في مدخله، اتفقا مع فارس أن يلتقي به بعد أن سمحا لهما بذلك، مما جعل فارس يخرج من المستشفى نحو وجهة مجهولة، متذرِّعًا بشراء بعض الحاجيات، وفي حقيقة الأمر يريد الإلتقاء بالضابط إيّاد، أمر استحسنه غسّان حتى يلتقي بأوليندە التي جاءته مرتدية الزي العسكري، وعلى كتفها بندقيتها، خاطبها مبتسما:

- يبدو أن ضغط العمل الكثير حرمنا من رؤية بعض.

ألقت بنفسها تعانقه، وكأنّها تقول له:

-كنت أقوى قبل أن أحبّك.

لكنها قالت له:

- ربما كانت صادقة أمي فيما قالت.

تعجب، وردّ:

- ولكن ماذا قالت أمّك؟

أخبرته بكل ما قالته عن علاقاتهما، فكان ردّه:

- لا يمكن لأمّك انطلاقا من تجاربها الخاصة أن تبني الأحكام وتحدّد مصائر الناس.

ثم نقلها بذكاء إلى الحديث عن القنّاص، فانتفضت غاضبة قائلة له:

- هذا القاتل الجديد هو سبب الفوضى التي تعمّ المكان، هو سبب عدم رؤيتنا لبعضنا البعض، وهو سبب سخط الإسرائيليين في كل مكان على كل المستويات.

استهزأ بكلامها دون أن تدري:

- نعم هو السبب في عدم التقائنا مجددا، لو كان غير موجود لكنا في زورق الحبّ في قلب البحر المتوسط.

- الآن الكل مستنفرٌ من أجله، وقد وعدوا الذي يقدّم معلومات عنه بربع مليون دولار، ونصف مليون دولار للذي يقتله، ومليون للذي يقبض عليه حيًا.

تجمّدت في مكانها كأنها تذكّرت شيئا فقدته، وقالت:

- لكن ما رأيك فيما يفعله القنّاص؟

ابتسم، وردّ:

- ليفعل ما يريد، المهم ألا يقترب منك أنتِ، وإلا فإني سأقتله بكلتا يدي هاتين.

ابتسمت لكلامه الجميل، فكّرت أنه يريدها هي، منعزلة عن كل شيء، كروح طائرة في سماء الصفاء، يريدها ألا ترتبط بإسرائيل، ولا أمها، ولا أي شيء، كروح خلقها الله للسلام.

ولكن........

فكر غسّان أن هذه الإغراءات ستحرك الكلّ في سبيل البحث عنه، وهو الواقف أمامها ولا تدري أن بين يديها مليون دولار، يتساءل، ماذا ستكون ردة فعلها إذا عرفته؟

بينما هم جالسان في أحد المقاعد وضع يده على بندقيتها، ثم قال لها:

- مادامت هذه البندقية بين يديك فلن يحصل لك شيء.

سحب البندقية من بين يديها، ووضعها على حجره، دون أن تقاوم، ثم قال:

- أتثقين بي؟

ابتسمت وقالت:

- لو لم أثق فيك لما تركت تضع يديك عليها، لقد وضعت يدك على قلبي بأسلوب لم أكن أتخيّله.

صمت طويلا، كان يفعل ذلك لأجل معرفة مدى ثقتها فيه، ويعزز تلك الثقة أكثر، السلاح لا يلمسه حتى الأصدقاء، فما بالك بالغرباء، لفظة الغريب لا تتناسب مع غسّان، صار في أعمق الأعماق، لقد أمسك بسلاحها ولم يقم بقتلها لأنها مجندة إسرائيلية، وكان يمكن أن يفعل ذلك في كل مرة، لكنه لا يريد أن يخون الثقة، ولا أن يخون الوطن.

أعاد لها السلاح، لكنه أعطاها درس تعرفه، كأنه يحرص على سلامتها، ويعطيها درسا إذا قبض عليه أنه كان يستحق الحبّ لنبله، وإذا قتل فستعرف أنه كان يحبّها، والدليل أنه لم يقتلها، قال لها:

- لا تثقي في أحد، لا يجب أن تسمحي لأحد بمسك سلاحك.

أجابت مقاطعة:

- ولا أنت؟

- نعم، ولا أنا.. ألست عسكرية أم أن الحبّ أعمى عقلك؟

وضع يده على يديها، ثم قال:

- أولينده، يجب أن نفترق.

اهتزت هلعًا من هذه الجملة، قالت وقد ارتفع نبضها:

- ولِمَ؟

أحكم قبضته على يديها:

- أوليندة، حبنا حربٌ، في مثل هذه الأجواء لا يكون السلام، الحب يشترط السلام، وهو الشيء المفقود في هذه الأرض.

- بالعكس يا غسّان، يمكننا فعل أيّ شيء ليعيش.

- أمّك لن تقبل، العالم من حولنا لن يقبل.

ادمعت عيناها دمعتان انحدرتا على خدها على ظهر يد غسان، رفع يديها الى عينيها، مسح بهدوء، حتى قالت له:

- لماذا جمعتنا الصدفة إذًا؟ لماذا لم تقتلني لحظة الإصابة؟ كان أريح لي مما تقوم به الآن.

أصرّ على كلامه، تشبّثت به، أخبرته أنها ستجنّ، فرد عليها أن الجنون أهون، لو قال لها أنه القنّاص ربما سيتخلص منها بسهولة، أم كانت مازالت تتشبث به؟

غادرت أوليندة باكية تكفكف دموعها، تلعن لحظة البداية، وقبل أن تغادر كان فارس يتلصّص عليهما من بعيد دون أن يكشف عن نفسه، لاحظ قربهما إلى بعض، لكن دون أن يتمكّن من سماع أي كلمة مما تحدثا به.

عند عودتهما من تل أبيب استدعى مدير المستشفى غسّان، ليستفسر عمّا شاهده فارس، وقد وعد هذا الأخير بألا يكشف عن اسمه، تعبيرا منه على أنه غيور على وطنه أشد الغيرة، ولا يقبل ما يفعله غسّان سرا مع المجندة، تحدّث فارس في زهوٍ بصوت عال إلى المدير:

- كان الأولى أن يكون مثل القنّاص، لا أن يواعد المجندّات أثناء أداء عمله.

لمّا قابل المدير غسان وسأله عن لقائه بالمجنّدة، وأن ذلك يشكّل محلّ تُهمة في ولاءه للوطن من الجميع، ليرد عليه غاضبًا:

- لا أحد يتدخّل في حياتي الخاصة، حتى أنت أيها المدير، لا يجمع بيننا إلا علاقات عمل.

- دائمًا أنت هكذا يا غسان تثبت أن لا غيرة لك على وطنك، ألا ترى أنهم ينكلون بنا ليلا ونهارا، ومن ضمن ذلك الجيش الصهيوني حبيبتك المجندة وأنت تواعدها دون حياء جهارا نهارا؟

- لا دخل لكم بي، أنا أعرف ما يناسبني.

خرج غسان من مكتب المدير وهو يشتم في فارس، لأنه عرفه أنه هو من أخبر المدير بذلك، فبحث عنه بين مختلف الأروقة حتى وجده يقف مع مجموعة من الممرضين، وكلما اقترب منه أسرع في خطواته نحوه، ولمّا اكتشف فارس نية غسّان في الانقضاض عليه، هَمّ بالانسحاب للابتعاد عنه، لكنه تمكن القبض عليه وصفعه بيده اليمنى، غير أن يده الأخرى لم تستطع الانقضاض عليه بها، لأن كل الواقفين منعوه من الإمساك به، ودفعوه إلى الوراء وهم يشتمونه وينعتونه بالخائن، تطاير الشرر من أعين الجميع، فردّ عليهم جميعا، وهو في قمة غضبه:

- إبلاغه عني من أعمال الخونة، ألا ترون ذلك؟

رد عليه أحدهم قائلا:

- ما فعلته أنت عين الخيانة، ألم تعجبك كل بنات فلسطين وتتجه إلى قاتلة إسرائيلية، على يديها دماءنا، وربما أنك تمدّها بأخبارنا..؟

اشتد الشجار حتى سمعه كل مَن في المستشفى، وتصاعد الصراخ بين الجميع، حتى تدخّل المدير من أجل فض الاشتباك، فافترق المتشاجرون، كلٌ إلى مصلحته، وانتهى العمل بين فارس وغسان بطلب من كليهما حتى لا يتجدّد الشجار مرة أخرى.

رغم الشجار الذي وقع أحس غسّان أنه تخلص من فارس الذي لا يؤتمن جانبه، فالعمل مع سائق آخر يعطيه راحة أكثر في التفكير في عملية أخرى، بعيدا عن فضولية فارس الذي يدعي الوطنية بإفراطٍ، حتى أثار الشكوك حوله أو الانبهار أو جعل الناس تملّ من شعاراته الرنانة، وطنتيه الزائدة التي وكأنها تتهم الجميع بالخيانة.

مرت سنة كاملة ومازالت الانتفاضة الثانية في أوجّها، اعتقالات لا تتوقف واشتباكات في كل نقاط تماس بين الجنود والمتظاهرين، تتوقف سيارة الإسعاف مع السائق الجديد وراء جموع المتظاهرين، في انتظار سقوط أحدهم جريحا أو قتيلا، من أجل اسعافه كالعادة.

كان يقف غسّان على يمين السيارة يتحيّن الفرصة ويرسم الخطة الملائمة التي تتناسب مع المكان، إذ المنطقة تخلو من التلال، ولكن بها بنايات عالية تُصلح أن تكون مكانا مناسبا للقنص، لكن الذي يهم كذلك، هو لحظة الانسحاب، المكان الذي يعج بالناس يشتت أية مراقبة، وبدون أن يخبر صديقه السائق الجديد، نزع سترة الإسعاف، واستل البندقية من مكانها، وهي ملفوفة في قماش العلم كالعادة، أسرع نحو البناية مهجورة، وسط أمواج من الناس المتلاطمة، جعلته يجري بالموازاة مع الشباب وهو مرة يهتف معهم ومرة يشجعهم، يتأكّد أنه غير مراقب ما استطاع ذلك، يعرج إلى البناية الإدارية الخالية يصعد إلى الطابق الثالث، يدخل غرفة مطلة على المكان، يتجه نحو نافذة منكسرة، يطلّ بحذر نحو مكان تواجد الجنود، يضع رأس ماسورة البندقية على حافة النافذة، يصوبها نحوهم محاولا التدقيق في رقابهم، انتقل من جندي إلى آخر، إلى أن لاحظ أن أحدهم يوجد في وضع مناسب، يقف دون حراك، لا يرتدي خوذة، ولا قناع واقي، كأنه يريد أن يموت، يستوضح الوجه، إنها امرأة، بل

هي أوليندە في حد ذاتها، تبدو أنها تعرض نفسها للقتل، تريد الانتحار بطريقة جنونية، تطرد كل جندي يحاول أن يطلب منها الاختباء، لكن دون جدوى، يرتبك غسّان من المشهد يتعرّق، يفكّر، لماذا قد تفعل ذلك؟ وإنه هو الذي جعلها تتعرض نفسها للموت، هي الآن هدف يستحق الاحترام لأنها ضابط في موقع لا يمكن أن يخطئه، يعود إلى الجلوس يرتّب تفكيره، شعر بالفتور، نقص حماسه للقتل، تردد في إتمام المهمة السادسة بنجاح، لكن...لا يمكن أن يقف أحدٌ في وجهه، سيبحث عن هدف آخر لقتله، يعاود الوقوف، يستعيد أنفاسه حتى تنتظم، فانتظامها ضروري لأن تكون التسديدة حاسمة، بحث عن غيرها، حتى عثر على أحد الجنود يقف في وضع مناسب للموت، يوجّه منظاره إلى رقبته، يسدد، يضغط على الزناد، فيسقط الجندي جثة دامية على الأرض، يلف بندقيته، ينزل بسرعة من البناية، يتغلغل بين الحشود، يقترب من سيارة الإسعاف، يدكّ بندقيته الملفوفة تحت السرير، يلبس سترته، ثم يلتحق بالشباب، يصرخ معهم، ينتظر جريحا أو مصابا، حتى يرى من بعيد مجموعة من الشباب يركضون وهم يحملون وسطهم شابا مصابا، جعل السائق ينطلق نحو المستشفى بعدما وضع رفقة المسعف الطفل المصاب فيها.

تمت العملية السادسة بنجاح...

استشاط ضباط الشاباك وعلى رأسهم إياد غضبا من الحادثة، وعندما نفذت العملية السابقة بنفس طريقة كل العمليات، تحولت كل المواقع إلى جحيم، واجتاح الجيش المنطقة كلها، تم إعتقال الكثير بعد احتدام الاشتباكات، حوكموا في المحاكم العسكرية، وأُسِر أسرى قدامى، وبعد استنطاق مكثف، إعترف أحد المعتقلين أنه لاحظ شاب ملثم يصعد إلى أعلى البناية، ثم نزل منه بعد فترة من الوقت، لكنه لا يعرف أيٍ

ملامحه، ولا يعرف كيف انفلت من المكان ولا إلى أين ذهب، لأن الفوضى كانت تعم كل المكان، ولا أحد يعرف أحد.

كان الجندي المقتول تابع لفرقة الضابطة أوليندة، مما جعل المجموعة تحت الاستجواب في مراكز الشاباك، لم يستثن أحد أثناء التحقيق، استجوبت كل الفرقة، وأعيد تشغيل تسجيل الكاميرات التي كانت تراقب المكان، فلاحظ أياد أن أوليندة تقف في منتصف الطريق دون خوذة ولا قناع، تعرض نفسها للقتل متعمّدة، لكن في نفس اللحظة استهدف القناص غيرها، ولم يستهدفها رغم أنّها هدف أسهل منه.

استجوب إيّاد أوليندة، فسألها:

- لاحظنا أنك كنت تعملين دون أن تقومي باحتياطات العمل، لا خوذة ولا قناع واقي، وكنت في منتصف الطريق تواجهين الإرهابيين دون اكتراث.

كان وجهها مكفهّر وشاحبٍ، لا تهتم بوجهها كالعادة، فقالت:

- وماذا في ذلك؟ ألا يعتبر ذلك شجاعة؟

- نحن نظنه تهوّر وليست شجاعة، وكمجندة يجب عليك أن تلتزمي بالتعليمات، ولا تعرضي نفسك، ولا مجموعتك للخطر.

- رغم ذلك، لم أقتل...!!

أشار إياد إليها بأصبعه قائلا:

- هنا يكمن السؤال، كيف أصاب القنّاص هدفا صعبا وتركك أنتِ، رغم كونك بلا أي واقٍ، ولا حاجز، ولا حتى خوذة، لكنه اختار جنديا آخر؟

- وما دخلي أنا؟ أيكون ممن لا يُفضّل قتل النساء مثلاً؟

- ممكن... نعم، وممكن لا.

صمت يفكّر قليلاً، ثم أردف:

- لا يمكن أن نكون سطحيين في تفاسيرنا.

- ماذا تقصد؟

- يجب وضع كل الاحتمالات على طاولة التحليل والتأويل.

ردّت، وكأنها تستعجل الإنصراف:

- إذن فلتقوموا بعملكم، فأنا كذلك متشوّقة لمعرفة الجاني الذي قتل أحد أفراد مجموعتي.

- الشاباك كذلك يعمل بمساعدتكم، وكل معلومة منك قد تفيدنا.

استمرت برودتها، قائلة:

- حسنا، هذا أمر مُتعارف عليه.

لم تتجاوب أوليندە بالشكل المطلوب، كانت قليلة الكلام، شحيحة المعلومات، بل غير متحمّسة للنقاش المطوّل.

بعد أن غادر غسّان المستشفى وقد أخفى البندقية في مكان سري في مرأبها، وعند خروجه من المستشفى تبعته سيارة حتى اقتربت منه، خرج منها رجلان ضخمان ملثمان، يقبضان عليه، يكمّمان فمه عن الصراخ، ويقيّدان رجليه عن الهروب ويربطان يديه لكيلا يُقاوم، ثم قاما بوضع مخدر على أنفه جعله يستسلم داخل السيارة، واتجها به نحو وجهة مجهولة أمام أنظار بعض الأطفال، مما جعلهم يفرون فزعا من منظر الاختطاف، وقد انتشر خبر اختطافه.

بعد فترة لا يعرفها استفاق من نومه، فوجد غسّان نفسه مكبّل اليدين والرجلين، في قاعة ضيقة مظلمة، وحوله ثلاث أشخاص ملثمين يحملون مختلف الأسلحة، ولا يرى إلا أعينهم التي تدلّ على غضب عارم

وسخط شديد عليه، وما إن تلفظ أحدهم حتى عرفهم أنهم فلسطينيين، فقال له أحدهم بعد أن اقترب منه بصوت خشن:

- لكيلا ننتقل إلى الأسلوب الخشن، عليك ألا تصعّب الأمور علينا وعليك.

رد غسّان:

- مَن أنتم؟ وماذا تريدون؟

- أما السؤال الأول فلا يهمّك، أما السؤال الثاني فهو الأمر الذي من حقك، والحقيقة أن امثالك لا يحق له أن يسأل، كان يجدر بنا أن نعدمك رميا بالرصاص على سلوكاتك المريبة وخيانتك المحتملة.

انتفض يصرخ:

- ماذا تريدون مني؟ أنا لم أفعل شيئا تختطفوني من أجله.

- أنت فعلت ما يُجيز إعدامك.

- إذن أخبرني ماذا فعلت؟

رفع الملثم صوته في وجه غسّان:

- أنت خائن ملعون، تستحق لعنة الله، والنبي، والملائكة، والناس أجمعين.

- كل هذا من أجل ماذا؟

- أنت شخصٌ باع وطنه مع ضباط إسرائيل تمدّهم بالمعلومات عن إخوتك الفلسطينيين، ليقتلوهم ويأسروهم في سجونهم المظلمة.

- أنا لم أفعل ما تقوله لي، كلها أباطيل.

قاطع كلامه بصفعة قوية اسقطت نظاراته على الأرض، قائلا له:

- تكلمْ، مع مَن تتخابر؟ وما هو اسمك الحركي؟ ومن هو قائدكم؟ إلا فإن عذابك سيكون أليماً.

بدأ غسّان في الحلف باليمين أنه لا علاقة له بأية جهة، وعرف أن سبب كل ما يحدث له، هي الإشاعة التي انتشرت حول علاقته بالمجندة، وهو الآن معرض للإعدام لمجرد الإشتباه فيه، ولا يمكن أن يعترف بأنه هو القناص لينال ثقة هذه المجموعة، سيصبر على كل الضرب الذي يناله منهم بشكل متداول، لكنه يعترف تحت الضغط الرهيب لساعات طويلة أن يخبرهم أن له علاقة بضابطة مجندة في الجيش، لكنه لن يفعل شيء يسيء للمقاومة يخون به وطنه، لكنهم لم يصدقوه، وانصرفوا من القاعة وتركوا أحدهم يحرسه، وتوعدوه أنه سيعدم في اليوم التالي، لكنه لم يكترث لتهديدهم، هو مستعد للموت في كل الظروف، غير أنه لا يحبّذ أن يقتل بيد فلسطيني، حاول أن يستفز أن يكلم الرجل الملثم الذي يحرسه، لكنه أشار عليه أن لا أبكم، وأنه لا يستطيع التكلم معه.

ظل الجيش الإسرائيلي في حالة تمشيط شامل لكل منطقة يشتبه فيها، والشاباك يحلّل في كلّ المستجدّات، يستقطب كل العملاء، يبحث وراء كل مشتبه فيه حتى يتحقّق من سلامة ملفه، لكن الضابط إياد بحث وراء أولينده، حيث شك في تصرفاتها، فإتصل بأمها وأبلغته علاقتها بالمسعف غسّان الذي تورطت معه في علاقة حب، مما أثار شكوكه في تلك العلاقة، باحثا من البداية عن تطوراتها، وإعتقاله من أجل الإشتباه فيه في سرقة قلادتها ثم الإنفجار الذي كان أحد المصابين فيه أثناء انتظاره لأولينده في لقاء لا تعرفه أمها، إضافة إلى إقامته عندها أسابيع في غياب أمها، ودون علمها.

استفسر إياد في نفسه؛ كإحتمال أن يكون غسان هو القنّاص؟ لقد تعلم من خبرته أنه يجب وضع كل الاحتمالات في الحسبان، طلب التحقيق في شخص غسان دون أن يخبر أولينده، وفي شخصها كذلك،

حتى يتأكّد من سلامة حركاتها، وأنها غير متورّطة في شيء يخالف ولائها لإسرائيل.

وصل إلى أن غسان كان ضابط في الشرطة الفلسطينية مدة بضعة أعوام، ثم أصيب في عينه خلال التدريب فأعفي من مهامه بسبب طبّي، وانتقل بتدخل من مسؤولين في الشرطة إلى العمل في الإسعاف.

وضع إصبعه في فمه يعظه، وهو يتمتم وينظر بتدقيق في أوراق ملف غسّان الذي يحمله، ثم إتصل بفارس ليعرف معلومات غير متوفرة عنه لديهم بحكم عمله معه مدة طويلة، فأخبره شيئا عن شخصيته، بأنه كتوم وغامض، وذكر علاقته بأوليnده التي صار يعرفها الجميع، لكنه أخبره أن هناك إشاعة تتكلم عن اختطافه من مجموعة فلسطينية اليوم، ليجعل الضابط إياد في حيرة من هاته المعلومات المتضاربة، فمرة تتكثف شكوكه ضده لكن الوقائع تبعد الشكوك عنه، بأنه علاقة حبّ بين حبيبين مجنونين فقط، بعد تكثيف للتمشيط تم العثور في تلك الليلة على غسّان والملثم الذي يحرسه، في منزل مهجور، تم الاقتحام من طرف الجيش الاسرائيلي فأصيب الملثم بجروح خطيرة، قام الجيش بنقله إلى المستشفى من أجل الإستفادة من معلوماته، بينما تمكّنوا من تحرير غسّان من قبضتهم.

مما جعل الضابط أياد يزيح غسّان من دائرة شكوكه مؤقتا... لكن يظل مصدر مُهِمٍّ للمعلومات...

لم يكن يتصوّر غسّان أن يكون قد أُنقذ من طرف مَن يحاربهم، لقد تورّط إلى شحمة الأذنين، وسيعتبر لدى كل زملائه في أنحاء فلسطين عميلا دون أدنى شك، غير أن ذلك لا يهم ليأمن جانب الجيش الإسرائيلي نوعا ما، المشكل الوحيد في كل ما جرى أن الأمر سيعقّد له العمليات القادمة، وسيسهلها نوعا ما.

جلست امرأة كبيرة في السنّ على الأريكة المقابلة تضع رِجلا على رجل، تبدو جميلة جدا رغم تقدمها في العمر، عرف أنّها آليس أمّ أولينده بحيث تشبّهها إلى حدٍ بعيد، وقد أخذت منها الجمال وتناسق الجسم، ترتدي قميصا أسودا، إلى ركبتيها، وشعرا يصل إلى كلا كتفيها يشع إصفرارا، وعينين زرقاوين كبيرتين، ووجه منتفخ يشع نظارة، وشفتين كبيرتين، ملوّنين بأحمر شفاه شديد القتامة، وعلى صدرها قلادة من ذهب يتدلّى في آخرها قلب صغير، يلتقي عند مفترق صدرها البارز.

نظرت إلى غسّان تتأمله من رأسه إلى أخمص قدميه، تتأمّل هذا الرجل الذي خطف قلب ابنتها، والرجل الذي أفسد تربيتها، جعلها تحبّ ما تكره، وقد يجعلها تكره ما أحبّت وتلك الكارثة الكبرى، لقد أبعد عنه الشُبهات كثيرا في كونه هو القنّاص، بسبب الأحداث التي جرت له، واشتبه في الشخص الملثم الذي كان يخطفه أنه مرتبط بالقنّاص، الذي لم يستفق الرجل من غيبوبته نتيجة للإصابة الخطيرة، بينما الضابط إياد ينتظره بفارغ الصبر حتى يستطيع الكلام، لكي يستفيد منه ما أمكنه ذلك، والمعلومات التي ذكرها غسّان عن ظروف إعتقاله لن تكون ذات شأنٍ، ما لم تنطبق مع ما قد يقوله المصاب في المستشفى العسكري، فهو لا

يعرف مَن هؤلاء الذين اختطفوه، لا من قريب ولا من بعيد، والشاباك مازال يحقق ليحدّد هوية أحد الخاطفين المقبوض عليهم مُصابا.

شعر غسّان أنه نال بعض الثقة من طرف الإسرائيليين، إذ وجد نفسه أمام آليس منفردان، دون حارس، ربما يكون الحرّاس في مداخل المشفى، لكنها هي الآن أمام فلسطيني دون سلاح وهي لا تحمل سلاحا، لا تخشى على نفسها من سطوته، لكن تعلم أن القتل قد يكون بأي شيء، ليس شرطًا أن يكون بطلقات النحاس أو السّكاكين، هي تعي ذلك جيدا، تجلس في موقف لم تكن تتوقعه طول حياتها، بادرت بسؤاله:

- ماذا تملك أنت حتى تختارك حبيبًا؟عيونها ليست كعيونك، و قلبها ليس كقلبك... أتعلم أنها كانت تكره أي فلسطيني كُرهًا لا حدود له؟

يفكر بعد هذا السؤال الذي كثيرا ما يدور في ذهنه، كأنها تريده أن يكرهها بعد أن شعر أن قلبه أصبح ينبض لأجلها، وكان يريد الإجابة عليها، بقوله:

- أتكره مَن يدافع عن وطنه؟ الذي يدافع عن وطنه يستحق كل الحبّ والاحترام.

لكنه يجيبها قائلا:

- لسوء حظك ولحسن حظها، لقد أحبّت بدل أن تكره.

قاطعته:

-...لكن لحُسْنِ حظك أنتَ كذلك.

- أين حسن الحظ؟ منذ يوم بداية علاقتنا والمشاكل تقع على رأسي تباعًا.

- أحقًا تُحبّها كما تحبّك؟

سؤال طرحته أولينده نفسها على غسّان أكثر من مرة حتى تضمن بقاءه معها، وكانت الإجابات تقنعها في حينها، ولا تقنعها حين ترتدي الزي العسكري كأنها تلبس شخصية أخرى، أو تركّب قلبا وعقلا آخر، علاقاتها مع غسان انعكست على ما تفعله مع الفلسطينيين، اختلف تصرفها في الحواجز، وهذا ما لاحظه رفقاؤها، أصبحت أكثر لينا من ذي قبل، اللّين تلك الصفة التي تتناقض مع صرامة العسكري..

رد غسّان على آليس:

- هذه هي الحقيقة للأسف.

- ولماذا تتأسف؟

- لأني أستجوب من أجل الحبّ.

- هذا ليس استجواب، إنه مجرد حوارٌ صريح، أما فيما يخصّ الحبّ نصحتُ أولينده ألا تفعل.

أطلق ضحكة خفيفة وأجاب:

- وهل ينفع النصح في مثل هذه الأمور؟

- صحيح.. لا ينفع.

أبدت آليس اعجابا بنظراته الحادة، وبكلماته الصلبة، النصح لين في هذه الأحوال، والأمر لا يفيد، ليس المجال عسكريًا، ولكنه مجال يفقد فيه الناس رجاحة عقولهم، كما فقدت أولينده رجاحة عقلها.

سألها عن أولينده، فأخبرته أنها في حالة هيسترية لا تريد أن تقابل أحدا، حتى الطبيب النفسي رفضت استقباله، وطردته أكثر من مرة، وأصبحت تتعاطى المخدّرات وأدمنت كل الهلوسات الممكنة، لم تنفع معها لا النصائح ولا الأوامر ولا التهديدات، لا تخرج من غرفتها إلا للحمام، تغلق الباب على نفسها، وتمتنع عن لقاء أي زائر، لكنها أخبرته أنها تمكّنت

من صنع مفتاح مشابه لقفل الغرفة، وأنها لن تثير غضبها باقتحام غرفتها، ولن تتشجّع بالدخول إليها إلا بمرافقته، وهو الشيء الذي يعد تنازلا منها نحو الفلسطيني، حدث ذلك دون رغبتها، فقط لأنها تحب ابنتها لكي تعود كما كانت، أقنعته أن يذهب إليها بعد أن يتعافى، فلم يمانع في الذهاب إليها، رغم أنه قطع معها العلاقة، لكنها تأثرت بذلك الانقطاع، حتى عرّضت نفسها للموت.

فتحت آليس باب غرفة أوليندره بهدوء شديد، وكان غسّان يقف مترقّبًا وراءها، طلبت منه همسا أن يدخل إليها أولاً، خطى خطوة داخل الغرفة المظلمة حتى رآها في حالة يُرثى لها، شمّ روائح المخدرات فتزكّم أنفه، كانت مستلقية على ظهرها على فراشها، وعلى جانبيها أقراص دواء مختلفة الألوان والأشكال، لا تلبس إلا قميص نوم، شعرها مسدول عل كتفيها من كل الجهتين، وعيناها محمرّتان ومنتفختان، وكأنها في حالة إغماء ووجهها شديد الأصفر، تبدو كأنها وردة ذابلة على شفا الموت، رفعت رأسها نحوه تنظر إليه، أطالت النظر إليه، لا يعرف إن كانت قد عرفته، حيث لم يرمش لها جفن، ولمّا خاطبها لم تجبه، كانت لاتزال تنظر إليه دون إجابة، ثم تدخّلت أمّها تقول لها:

- اوليندره إنه غسّان أتى للإطمئنان عليك.

لكن أوليندره كانت في عالم آخر، ترى غير ما يريا، تأكّدا أنها في غير وعيها، إنها في عالم مظلم، اقترح غسّان على أمها أن تأتي بالطبيب ويساعده في معالجتها، كأن يقدم له الأدوية، وهو يقوم بإقناعها بتناوله، وسيفعل ما يقوله له، حتى تتحسّن حالتها، وتستفيق من نوبة الحزن التي أصابتها حينما طلب غسان منها الإفتراق آخر مرة، لكن آليس جلبته لتقنعه بأنه هو الحل المناسب، لتتحسّن أوليندره من حالتها المزرية.

أثناء وجود غسان في فيلا آليس، مشّط الجيش كل الأماكن المشتبه فيها، ولم يخرج استنطاق الملثم عن أي نتائج، حيث اكتشفوا أنه أخرس لا يمكنه أن يتكلم رغم محاولات استنطاقه، أو أن يُفيد في أي شيء، فزجّ في السجن، وكأنها خطة من المجموعة لكي تأمن على نفسها من أية معلومات تتسرب إليهم اذا كُشِف مكانه، لكن فارس واصل البحث عن أي معلومة عن القنّاص، فتّش المستشفى في جميع أروقتها وقاعاتها، يثير موضوعه كلما إلتقى بأيّ شخص لعله يستفيد مما قد يتسرّب منه.

في ليلة من اللّيالي، وبينما يقوم فارس بتنظيف سيّارة الإسعاف التي يعمل فيها غالبا، لاحظ في ركن من أركان المرأب أن البلاط غير متناسق، فاقترب منه، وبدأ بالطقطقة بيده عليه، ليتصنّت إلى أن صوته يدل على أنه فارغ من الداخل، تحسسه لمساً حتى اكتشف أنه موضوع حديثا فقط، فاستعمل مفتاحه ليرفع البلاطة التي تبدو غير ملتصقة تماماً مع التي تجاورها، فاقتلعها بصعوبة من مكانها، ووجد كيسا من البلاستيك مستطيل الشكل ملفوف في قماش سميك، وعندما فتح الكيس والقماش انبهر من عثوره على بندقية قنص، فأصابه الذعر من منظرها، ليُعيد كل شيء إلى مكانه، ثم هرول سريعا يتصل بالضابط إياد كي يخبره عما عثر عليه، وما يمكنه أن يفعله، فأبلغه بأن لا يلمس أي شيءٍ حتى يلتحق به مع شخص في أقرب وقت من الآن، وظلّ يتجوّل حول المكان، يتنقل إلى مدخل المستشفى ويتجوّل في محيطه، منتظرا قدوم إياد متخفياً مع مرافقه، لكن تحركاته أثارت انتباه أحد أعوان أمن المدخل، الذي استغرب حركته الدؤوبة، وزاد استغرابه عندما لاحظ أنه استقبل شخصان اثنان بزي أطباء دون أن يعرفهما، ظلّ يراقبهم من بعيد، وهم يتوجّهون نحو

المرأب، قام إيّاد بمعاينة البندقية مع رفيقه الذي أتى معه، فاكتشفوا أنها تطابق مواصفات البندقية التي يستعملها القنّاص.

غضب إياد عندما أخبره أنه لمسها من كل جانب، وانطمست كل البصمات الأصلية، وهو الذي أوصاه أن لا يلمس شيئا، سوى أنه أمره بأن يراقب المكان جيدا، وأن يبقي الأمر سرًا، انصرفوا من المكان بعد أن وضعوا كاميرات دقيقة جدا موجّهة إلى مكان إخفاء البندقية، وبعد أن نزعوا الإبرة من داخلها، دون أن يكتشف غسان ما فعلاه، إذ كان هو يحرس لهما المكان.

وعندما انصرفوا، تصرّف الحارس بعدم رؤيتهم أو تعقّبهم بل لا مبالاته بهم، لكنه في حقيقة الأمر تفقّد المكان الذي تواجدوا فيه، وقرّر أن يخبر المدير بما رأى حتّى يخلي مسؤوليته، فأسرع نحوه يخبره بعد أن أغلق الباب على نفسيهما، ثم طلب منه أن يُبقي الأمر سرا، حتى تقل الحركة تماما، ويترك شريف محيط المرأب، ويتجه إلى مكان آخر، ولمّا ذهبا إلى نفس المكان الذي تواجد فيه فارس والمجهولان فعثرا البندقية، جاء في ذهنهما أن فارس هو ذلك الرجل الوطني؛ أنه هو القنّاص، وهو الذي ينتقم لموت أمه التي حزن لها كثيرا، وهو الذي طالما شتم المحتلّ، وكان يكثر من ذكر بطولات القنّاص، ويوزع الأعلام للشباب ويحرّضهم على المقاومة والنضال، أبدى المدير اعجابه بشخصيته، لطالما كان جميل يكره الخونة أمثال غسّان وعلاقاته المشبوهة، طلب من حارس الأمن أن يراقب المكان من بعيد، حتى يعرف ما سيفعله في هذه الورطة التي لم يكن يتوقعها، لكن لم يطلع شمس اليوم حتى انقض جنود الجيش الإسرائيلي على المدير وحارس الأمن، بعد أن سجلتهم الكاميرات وهم يتفقّدون مكان البندقية، وعند استجوابهم من طرف الضابط إياد، ذكر الحارس أن لا

علاقة له بالبندقية، وأن فارس هو من يعرف حقيقتها، وبمثل ذلك ردّ المدير، تيقن إياد بأنّ المدير رجلٌ مسنّ ولا يمكن أن يكون سريع الحركة، ولا يخرج من مكتبه في غالب الأحوال، بينما حارس الأمن مبتور اليد اليسرى، ولا يمكن أن يقوم بعملية القنْص، لكنهما اعترفا أن فارس لا أحد بمثل وطنيته. لقد أُستعِبد كل الأشخاص عن هذه التهمة، وكون البندقية وجدت في مرأب المستشفى فهو شخص يخرج دائما للميدان ويستعمل سيارة الإسعاف كتمويه لعملياته، انتبه إيّاد لفرضية لم يضعها في الحسبان؛ لماذا لا يكون فارس هو القناص؟ ربما يعمل عميلا مزدوجا، سمع أنه حزن جدا عندما ماتت أمه من مرض السرطان وعدم تمكنها من العلاج في تل أبيب، وها هو الآن ينتقم من الإسرائيليين كلهم، قبل ذلك انتشرت شكوك في المستشفى عن كونه هو القناص، بعدما تسرب الخبر في كل مكان، شعر فارس بالخطر، وتمكّن الشك في عقل إياد، على أن عميله يراوغه، وهو السبب الذي جعلهم لم يتمكّنوا من القبض على القناص المطلوب نتيجة حيل السائق فارس.

أصبح الناس ينادونه في محيط بعد أن شاع أنه هو القنّاص، يهتفون في كل مكان:

- بالروح بالدم نفديك يا فارس، الموت... الموت للخونة...

قًبِض على فارس واستجوبه إياد محاولا إثبات التهمة عليه بانتزاع اعتراف منه من خلال التعذيب، لأنّه هو الشخص الذي كان دائما في ساحة الجريمة في كل العمليات، عندما وجد أن كل تواريخ القنص كانت أثناء وجوده في الساحة، ليصبح غسّان خارج دائرة تفكير وعيون الشاباك، أقسم فارس اليمين لضباط الشاباك أنه كان وفيا لإسرائيل، وأنه

كان دائم الاتصال بهم حتى وجد البندقية، وأنه لم يكن ليجدها لولا بحثه الحثيث.

بعد مضي أيام طويلة في الحجز والتعذيب، صار فارس يلعن في اليوم الذي قرر فيه أن يبدأ به التعاون مع إيّاد، كيف أنه يشك فيه رغم كل المعلومات التي قدمها له سابقا؟ لقد اقتنع متأخرا أن الخيانة غير مقنعة لمن يستفيد منها، وسيظل الخائن خائنا حتى عند الذين يستفيدون من خيانته، وسيطلقون رصاصة في قلبه في آخر المطاف.

قرّر إياد مع ضباط الشاباك أن يفرج عنهم جميعا بعد أن رسم خطة جديدة مُحكمة، يستطيع من خلالها أن يظفر برأس القنّاص.

كانت أوليندة تنظر إلى غسان كأنه وهم أو شبحٌ، يمدّها بالدواء الذي يعطيه لها الطبيب، ويمنع عنها كل ما يخبره به، كان لا أحد يدخل معه إلى غرفتها، وعندما تنام يخرج إلى غرفته، بدأت تتحسّن يوما بعد يوم، ثم شرعت في الأكل شيئا فشيئا، اغتبطت آليس لذلك، لكنها تأكّدت من جنون ابنتها به.

في منتصف ليلة من الليالي بعد أن خرج من غرفة أوليندة، طُرق بابه، وإذا هي آليس بلباس نوم قصير، تضع مختلف مساحيق التجميل، تغطي وجهها وكأنها آليس وقد أنقصت سنينًا من عمرها، تركت شعرها الأصفر ينسدل على كتفيها، اختلطت رائحتها بين الكحول والعطر الهادئ. تستأذنه للدخول في الغرفة التي خصصتها له، جلست على كرسي يواجه سريره، في حركة إغراء واضحة أدركها غسّان؛ عندما وضعت مرة أخرى رِجلاً على رِجلٍ حتى تكشّف منتصف فخذها، تضع بين أصابعها سيجارة يتصاعد منها الدخان، بينما هو مستلقٍ على حافة السرير، وكان لايزال يرتدي نعله، فقالت له:

- جئتُ أشكرك على مساعدتك في إنقاذ أولينده.

يعلم أنها مجرد تبرير للدخول، كان يمكن أن تقولها في بهو الفيلا أو في أي مكان آخر، ولكن يبدو أن النوم قد سُرِق منها وأصابها الأرق لاشتهائها شيئا ما.

أردفت دون أن يجيبها:

- متأسفة أنا على اقتحامي لغرفتك، غير أنه قد أصابني الأرق، وجئتك ربّما للحديث معك، فقد سيجعلني ذلك أنعس قليلا.

- لا عليك، الغرفة غرفتك، وما أنا إلا متطفّل في بيتكما.

صمتت قليلا، ثم قالت:

- لم أكن أتخيّل يوما ما أني أحادث فلسطينيا في بيتي مباشرة دون حاجز، وفوق كل ذلك عشيق لابنتي.

قاطعها:

-...وفوق كل ذلك يعالجها...!

ابتسمت قائلة:

-ههه...صح، إنه أمرٌ غريب...!!

-صح إنه أمر غريب، حتى أنا لم أتخيّل ذلك، بل كل العالم لا يتخيّل ذلك.

تغيرت نظْرتها، وإعتدلت مرة أخرى في جلستها، قائلة:

- هل تحبّ اولينده حقاً؟

- أظنّه سؤال ليس في محلّه، ألا ترين أنّي أعتني بها؟

- ليس شرطا أن يكون الاعتناء دليل حبّ، لقد عالجتها سابقا دون أن تحبّها.

- صحيح، كان الأمر حينها اضطرارا وليس حبا، كنتُ مجبرا وخائفا من أفواه البنادق على رأسي، لكن الآن لست مضطرا لفعل أيّ شيء، لولا أنني أحبّها.

- الحقيقة، أنها أحبّتك فوق كل تصوّر، اتصلتُ بكافة أصدقائها لكي يخفّفوا عنها بعض ما أصابها، لكنها لم ترغب في مقابلة أحد، لقد عارضتها في البداية لكني شعرت بآلامها وخفت على سلامتها، وأخيرا طلبتُ مجيئك هنا لكي أخفّف عنها.

لم يجبها، حتى أردفت سؤالا آخر:

- أتحبّ مَنْ يوجّه بندقية في وجهك؟

السؤال الذي كان يتردّد على مسامعه في كل مكان، كان يسأله زملائه في العمل، ويسأله بعض الناس في نظراتهم، والجواب بكل تأكيد؛ أن الحبّ لا يؤمن بالقواعد ولا المنطق ولا السياسة، فقد تحبّ من يقتلك حقيقة، قد تحبّ من يعذبك، قد تحبّ من يذبحك، قد تحبّ عدوك اللدود الذي يسرق أرضك، ويسلبك أعز ما تملك، الحب جنون في بعض تجلياته.

غير أنّ السؤال الذي يجب أن يطرح هو؛ لماذا يجب أن نحبّ بدل أن نكره؟

لقد أجابها عن سؤالها بسؤال:

- المفترض هو أن تسألي لماذا؟ لماذا نحبّ من يحمل في وجوهنا بندقية، قد تقتلنا يوما ما؟ والمفاجأة أن الحبّ لا يجيب عن الأسئلة، بل يطرحها، ولا أحد يجيب عليها، حتى العاشق الذي يعيش التناقض لا يفعل، يمكنك سؤال ابنتك؛ لماذا هي في حالة هستيرية مرضية، قد لا تحدث لها حتى في غيابك أنتِ؟ ألم تكن تكره كل من له علاقة بفلسطين؟ الآن تغيرت أحاسيسها دون سبب قوي، أو ربما بسببٍ تافه،

لكن الحب ليس سببا تافهًا، قد تكون بدايته نظرات عابرة، صنعت في القلب شحنة حب تدوم طول العمر، وربما تعرفي هذه الأمور أكثر منّي.

ابتسمت، ثم قالت:

- نعم أسمع الكثير عنه، إذًا الحبّ حسبك لا علاقة له بالواقع.

- بل قولي أنه لا علاقة للحبّ بالجانب المظلم من الواقع...

- حسنا، لماذا لم تغيّر جنسيتك، وتتحرك ببطاقة هوية فقط؟

- وهل تغيير الجنسية تغير تصرفكم اتجاهنا، سنبقى فلسطينيين حتى ولو غيّر جلودنا، أبي وغيره والكثير مثله، تجنسوا بالجنسية الإسرائيلية دون أن يغير ذلك من الواقع شيئا.

انتقلت من الكرسي وجلست قربه على حافة السرير من الجهة الأخرى، نظرت إليه نظرة تأمل وكأنها تلمسه بعينيها من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، دون أن تتكلم شيئا، وكأنها تقول له، أنها تريد أن تخطفه من ابنتها، كانت نظرة اعجاب، تلمس يديها نحو ركبته، اقتربت منه بهدوء تجسّ نبضه، تحاول أن تقضي بقية الليل على سريره، فقد أخبرته أنها تعاني الوحدة، وأن حياتها كانت بلا حبّ رغم كل الرجال الذين تعرفت عليهم، لكنها لم تجد القلب الذي يحتويها، كانت حياتها ضائعة دون أن تجد بوصلتها، كانت تتكلم معه وهي تقترب منه كل مرة، إلا أنه انتفض من مكانه وقد فهم قصدها، فخرج إلى باب الغرفة، يُخيّرها بين أن يبقى يساعدها في تعافي ابنتها، أو أنه سيخرج من هذا المنزل الليلة نهائيا، تأكدتْ أنه يرفض قضاء الليلة معها، فخرجت من غرفته وهي تنظر إليها نظرة غضب لإهانته لها، امتص غضبها ضغط حالة ابنتها التي بدأت تتحسن شيئا مع مرور الأيام والليالي، لم يحدث لها أن طردها أحدهم من بيتها، وحدث أن طردت هي الناس من بيوتهم أثناء عملها في الموساد.

استمرّ غسان في تقديم الدواء لها، وفي سحب حبوب المخدرات عنها بالتدريج، بدأت أوليندا تتأكد أن غسّان بين يديها، لم يكن وهمًا كما كانت تتخيل، لمس يديها الرقيقتين بهدوء.

فجأة قرصتْ فخذها لتتأكّد، وقالت له مبتسمة:

- إنك حقيقة، أنت غسّان بشحمه ولحمه.

- نعم أنا غسّان كما تريدي أن يكون غسّان.

تطلّع إلى الندبة على رقبتها، ثم قال:

- ألم تشف الندبة؟

أجابت مبتسمة:

- لن أعالجها سأتركها هكذا.

- إذًا تريدين توريطي إلى الأبد؟

- تلك أمنيتي.

- إذًا فليكن ذلك...

أطلق ضحكة طويلة، حتى قاطعته:

-كنت أظنّك وهمًا، أو بطلا في رواية.

ابتسم، وردّ:

- وما نحن إلا أبطال روايات، نبدأ حين تبدأ صفحاته، وتنتهي...

قاطعته، واضعة كفّها على شفتيه:

- لا تكمل، دعني أعيش وهم اللحظة...

كفّ عن الكلام، ولم يبادر بكلام يدلّ على إنتهاء العلاقة، كان حريصا على أن تُشفى تماما، وتعود إلى حياتها الطبيعية، وما إن عادت حتى خرجا نحو قلبِ البحر حيث تحبّ، وحيث هو يعشق، كانت لحظات لم تتخيلها رفقته، شعرت أنها روحها قد تلبّستها مرة أخرى، لم يخبرها عن

محاولات أمها استدراجه، كان يعتقد أنها تعلم أن أمها تفعل كل شيء مقزّز.

أطلق سراح المدير وحارس الأمن تحت شرط الإقامة الإجبارية في مسكنهم دون الإتصال بالعالم الخارجي، ثم أطلق سراح فارس لعدم كفاية الأدلة، وعاد إلى العمل في المستشفى كما عاد كذلك غسّان، ومازالت أحداث الانتفاضة في تصاعد، لكن الشاباك مازال يفتح كل الاحتمالات مرات ويغيّرها مرات أخرى، وسخّر جميع إمكاناته الإستخباراتية لمراقبة كل المُطلق سراحهم، وكل سوّاق سيارات الإسعاف وجميع المسعفين، في انتظار أي دليل ضد أحدهم بأنه القنّاص الحقيقي، أو في انتظار عملية أخرى يترك فيها دليلا عليه، العملية التي يتمنى الشاباك أن تكون فاشلة.

غادر غسّان تل أبيب متوجّها نحو أبيه، فوجده مريضا، غير أنه أخفى عليه كل ما حدث لكيلا يزعجه، اختلق له قصصا لا علاقة لها بالواقع، كان لا يخبره بأي شيء، حتى البندقية التي سألها عنه، لم يخبره عن ضياعها، كان يريد أن يتركه في مأمن من كل مسائلة، يعلم أن الشاباك وعملائه يعملون بأقصى امكانياتهم من أجل القبض عليه.

لم ينفعهم تتبع الرقم التسلسلي للبندقية إلى شيء جديد، وعندما أطلق سراح فارس إستقبل إستقبال الأبطال، كان يطلب من كل شخص يناديه بالقناص أن لا يعيد ذكر هذا اللقب لكيلا يورّطه أكثر، لكن في قرارة نفسه يشعر بالاغتباط من هذا اللقب الذي جعله يتحرك بين أورقة المستشفى شامخ الرأس، في زهو وافتخار، رغم آثار التعذيب التي ظهرت عليه، مع ما وجد من إكرام من زملائه وكل معارفه، ومن عائلته...

في خضم فرحتها قالت له ابنته مها بصوتٍ عالٍ:

- أنا افتخر بك يا أبي...!

اقشعر بدن فارس من هذه الجملة، كأن طعنة خنجر اخترقت صدره...

بعد يومين من اطلاق سراح فارس، اتصلت أولينده بغسان؛ تخبره بأنها سعيدة جدا، لأن الجيش الإسرائيلي قد قتل القنّاص.

التقى إيّاد غسّان هذه المرة ليس كمحقق، ولكن كمستضافين في حفلة واحدة دعتهما فيه أولينده مع بعض أصدقائها، في الفيلا التي تقيم فيها، أصبح غسّان مؤتمنًا من طرف إيـّاد والعسكريين من معارفها، لقد أبعدت تهمة القناص عنه، حيث تكاد أولينده لا تفارقه، انبهر بالقلادة التي ترتديها، تلك التي إتهم بسرقتها، مازحها أنه لو رآها لسرقها حقاً. كانت لا تسحب يديها من تحت إبطه كأنها تستبقيه عندها، لا تريد أن تتجوّل بدونه، وهي تقدّمه لكل الضيوف الواحد تلو الآخر، غير أنه كان يفكّر؛ كيف قتل فارس بدلاً منه؟ لكن الذي أخبره به إيـّاد بشكل مقتضب أن فارس كان يدّعي التعاون معهم لكنه في حقيقة الأمر كان مُخادعا وقتل بعض جنودهم، كان عميلاً مزدوجًا حسبه، إذ كان يعمل معهم لكنه فعليًا كان يعمل ضدهم في الخفاء، يستعمل سيارة الإسعاف كغطاء حتى لا يتمّ تفتيشه، لقد نزعوا الابرة من البندقية التي كان يستعملها حتى لا يقتنص أحدا في المرة الأخيرة، ونجحت الخطة في استهدافه، لقد ملأوا المكان سماءً وأرضًا بالكاميرات، وبصاروخ موجه نثر جسده أشلاء فوق التلال، كانت عملية أنقذت الجنود من غدره، كما أنقذت رئيس الشاباك من السقوط أيضا.

حاول غسان أن يتخيّل فارس الذي كان كثيرا ما يتعارك معه، أكان خائنا ثم أراد أن يكفّر عن خطأه الفضيع؟ فقدم روحه فداء للوطن الذي خانه؟ ويتساءل في نفس الوقت؛ أيقبل الوطن توبة الخيانة في الوقت الضائع؟

أراد إيّـاد أن يكسب صداقة غسّان عندما أخبره بعض الأسرار، من أن الشاباك بحاجة لأصدقاء مثله، عارضًا عليه التعاون معهم، لكن لم

يجبه لا بالإيجاب ولا بالسلب، سوى أنه كان مازحا معه، أُعجب إياد بشخصيته وتفتّحه، ولا يزال يحمل شكّاً نحوه؛ كيف أن غسان لم يكتشف حركات فارس؟ و لم يذكر شيء من تحركاته المريبة، ما عدا ما قاله بأن فارس كان كثير الحركة بين المتظاهرين، لا يكاد يثبت قرب السيارة، وأنه كان يتغلّغل بين الناس، يحمل الأعلام، ويوزّعها على الشباب.

ليردّ إيّاد على كلامه، قائلا:

- صحيح...صحيح...

فهم غسّان من قصة فارس، أنه حدث له شيءٌ ما، جعله يفكّر في اقتناص جندي إسرائيلي، بعد أن صحا ضميره في لحظة ما، ولكنه تحوّل إلى كمشة أشلاء تناثرت في السماء، فانفجرت أجزاء البندقية معه. فكّر أن العملية القادمة ستكون مُعقّدة رغم إعتقاد الجميع أنهم اقتنصوا القنّاص، الآن أمامه كثيرا من الضباط الاسرائيليين كأهداف محتملة، لكن بأيّ شكل ستكون العملية.

نظر إياد إلى غسان مع أوليندە، ثم قال لهما مبتسما:

- تذكّرني علاقتكما بعلاقة محمود درويش بحبيبته الإسرائيلية.

أصيبت أوليندە بالذعر، حتى أحسّ غسان بذلك، فلفّت يديها حوله، كأنه يطمئنها أن علاقتهما أمرٌ مختلف، فقال له:

- لستُ محمود درويش، وليست هي حبيبته.

حدّق فيه إيّاد، كأنه يشكك في كلامه، لكن غسان أحكم قبضته حول أوليندە ردا عليه، بينما هي تتمنّى أن يقبض أكثر على ذراعها ويحتضنها إلى الأبد، لتزيد طمأنينة وأمانا وثقة في مشاعره.

في ركن بعيد من القاعة الكبيرة التي تكتظّ بالضيوف؛ يجلس شيخٌ نحيل جدا، لا تتحرّك إلا عيونه بصعوبة يمينا وشمالا، يسيل من فمه

لعاب يتقاطر أحيانا على حِجره، أو على يديه التي لا يستطيع تحريكها، ولمّا رأت أولينده تركيز غسّان على ذلك الشيخ، أخبرته ان ذلك الشخص هو عمّ آليس المدعو أديسون، وأنه مريض مرضًا جعله لا يتكلّم، ولا يتحرك، ولا يفعل شيئا دون أن يساعده أحد، منذ أن أصيب بطعنة في أعصابه من قبل احد النازيين المتخفين في ألمانيا فأثرت على صحة جهازه العصبي.

إلا أن آليس لم تقصّ على ابنتها القصة الحقيقية، بأنها هي من حاولت قتل عمّها في حالة غضب انتابتها عندما أراد الإعتداء عليها جنسيًا كالعادة، لكنها في آخر الأمر ألصقت التهمة في نازي مجهول فر من مكان محاولة قتله لعمّها، كان ما أثار غضبها، هو أنه قبل أن يعتدي عليها، وقد أفرك في استهلاك الخمر حتى لعب برأسه، فاعترف لها أنه هو من استولى على ثروة أبيها دافيد، وهو من قتله لأنه كان يرفض الهجرة إلى فلسطين بل كان يعارض ذلك تماما كلّ أفكاره، وهو الكلام الذي كان معاكسا لما كان يقوله لها منذ أن كانت شابة، فطعنته في كل أجزاء جسده تحاول القضاء عليه، لتتركه كجثة هامدة تنزف دمًا، لكن إسعافه المبكر تمكّن من إبقائه حيّاً، وربما هذه الحالة ادعى للتشفّي من قتله.

عاد غسّان إلى أبيه بعد الحفلة، وخلال لقاءه به كان يتحاشى أسئلته؛ وعن غيابه الذي طال دون تبرير، وعن التفتيش الذي قام به أفراد الشرطة، وهنا تيقن أنه مازال محط شكوكهم، فالأسئلة تتكاثر ولا أحد يجيب عنها، الكلام المطمئن الذي يسمعه أبو خالد من ابنه، صار لا يفيد في مراوغة ظنونه، فقال له:

- صارحني يا غسان عما يحدث في حياتك، أشعر أن كل الناس تعلم عنك كل شيء، إلا أنا فلا أعرف شيئا عن ابني الذي يزورني ويكلّمني دون

أن يصارحني بشيء، أصبحتَ كالغريب عني، بل قد سمعت كلاما لا يليق بك.

- حسنا، أبي اطمئنْ، أنا بخير، ولست خائنا كما يقولون.

- أتعتقد أني قد خرِفتُ، نورّني، فإن ظنوني قد قتلتني، ارحمني يا بني.

- لا تغضب يا أبي...

علا صراخ أبو خالد حتى بدأ بالسعال، ردّ عليه:

- لا تقلّي لا تغضب، أنا أسمع أنك خائن تتعامل مع الصهاينة، لا يعني أني متجنس بالجنسية الإسرائيلية فتصبح أنت خائن، أنا لست خائنا لوطني.

- يا أبي أنا لست خائنا، فقط لا أريد أن أقلقك، ألا يكفي ما فعلته؟

- بل أقلقني، تقلقني أكثر عندما لا تخبرني بشيء، لا أفهم شيئا من حياتك، كأنّي لستُ والدك.

- قد يضرّك أن أخبرك بكل شيء.

- تكلمْ، أنا لا أعبأ بشيءٍ.

صمت قليلاً، ثم حكى له كل شيء، منذ البداية، وخلال حديثه امتزجت الدموع بالابتسامات، كان فرحا ايّما فرح بما يسمع، كان متأكد أن ابنه شبلٌ من أسود؛ يقصد أجداده، الذي لم يحققه هو استطاع هو أن يحققه، احتضنه باكيا بكاء المغتبط، تأكد أن ابنه يسير في الاتجاه الصحيح، اتجاه جده أحمد وأبيه عثمان، سلالة تنجب بطلاً تلو البطل.

فرح غسان لردّة فعل أبيه، لم يتوقع كل هذا الفرح المختزن في قلب أبيه، مشاعر الفرح التي قد تتحوّل إلى حزن في أية لحظة من اللحظات، لكن سيبقى فرحا لا يعبأ بأي حزن مفاجئ قد يأتي بعده...!!

أخبر أباه عن فقدانه للبندقية، وهو بدون السلاح لن يستطيع أن يكمل مسيرته التي بدأها الأجداد، غير أن الأب حلّ له هذه الإشكالية عندما طلب منه أن يمهله يومين حتى يدبّر له أمرها، لأنه لا يريد أن يُشرك غيره في عملياته لا من قريب ولا من بعيد، وهذا ما أوصى به أباه أن يبقي الأمر بينهما فقط، لكن أمر تدبير البندقية قضية لا مفر منها في القريب العاجل، فرصة مواتية حيث يعتقد الإسرائيليون أنهم قد قضوا على القناص، ليكسر احتفالهم ويفاجئهم في عملية أخرى، الشيء الوحيد الذي طلب أبو خالد من ابنه التخطيط له هو أمر نقلها فقط، وهو الشيء الذي يستطيع فعله الآن أكثر من أي وقت مضى لوثوق ضباط الجيش فيه، حيث سيستعمل أولينده كغطاء لمروره عبر الحواجز دون تفتيش بخطّة محكمة.

دل أبو خالد غسّان على تاجر في القدس يبيع مستلزمات الصيد، هو ابن أحمد المسيحي أحد أصدقاء والده عثمان، وكان من ضمن العتاد بندقية قنص مفكّكة مخبئة بين أجهزة الصيد مع ذخيرتها، طلب غسان من أوليندة على أن يقوما بجولة تبدأ من القدس إلى يافا حيث يلتقيان بأبيه في شاطئ البحر، بهدف تعريفهما ببعض، وضع المعدات في سيارة أوليندة الخاصة، وقد طلب منها أن تفتشها إذا أرادت، ابتسمت له وهي تنظر إلى المعدات الملفوفة في أقمشة من كتان وصناديق بلاستيك، فقالت له:

-أتمزح يا غسّان؟ أأفتش المعدات أم أفتش قلبك؟ أنا أريد أن افتّش قلبك الذي ينبض بين صدرك.

ابتسم غسّان مطمئناً لردّها، وانطلقا معاً نحو يافا، وكلّما مرّا من حاجزٍ، قدّمت أوليندة بطاقتها حتى لا يتمّ ازعاجها، حتى وصلا إلى يافا،

حيث وجدا والد غسّان ينتظرهما حسبما اتفقا عليه، عرض أبو خالد عليها كوب من الشاي الأخضر الذي صنعه بيديه، ثم اقترح عليهما جولة في عرض البحر، ولمّا ابتعدوا عن اليابسة، أيقن غسان أن أوليندة في عالم آخر مادامت قد غادرت معهما في مكان بعيد عن الأنظار، في عرض البحر بحيث يمكن قتلها بسهولة ورميها في البحر دون أن يكتشف أحد ذلك، لقد زال عنها تفكيرها العسكري، إنها في قمة العمى نتيجة كونها في قمة الحبّ، لو تذكرت أو تعقلت لاكتشفت فجأة أنها بين يدي رجلين أتت من ألمانيا للتضييق عليهما، وهي الآن في قبضتهما دون سلاح ودون حماية، لكن أبو خالد وغسّان لم يدعاها تفكر في ذلك، كانت حكايات أبو خالد لا تتوقف عن أسرار البحر وحياة الأسماك، عن مهارته خلال حياته في اصطياد السمك، لم تشعر أوليندة بأنها غريبة بينهما، وعندما عادا إلى الشاطئ وافترقت أوليندة عن غسّان، أصابها الذعر فجأة وكأنها عقلها عاد لها؛ كيف تشجّعت في الإبحار مع شخصين غريبين عنها بل هما فلسطينيين المفترض أنهما عدوان لها؟ فكّرت أنها كانا يستطيعا حينها رميها في البحر، لقد ابتعدت عن احترازاتها التي تعلمتها خلال التدريب، بأن لا تثق في أحد، والآن لقد تجاوزت كل الاحترازات، حتى فقدت صفة العسكري الذي يجب أن يحذر من كل شيء، وتناست التنبيهات التي أوصاها به إيّاد، لقد غرقت في الحبّ دون رجوع، كانت صيدا ثمينا لهما، وحينما لم يؤذيانها بشيء، فقد أصبحت صيدا أكثر قيمة، أكثر حتى من صيدها خلال تلك الرحلة النادرة.

أصبح غسّان يفكر في كيفية إتمام العملية التالية دون أن يُكشف أمره، خصوصًا بعد أن شعر بأن الجيش قد اقتنع أن القناص قد قتل فعلا، لكن لا يريد أن يستمر في نفس الخطة التي كان يستعملها في عملياته

الأولى، فسيارات الإسعاف أصبحت محل شك، وتتعرض للتفتيش الدقيق كلما مرت على حاجز أمني، ووجود أولينده لحمايته ليس بالأمر المضمون دائما، فقد تتغير قبل أن يصل إليها، وقد يأتي أكثر منها رتبة فيقوم بتفتيشه، لذا وجب التفكير جيدا قبل المجازفة.

بعد عودة أولينده من رحلتها مع غسان استدعاها الضابط إيّاد إلى مكتبه للتحقيق معها، وقد وجدت في مكتبه عسكريان بزيّهم الرسمي، وفي الجهة المقابلة وجدت أمها، ولمّا سألها إياد قائلا:

- أين غبت ليلة البارحة؟

- إنها حياتي الشخصية لا دخل لأحدٍ فيها، ولا يمكنني أن أجيب عن كل الأسئلة الخاصة.

لكن آليس قاطعته، وهي تصرخ:

-نحن نعلم أنك كنت تتسكّعين مع ذلك المدعو غسّان.

ردّت أولينده بصراخ أعلى:

-وماذا في ذلك؟ أنتم كلكم تعلمون علاقتي به، وأنه بريء من كل شكوككم.

ردّ إيّاد بحسمٍ:

- لكن لا يعني ذلك أن يجتاز الحواجز دون تفتيش.

تذكرت أولينده أن لا حاجز سمحت له بتفتيشها، بحكم كونها ضابطة في الجيش، لكنها استجمعت قواها وشجاعتها، لتقول له:

- وماذا في ذلك؟ ألست ضابطة في الجيش الإسرائيلي، لي امتيازات كما لكم.

أجاب إياد:

- لو كنت وحدكِ، لما كان هذا النقاش أصلاً، لكن أن تجتازي الحاجز دون تفتيش رفقة شخص فلسطيني، فهذا يسمى هذا استهتار بالأمن الوطني.

صمت قليلا، ثم أضاف:

- أجيبي بصدق، وهذا شهادة ستسألين عنها مستقبلا، هل فتشتي ما كان ينقله في سيارتك؟

تردّدت في الإجابة، حتى قالت:

- نعم... نعم، لقد فتّشته، كانت مجرد معدّات صيد لأبيه الذي هو مواطن إسرائيلي.

قام من مكتبه يصرخ في وجهها:

- المواطن الفلسطيني لن يكون إسرائيليًا، ولو بعد ألف عام من تجنّسه، حتى ولو خان وطنه وأمدنا بالمعلومات، لن يكون اسرائيليًا، أفهمتِ؟

عمّ الصمت المكان، فأمر إيّاد العسكريان بالخروج، لتتدخّل آليس في الحديث موجّهة حديثها إلى أوليندە:

- اعلمي يا أوليندە أنك عسكرية، ويجب أن تبقي بهذه الصفة في معاملتك حتى ولو كنت في فترة عطلك، الحب لن يعود عليك إلا بالوبال، ستفقدين رتبتك، وربما ستحاكمين محاكمة عسكرية وتدخلين السجن لتصرفاتك المستهترة، لا يعني وثوقنا في غسّان؛ أنه يستحق الوثوق فيه حقًا.

دق عسكري باب المكتب، وأبلغ ايّـــاد من بعيد، أنه لم يتم العثور على شيء، يلتفت إيّاد محدّقا في عينيّ أوليندە، قائلا لها بحزمٍ وتحذير شديد اللهجة:

-حسنا، لم يعثروا على شيء في قارب أبو خالد ولا في بيته على شيء ممنوع، لكن لا يعني هذا نهاية الحكاية، سيظل غسّان محلّ شك ولو كان بريئًا، وعلاقتك به هي شيء مرفوض من قبلنا لولا أنها حياتك الشخصية، لم نثبت عليه شيئا مخالفا، وستصبحين شريكة في أي شيء مخالف نكتشف في حركاته، وستصبحين خائنة تستحقين الإعدام.

ردت أولينده:

- لقد قلتها بلسانك، أنك لم تثبتوا عليه شيئا مخالفا، وإذا ثبت أمر ما ضد غسّان، فسأقتله بيدي هاتين.

لم يقتنع اياد ولا آليس بكلامها الحادّ، لقد رأيا أن الحبّ اكتسح قلبها، وسيهلكها قريبا إذا لم تعد إلى رُشدها، لكن مَن يعود إلى رُشده بعد الحبّ؟ الكلُّ يعود من الحبّ مجانين، أو أشباه بشر، وقد انتزع منهم أجزاءٌ أعاقت حبّهم للحياة.

غادرت أولينده المكتب تحت تهديد ووعيد ضابط الشاباك، وليس في فكرها شك في غسّان، رغم تعلم أنها لم تفتشه، في حين أنه طلب منها ذلك، لقد كذبت على إياد عندما أخبرته أنها فتشته، بينما كانت نظراتها تركز في عيني غسان وفي قلبه، ربما قد ألقت نظرة سريعة سطحية على المعدات الكثيرة الملتفّة هنا وهناك، كان يهمّها أن تبقى قربه أطول مدة ممكنة، فكرت أنه لو أراد الفتك بها لفعل ذلك أكثر من مرة، سوى أنه عبّر لها عن حبّه الكبير في كل لحظة من لحظات تواجدهما مع بعض.

شعر غسّان بالقلق عندما أخبره ابوه أن الشرطة اقتحمت منزله وقاربه وفتشت في كل الأغراض، حيث أصيب بنوبة قلبية، لقد تأكد أنه مُراقب، وليس محل ثقة تامة من طرف الإسرائيليين مهما أحسّ أنه قد

نـال ثقـتهم، الشـك أهـم أدوات عملهـم، والحـذر مـن قِـبلِه هـو الأداة الأساسية لبقائه، ليأمن شرهم، وينفّذ عمليته.

بعدما فتّشوا منزل الأب ولم يجدوا شيئا، اضطر غسان إلى العودة المستشفى ليجلب له سيارة الإسعاف من أجل نقله إليها، كانت فرصة لرسم خطة لتهريب البندقية الجديدة إلى مكان قريب نقطة التماس المفترضة بين المتظاهرين والجنود، قبل أن يصل إلى بيت أبيه، ترك سائق الإسعاف عند أهله وطمأنه بأنه سيقوم بمهمة إجلاء أبيه وحده، ولكنها كانت في الحقيقة خطة من أجل تهريب البندقية إلى مكان آخر غير المنزل، ولحسن الحظ أنها كانت مفككة في مكان آمن جدا عن تفكير أي شخص، نقلها معه غسّان ودفنها تحت شجرة الزيتون بعد أن ركبها تركيبا جزئيًا في أحد التلال القريبة من الحواجز التي تحدث فيها الصدامات، كان الوضع هادئا آنذاك، ولكنه عندما مرّ من الحاجز كان التفتيش دقيقا رغم أنّهم يعرفون أنه مُسعف، وأنه يحمل مريضا معه، لكنهم تمادوا في تفتيشه، وهي إشارة منهم أنه محلّ شك، وسيارة الإسعاف التي صارت تخضع للتفتيش ككل السيارات.

اتصل غسان بأوليندة هاتفيا من منزل ابيه يشكو لها ما حدث في غيابه، والقوة العسكرية التي داهمت منزل أبيه وفتشت قاربه، مما تسبّب في أزمة قلبية لأبيه، عبّر لها عن غضبه مما حدث، جعل أوليندة تعتذر له عما جرى، وتخبره أنه ربّما يكون الضابط إياد هو من أمر بذلك تحت تحريض من أمها، وأخبرته عن التحقيق الذي تعرّضت له من طرف الشاباك، ثم اتصل بها مرة أخرى بعد ذلك من المستشفى بعدما ما مضى الليل كله فيه يعتني بأبيه.

فجرًا غادر غسان إلى بيت الأب، وعندما وصوله اتصلت به أوليندة تطمئنّ على صحة أبيه.

وقبل أن يغادر طلب منه الأب الانتباه لأن عين الشاباك وأعوانهم في كل مكان، وألا يتسرّع في تنفيذ أيّ عملية، أخبره غسان بأنه حذر جدا، ولن يقوم بأي شيء قبل يتحقق من نجاعته.

وصلت أوليندة إلى بيت أبو خالد الذي كان يأخذ فيه غسان قسطا من الراحة بعد ليلة مع أبيه المريض، واشتكى لها ما فعله إيّاد كما اشتكت هي من شكوك ضباط الشاباك حوله، سألها فجأة:

- أتثقين فيّ أوليندة؟

ردّت، دون تردّد:

- رغم انه سؤال مستفز، لكني سأجيبك لآخر مرة، فمن يوم الذي مسكتَ فيه سلاحي وطلبْتَ مني ألا أثق في أحد، منذ ذلك اليوم وأنا واثقة فيك أكثر من أي شخص.

ثم أردفت متسائلة:

- ولِم هذا السؤال؟

- سألتك لمّا وجدت يد إياد تتبعني في كل مكان، والأذى الذي قد يصيبك بسببي... ربما.

كانت ملامحه تريد أن تقول أكثر مما قال...

كان الوقت ليلا في قلب تل أبيب، رنّ هاتف أوليندة منبّها لوصول رسالة إلى هاتفها لكنها لم تفتحها، وبعد دقائق قليلة سمعا معًا حركة سيارات غير طبيعية تحوم حول مكان تواجدهما، فإذا بغسّان يطلّ من النافذة، فيجد أن قوة عسكرية إسرائيلية تحاصر المكان وتنتشر في محيط الحي كله، فيصيبه الخوف عن سبب المحاصرة، ويصيب أوليندة الحيرة مما

يجري حولها، وإذا بالضابط إياد يخرج من أحد السيارات المُحاصرة وهو يحمل مكبّر الصوت، ينادي على غسان بأن الجيش اكتشف أمره، وعليه أن يسلّم نفسه، وما إن سمعت أوليندة ذلك النداء، حتى وضعت يدها على مسدسها، متراجعة خطوات كثيرة عن غسّان، لتسمع إياد يطلب منها القبض على غسّان حيًا أو ميتًا مرى أخرى، نظرت إلى الرسالة التي وصلت إلى هاتفها ولم تقرأها بعد، لتجد أنه مكتوب عليها، وقد رفعت المسدس في وجه غسّان:

-غسّان هو القنّاص.

لتهتز مُنكرة ما تقرأ:

- كيف يمكن أن يكون غسّان هو القنّاص؟

خاطبهما إياد؛ يقصد غسّان؛ من مكبر الصوت، قائلاً:

- لقد تتبعنا تحركاتك من المستشفى إلى البيت ذهابا وإيابا من خلال اتصالاتك مع أوليندة، واكتشفنا أن المدة كانت غير متساوية، وكيف أنك سرّحت السائق لتدفن البندقية تحت شجرة الزيتون، وبواسطة الكلاب المدّربة اكتشفنا مكانها، وبصماتك عليها...

انبهرت أوليندة مما تسمعه، لا تصدق ما يقوله إياد، نظرت إلى غسّان الرجل الذي أحبّته بكل قوة وصدق، يصبح هو العدو في لحظات قليلة، تشدّ بقوة حول مسدسها، تحرّر الأمان موجّهة فوهته نحو رأس غسّان، الذي لم يتحرك من مكانه، ولم ينفِ ما سمعه من إيـّـاد.

لتسأله:

- أصحيح ما يقوله ايـّـاد؟

لم يجبها، بقي صامتا، بينما المكان محاصرا، وهي تحمل مسدس محشوا نحو وجهه...

قال لها:

- لم يكن الحب ممكنا بيننا كنت متأكد من هذه النهاية.

- أما أنا فقد أحببتك، بكل ما لديّ من عواطف.

- حبك مشبوه، فأنت جئتِ لتقتلين الأطفال والنساء والرجال، والقلب الذي يقتل الأطفال لا يمكنه أن يحبّ، لقد كان حبّك لا معنى لها، الذي يحبّ بصدق، لا يمكن أن يفعل ما كنت تفعلينه طوال خدمتك...

بكت طويلا، ثم قالت:

- لكن.. لماذا لم تقتلني عندما سمحت لك الفرصة؟

- لأننا نحن الفلسطينيون نبلاء؛ حتى مع أعدائنا.

سمعت أولينده نداء إياد وجنوده يقتربون من مكان تواجدهما، وهو يقول:

- سلم نفسك يا غسّان وإلا اقتحمنا المكان.

طلب من أولينده ان تتصل به إذا كانت مسيطرة على الوضع. فلم تجبه أولينده رغم أنها كانت تستطيع الرد عليه، امتلأ خدها بالدموع أمام ناظري غسان الذي يستعد وينتظر رصاصتها الأخيرة ممن ادعت أنها عشقته...

يبدو أنها اختارت الوطن بدل الحب كما فعل هو تماما.

وفي أثناء انتظار إياد وجنوده واستعدادهم لاقتحام المكان، سمعوا جميعا طلقتين ناريتين داخل الغرفة التي كانوا يحاصرونها...

انتهت...

الفهرس

الجزء الأول لا صوتَ يعلو فوق صوتِ المعركة 7
قطراتُ دمٍ على قلادةٍ من ذهب. 10
أشباحٌ مِن لحم ودم. 31
بريق فتات البلّور. 52
الانتقام وحده لا يكفي. 70
معارك جانبية. 86
طعناتٌ في الخاصرة. 105
أكاذيبُ العم أديسون. 142
الجزء الثاني للتراب جراح نازفة 156
هدايا مسمومة 157
أسيران في وطن واحد 171
صفقة أثناء العزاء 186
قطع ليل مظلمة 199
الموت ليس نهاية العالم 213
ابن البحر 227
البحر يأكل حيتانه 243
الجزء الثالث ندوب على جدران الذاكرة 259
بريء مع وقف التنفيذ 258
قنص في تل أبيب 274
الصياد يقع في شباكه 288
في عش الدبابير 305
معركة الشكوك 316
تبادل الأدوار 329
هل يخون الحبُّ الوطنَ؟ 243